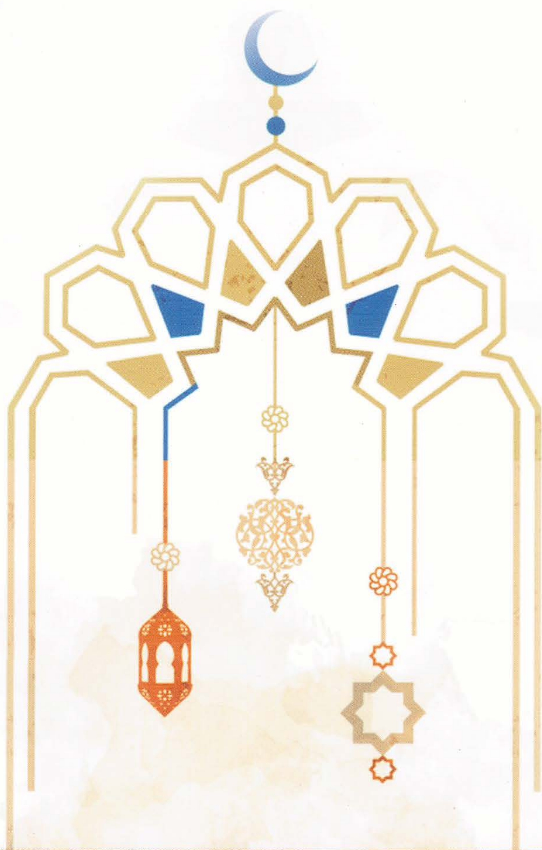
ابن تيمية والصوفية

(استقراء لمئة مجلد من كتب شيخ الإسلام)



تأليف

د. محمد بن عبد الرحمن العريفي

أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة

بجامعة الملك سعود في الرياض

ابن تيمية والصوفية

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤٤هـ
فهرست مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العريفي ، محمد عبد الرحمن ملهي
ابن تيمية والصوفية استقراء لمئة مجلد من كتب شيخ الاسلام. / محمد عبد الرحمن ملهي العريفي - ط١. .- الدمام ، ١٤٤٤هـ
٣٢٩ ص ؛ ١٧x٢٤سم
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٣٨٩-٦٢-١
١- العقيدة الاسلامية أ.العنوان
ديوي ٢٤٠ ١٤٤٤/٤٣٠٨

الطبعة الأولى
١٤٤٤هـ

الباركود الدولي: 9786038389621

توزيع



دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية:
الدمام-حي الريان-شارع عثمان بن عفان
ت: ٠١٣٨٤٢٨١٤٦-٠١٣٨٤٦٧٥٩٣-٠١٣٨٤١٢١٠٠
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي: ٤٩٧٣

الرياض- ت: ٠٥٩٢٦٦٢٤٩٥
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء- ت: ٠١٣٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٠١٠٠٦٣
جوّال: ٠٥٨٣٠١٧٩٥١

لبنان:
بيروت- ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة: ت: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٨٣
٠١٢٨١٩١٤٠٠١
٠١١١٢٤٥٨٤٤٤

aljawzi@hotmail.com
+966503897671
aljawzi
eljawzi
ibnaljawzi.com

ابن تيمية والصوفية

(استقراء لمئة مجلد من كتب شيخ الإسلام)

د. محمد بن عبد الرحمن العريفي

أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة
بجامعة الملك سعود في الرياض

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمدُ للَّه، والصلاة والسلام علىٰ رسول اللَّه، وعلىٰ آله وصحابته أجمعين.

أما بعد:

فهذا مختصر لرسالتي الدكتوراه: «آراء شيخ الإسلام ابن تيمية في الصوفية جمعاً ودراسة»، حيث طبعت الرسالة في مجلدين كبار، عام (١٤٣٠هـ ـ ٢٠١٠م)، وأشار عليَّ بعض الأفاضل باختصارها، فاختصرتها في هذا المجلد الصغير، وعملي في الاختصار:

١ ـ حذفت الحواشي التي تحتوي الإحالة إلىٰ كتب شيخ الإسلام، لكثرتها، ويمكن الرجوع إلىٰ الرِّسالة الأصل لمعرفتها، أو مراجعة المكتبات الشاملة في الانترنت.

٢ ـ حذفت حواشي أخرىٰ، كمراجع التعريفات للمصطلحات، ومراجع التراجم وتعريف الفرق والطوائف، واختصرت تخريج الأحاديث، وكله مفصل في الرسالة الأصل.

٣ ـ حذفت في هذا المختصر فصولاً من الرسالة الأصلية، كمقارنة منهج ابن تيمية والغزالي رَحِمَهُمَاٱللَّهُ، في التعامل مع الصوفية، ومقارنة منهج ابن تيمية مع كتب المقالات والفرق في التعامل مع الصوفية، وفصولاً أخرىٰ.

٤ ـ وضعت في هذا المختصر زبدة موقف ابن تيمية من الصوفية، الذي نقلته مطوّلاً في الرسالة الأصل.

وأخيراً، فهذا المختصر لا يغني طالب العلم المتخصص عن الكتاب الأصلي، لكنه يحتوي أكثر الفوائد المسطرة في الكتاب الأصلي.

وأسأل اللَّه ان ينفع به إنه سميع مجيب.

✍ كتبه /
د. محمد بن عبد الرحمن بن ملهي العريفي
الأستاذ بجامعة الملك سعود في الرياض
هاتف جوال ٠٠٩٦٦٥٠٥٨٤٥١٤٠
الموقع: www.arefe.ws
تويتر: mohamadalarefe
فيس بوك: 3refe
سناب شات: Mohamad_alarefe
تلجرام: alarefe_ar
يوتيوب: alarefeTV



مدخل
ترجمة موجزة لشيخ الإسلام

تنوعت الدراسات التي تناولت شخصيته، حتىٰ بلغت أكثر من مائة وخمسين بحثاً ومصنفاً.

هو شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس بن تيمية النميري الحراني ثم الدمشقي، ولد يوم الاثنين، العاشر، من شهر ربيع الأول، سنة إحدىٰ وستين وستمائة ببلدة حران، ثم انتقل والده به لدمشق هرباً من التتار، وقدموا دمشق سنة سبع وستين وستمائة.

ونشأ في بيئة علمية؛ فأسرته لها مكانتها في العلم؛ وبدأ في طلب العلم في سن مبكر، فقد «سمع مسند أحمد بن حنبل، والكتب الستة، ومعجم الطبراني الكبير، وقرأ ونسخ، وتعلم الخط والحساب في المكتب، وحفظ القرآن، وأقبل علىٰ الفقه، والعربية والتفسير وأحكم أصول الفقه، وغير ذلك، هذا وهو ابن بضع عشرة سنة، فانبهر أهل دمشق من فرط ذكائه» ا.هـ.

ولما كان صبياً أراد والده أن يخرج بأولاده يوماً إلىٰ البستان علىٰ سبيل التنزه، فقال له: يا أحمد تخرج مع إخوتك تستريح! فاعتلَّ، فألحَّ عليه والده، فامتنع وقال: أشتهي أن تعفيني، فتركه ورجعوا آخر النهار، فقال: يا أحمد أوحشت إخوتك اليوم، بسبب غيبتك! فقال: إنني اليوم حفظت هذا الكتاب، لكتاب معه[1]، فقال:

---

(١) الكتاب هو «جنة المَنَاظر وجنة المُناظِر» وهو مجلد صغير.

حفظته؟! فقال: استعرضه عليَّ، فاستعرضه، فإذا به قد حفظه!! فقبله بين عينيه، وقال: يا بني لا تخبر أحداً بما فعلت، خوفاً من العين

«نشأ في تصون تام، وعفاف، وتأله وتعبد، وكان يحضر المدارس والمحافل في صغره، ويناظر ويفحم الكبار، ويأتي بما يتحير منه أعيان البلد في العلم، فأفتىٰ وله تسع عشرة سنة، بل أقل، وشرع في الجمع والتأليف من ذلك الوقت، وأكب علىٰ الاشتغال، ومات والده ـ وكان من كبار الحنابلة وأئمتهم ـ فدرس بعده بوظائفه، وله إحدىٰ وعشرون سنة، واشتهر أمره، وأخذ في تفسير الكتاب العزيز في الجُمَع علىٰ كرسي، مِن حِفظه، فكان يورد المجلس ولا يتلعثم، وكذا كان الدرس بتؤدة وصوت جهوري فصيح» ا.هـ[(١)].

ومع انشغاله بجهاد أهل البدع وتأليف الكتب في بيان ضلالهم، كان كثير الاستغفار، وقال: إنه ليقف خاطري في المسألة والشيء أو الحالة التي تشكل عليَّ فأستغفر اللَّه ألف مرة، حتىٰ ينشرح الصدر وأكون إذ ذاك في السوق أو المدرسة، إلىٰ أن أنال مطلوبي.

وكان لا يكلمه أحد ـ بغير ضرورة ـ بعد صلاة الفجر، فلا يزال في الذكر حتىٰ ترتفع الشمس.

وكان زاهداً، قال أبوه لمعلمه وهو صبي في القرآن: أحِب أن توصيه، وتعده بأنك إن لم تنقطع عن القراءة أدفع إليك أربعين درهماً، ودفع إليه أربعين درهماً، وقال: أعطه إياها، فإنه صغير يفرح بها، فيزداد حرصُه في القرآن، فامتنع ابن تيمية من قبولها، وقال: إني عاهدت اللَّه أن لا آخذ علىٰ القرآن أجراً.

---

(١) سير الأعلام (١٧/٥٣٢).

وقال الذهبي: «ما رأيت أكرم منه، ولا أفرغ عن الدينار والدرهم، ولا أظنه يدور في ذهنه، وفيه مروءة، وقيام مع أصحابه، وسعي في مصالحهم، وهو فقير لا مال له» ا. هـ[(١)].

وكان حليماً؛ حتىٰ قال بعضُ خصومُه: «ما رأينا أتقىٰ من ابن تيمية؛ لم نبق ممكِناً في السعي فيه، ولما قدِر علينا عفا عنا».

وحكىٰ ابن تيمية: أن السلطان[(٢)] أخرج فتاوىٰ لبعض الحاضرين في قتله، واستفتاه في قتل بعضهم، ففهمت مقصوده، وأن عنده حنقاً شديداً عليهم؛ لما خلعوه وبايعوا الملك المظفر، فشرعتُ في الثناء عليهم وأن هؤلاء لو ذهبوا لم تجد مثلهم في دولتك، أما أنا فهم في حِلٍّ من حقي، وسكَّنتُ ما عنده عليهم.

ومن سرعة حفظه: كان يمر بالكتاب مرة فينتقش في ذهنه، فيذاكر به، وينقله في مصنفاته بلفظه، ومن ذلك أن بعض علماء حلب قدم دمشق، وقال: سمعت بصبي يقال له أحمد بن تيمية، سريع الحفظ، لعلي أراه! فقال له خياط: هذه طريقه، فاقعد، فجلس الحلبي، فمر صبيان فقال الخياط: ذاك الصبي الذي معه اللوح الكبير هو أحمد بن تيمية، فناداه الشيخ، وتناول اللوح وقال: أملي عليك شيئاً تكتبه! فأملىٰ ثلاثة عشر حديثاً، وقال له: اقرأ هذا، فتأمله مرة ثم دفعه إليه، وقال: اسمعه عليَّ، فقرأه عليه، فقال له: امسح، فأملىٰ عليه أسانيد، وقال: اقرأ هذا، فنظر فيه كما فعل أول مرة! فقام الحلبي وهو يقول: إن عاش هذا الصبيُّ ليكونن له شأن عظيم؛ فإن هذا لم يُرَ مثله» ا. هـ[(٣)].

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة (٢/٣٩٦).
(٢) أي الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون.
(٣) العقود الدرية (ص: ٤).

وكانت له جهود كبيرة في جهاد التتار، والرافضة[١] والباطنية[٢]،

(١) الرافضة: طائفة من غُلاة الشيعة، سُمّوا رافضة لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر، وهم مُجمعون علىٰ أن النبي ﷺ نص علىٰ استخلاف علي بن أبي طالب باسمه، وأظهر ذلك وأعلنه، وأن أكثر الصحابة ضلوا بتركهم الاقتداء به بعد وفاة النبي ﷺ، بل تعدّوا ذلك إلىٰ الوقيعة في الصحابة طعناً وسباً وتكفيراً، وهم فرق وطوائف كل فرقة تكفر غيرها. .

(٢) الباطنية: سُموا بذلك لأنهم ادعوا أن لنصوص الشريعة ظاهراً وباطناً، وزعموا أن العامة هم المرادون بظواهر النصوص، أما من ارتقىٰ إلىٰ علم الباطن فقد انحطت عنه التكاليف، وأطلقوا عليها: الأغلال، وقالوا: إنهم هم المرادون بقوله تعالىٰ: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وغرضهم بذلك إبطال الشرائع، ونفي المعاد والجنة والنار، والباطنية أشر الطوائف علىٰ المسلمين، وأول من دعا إلىٰ هذا المذهب: عبد اللَّه بن ميمون القداح (مولىٰ جعفر الصادق) في زمن المأمون.

وذكر شيخ الإسلام (بيان التلبيس ٢٥٩/١ ـ ٢٦٠) أن اسم الباطنية في كلام الناس يقال علىٰ صنفين:

أحدهما: من يقول: للكتاب والسنة باطن يخالف ظاهرها، وهؤلاء هم المشهورون عند الناس باسم الباطنية، وهؤلاء قسمان:

قسم يرون ذلك في الأعمال الظاهرة كالصلاة والصيام والحج. . ، ويرون أن الخطاب المبين لوجوب هذه الواجبات وتحريم المحرمات، ليس هو علىٰ ظاهره المعروف عند الجمهور، ثم قال: «وهؤلاء زنادقة منافقون باتفاق سلف الأمة الإسلام، ولا يخفىٰ نفاقهم علىٰ من له بالإسلام أدنىٰ معرفة. . .» وذكر أن من هؤلاء زنادقة الصوفية من الاتحادية الحلولية، وهذا القسم الذي ذكره الشيخ هم المعنيون هنا.

أما القسم الثاني: فهم الذين يقولون بالباطن المخالف للظاهر في العلميات، وأما العمليات فيقرونها علىٰ ظاهرها، وذكر شيخ الإسلام أن هذا قول عقلاء الفلاسفة المنتسبين إلىٰ الإسلام.

والصوفية، وأهل الخرافات، وله مواقف لشجاعته وقوته، وإنكاره للمنكر، وجهاده.

وكان من أشجع الناس ولا يخاف في اللَّه لومة لائم، وكان إذا حضر مع عسكر المسلمين في جهاد يكون بينهم، إن رأىٰ هلعاً شجعهم، وبشرهم بالنصر والغنيمة، وبيَّن فضل المجاهدين، وإنزال اللَّه عليهم السكينة. . .

ولما ظهر السلطان غازان علىٰ دمشق جاءه مِلِك الكرج، وبذل أموالاً علىٰ أن يمكنه من الفتك بأهل دمشق، ووصل الخبر إلىٰ الشيخ، فقام وشجع المسلمين ورغبهم في الشهادة، ووعدهم بالنصر والأمن، فانتُدِب منهم رجال من كبرائهم، فخرجوا معه إلىٰ السلطان غازان، فلما رآهم السلطان قال: من هؤلاء؟ قيل: هم رؤساء دمشق، فأذن لهم، فتقدم الشيخ أولاً، وأخذ في الكلام معه وأخبره بحرمة دماء المسلمين، ووعَظَه، فأجابه إلىٰ ذلك طائعاً، وحقنت دماء المسلمين، وحميت ذراريهم، وحريمهم.

وقال وجيه الدين ابن المنجا قال: كنت حاضراً، فجعل الشيخ يحدث السلطان بقول اللَّه ورسوله في العدل، حتىٰ جثا علىٰ ركبتيه، جعل يقرب منه، حتىٰ تلاصق ركبتُه ركبةَ السلطان، والسلطان مقبل عليه وسأل أهل حضرته: من هذا الشيخ؟! إني لم أر مثله، ولا رأيتني أعظم انقياداً مني لأحد، وسأله: إن أحببت أن أعمر لك بلد آبائك حران، وتنتقل إليه، ويكون برسمك، فقال: لا أرغب عن مهاجر إبراهيم ﷺ، فخرج وقد حقن دماء المسلمين وفك أسارىٰ المسلمين.

وحين وُشِي به إلىٰ السلطان الناصر، أحضره بين يديه، وقال: إنني أُخبرت أنك أطاعك الناس، وأن في نفسك أخذ الملك! فقال له: أنا أفعل ذلك؟! واللَّه إن ملكك وملك المغول لا يساوي عندي

فلسين، فتبسم السلطان وقال: إنك لصادق، وإن الذي وشىٰ بك كاذب» ا.هـ[(١)].

وقال الذهبي عنه: «ولقد نصر السنة والطريقة السلفية، ببراهين لم يسبق إليها، حتىٰ قام عليه خلق من علماء مصر والشام وبدعوه، وناظروه، وهو ثابت يقول الحق الذي أداه إليه اجتهاده، فجرىٰ بينه وبينهم حملات حربية ووقائع شامية ومصرية، ورموه عن قوس واحدة فينجيه اللَّه، فإنه دائم الابتهال كثير الاستغاثة قوي التوكل ثابت الجأش، له أوراد وأذكار يدمنها بكيفية وجمعية.

وله محبون من العلماء والجند والأمراء والتجار والكبراء والعامة لأنه منتصب لنفعهم ليلاً ونهاراً بلسانه وقلمه، وله حدة قوية تعتريه في البحث حتىٰ كأنه ليث، وهو أكبر من أن ينبه مثلي علىٰ نعوته فلو حُلِّفْتُ بين الركن والمقام لَحَلَفْتُ أني ما رأيت مثله ولا رأىٰ هو مثل نفسه في العلم» ا.هـ.

وقد تبوأ مكانة عالية، واتفق أهل العلم علىٰ إمامته، ولقب بشيخ الإسلام في حياته[(٢)].

قال العلامة كمال الدين بن الزملكاني: «كان إذا سئل عن علم ظن السامع أنه لا يعرف غيره وكان الفقهاء إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم ما لم يعرفوه قبل ذلك، ولا ناظر أحداً فانقطع، ولا تكلم في علم إلا فاق فيه أهله، وكانت له اليد الطولىٰ في حسن التصنيف، وجودة العبارة، والترتيب والتقسيم والتبيين» ا.هـ.

---

(١) الأعلام العلية (ص: ٦٣ ـ ٦٦).

(٢) انظر: كتاب الرد الوافر علىٰ أن من زعم بأن من سمىٰ ابن تيمية: شيخ الإسلام؛ كافر. ذكر فيه مؤلفه جمعاً من العلماء أكثر من ثمانين عالماً لقبوا ابن تيمية بشيخ الإسلام.

وقال الحافظ المزي: «ما رأيت مثله ولا رأىٰ هو مثل نفسه وما رأيت أحداً أعلم بكتاب اللَّه وسنة رسوله ولا أتبع لهما منه» ا.هـ.

وقال الذهبي عنه: «وله خبرة تامة بالرجال والحديث، فكل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث، ولكن الإحاطة للَّه، غير أنه يغترف من بحر، وغيره يغترفون من السواقي، وأما التفسير فمسلم إليه، وله في استحضار الآيات وإقامة الدليل بها علىٰ المسألة قوة عجيبة، ويكتب في اليوم والليل من التفسير أو الفقه أو الرد علىٰ الفلاسفة[١] نحواً من أربعة كراريس، أو أزيد، وما أُبعِد أن تصانيفه إلىٰ الآن تبلغ خمسمائة مجلدة» ا.هـ.

وقد جلس للإفتاء والتدريس وهو لم يتجاوز العشرين من عمره، وحضر درسه كبار العلماء في دمشق، وأُعجِبوا من درسه وأثنوا عليه.

وقال الذهبي: «وأما أصول الدين ومعرفة أقوال الخوارج[٢]

---

(١) الفلاسفة: الفلسفة في الأصل معناها: محبة الحكمة، وهي كلمة يونانية مكونة من مقطعين: فيلا: أي محبّ، وسوفيا: أي الحكمة. كان المراد بالفلسفة قديماً: تفسير المعرفة عقلياً، وفي القرون الوسطىٰ أصبح المراد بالفلسفة الوقوف علىٰ حقائق الأشياء، نظرية كانت أو عملية، وأصبحت منذ القرن التاسع عشر تقتصر علىٰ المنطق وما بعد الطبيعة. هذا حسب مفهوم الفلاسفة، ولكن في الحقيقة أصبح هذا الاسم يطلق علىٰ أتباع إرسطو الذين هذب ابن سينا طريقتهم، ومن آراء معظّميهم: القول بقدم العالم، وإنكار النبوات، وإنكار البعث الجسماني، أما موضوع الفلسفة فهو موضع خلاف، فمن قائل: إن دائرة الفلسفة تتسع فتشمل كل علم أو فرع من فروع العلم. إلىٰ قائل: بأنها تختص فقط بالبحث فيما وراء الطبيعة، أو ما يتصل به كالمنطق.

(٢) الخوارج: اسم يُطلق علىٰ كل من خرج علىٰ الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه، سواء كان الخروج في أيام الصحابة علىٰ الأئمة الراشدين، =

والروافض، والمعتزلة[١] والمبتدعة فكان لا يشق فيها غباره» ا.هـ.

وقال ابن حجر: «كان من أعظم الناس قياماً علىٰ أهل البدع من الروافض، والحلولية[٢] . . . .

= أم كان بعدهم علىٰ التابعين لهم بإحسان، لكن صار هذا الاسم عَلَماً علىٰ أول من خرج علىٰ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان الخوارج من أنصار علي رضي الله عنه، ثم انشقوا عنه بعد التحكيم، قال ابن حزم: «كانوا أعراباً قرؤوا القرآن، ولم يتفقهوا في السنن؛ وبذلك تعددت طوائفهم».

(١) المعتزلة: اختلف في سبب تسميتهم بذلك، فقيل: لاعتزال واصل بن عطاء حلقة الحسن البصري، لما خالفه في حكم مرتكب الكبيرة، حيث قال واصل: إنه في منزلة بين المنزلتين، فأطلق عليه واتباعه المعتزلة، وقيل غير ذلك، وقد أطلقت عليهم ألقاب أخر نحو: الوعيدية، والمنزلة والنفاة ومخانيث الخوارج، وهم فرق كثيرة، ولهم أصول خمسة هي: التوحيد والعدل والمنزلة بين المنزلتين والوعد والوعيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد ستروا تحت هذه الأصول معان باطلة.

(٢) الحلولية: قوم يزعمون أن اللَّه يحل بذاته في أجسام المخلوقات، وهو مذهب قديم في معظم الديانات، والملل السابقة، ومن القائلين به في هذه الأمة: الغلاة من الشيعة، وكذلك بعض الصوفية. وقد قسمهم شيخ الإسلام قسمين:

الأول: من يقول بالحلول الخاص، وهو قول النساطرة من النصارىٰ الذين يقولون إن اللاهوت حلّ في الناسوت. . . ، وغالية الرافضة، الذين يقولون: إنه ـ أي اللَّه تعالىٰ ـ حلّ بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأئمة أهل بيته، وغالية النساك الذين يقولون بالحلول في الأولياء أو من يعتقدون فيه الولاية، أو في بعضهم.

والثاني: هو الحلول العام، وهو القول الذي ذكره أئمة أهل السنة والحديث عن طائفة من الجهمية المتقدمين، وهو قول غالب متعبدة الجهمية، الذين يقولون: إن اللَّه بذاته في كل مكان. ويتمسكون بمتشابه =

والاتحادية[(١)] وتصانيفه في ذلك كثيرة، وفتاويه لا تدخل الحصر» ا. هـ.

✍ شيوخه وتلاميذه:

بلغ عدد شيوخه الذين سمع منهم أكثر من مائتي شيخ، وتلاميذه يصعب حصرهم واستقصاؤهم؛ إذ بدأ بالتدريس منذ صغره، وبقي أكثر من أربعين عاماً يلقي دروسه، ولم تكن في مكان واحد، ومن أبرز تلاميذه شمس الدين ابن قيم الجوزية صاحب التصانيف، وأبو

= من القرآن، كقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣]، وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ٤]، والرد علىٰ هؤلاء كثير مشهور في كلام أئمة السنة وأهل المعرفة وعلماء الحديث. وقد ذكر البغدادي أنهم عشر فرق، أكثرها يرجع إلىٰ غلاة الرافضة.

(١) الاتحادية: قسمهم الشيخ قسمين:

الأول: هو الاتحاد الخاص، وهو قول يعقوبية النصارىٰ، وهم أخبث قولا، وهم السودان والقبط. يقولون: إن اللاهوت والناسوت اختلطا وامتزجاً، كاختلاط اللبن بالماء. وهو قول من وافق هؤلاء من غالية المنتسبين إلىٰ الإسلام.

الثاني: الاتحاد العام، وهو قول الملاحدة الذين يزعمون أنه عين وجود الكائنات، وهؤلاء أكفر من اليهود والنصارىٰ من وجهين:

- من جهة أن أولئك قالوا: إن الرب يتحد بعبده الذي قربه واصطفاه بعد أن لم يكونا متحدين. وهؤلاء يقولون: مازال الرب هو العبد وغيره من المخلوقات ليس هو غيره.

- والثاني: من جهة أن أولئك خصوا ذلك بمن عظموه كالمسيح، وهؤلاء جعلوا ذلك ساريا في الكلاب والخنازير والأقذار والأوساخ، وإذا كان اللّٰه تعالىٰ قد قال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢] الآية، فكيف بمن قال: إن اللّٰه هو الكفار والمنافقون والصبيان والمجانين والأنجاس والانتان وكل شيء؟!.

محمد القاسم البرزالي، والحافظ أبو الحجاج المزي، والحافظ أبو عبد اللَّه الذهبي، وابن مفلح الحنبلي، وابن قدامة المقدسي، والحافظ ابن كثير.

مصنفاته:

حصر مؤلفاته يصعب لكثرتها، وتفرقها في البلدان، وعدم حفظه بنسخ منها عنده، وهذه الصعوبة والعجز ليس في المتأخرين، بل حتىٰ تلامذته ومن عاصروه متفقين علىٰ عدم إمكان حصرها واستقصائها.

قال ابن عبد الهادي: «وللشيخ من المصنفات ما لا ينضبط، ولا أعلم أحداً جمع مثل ما جمع، ولا قريباً من ذلك، وأكثر تصانيفه أملاها من حفظه، وكثير منها صنفه في الحبس، وما جمعه في التفسير، في ثلاثين مجلداً، وكان يقول: ربما طالعت علىٰ الآية الواحدة نحو مائة تفسير، ثم أسأل اللَّه الفهم» ا.هـ.

وقال ابن القيم: «فإن جماعة سألوني أن أذكر ما ألفه الشيخ، فذكرت أني عجزت عن حصرها.. فتعينت إجابتهم.. واللَّه المستعان» ا.هـ[(١)].

وقال البزار: «وأما مؤلفاته كثيرة جداً، كباراً وصغاراً، منشورة في البلدان، فقل بلد نزلته إلا ورأيت فيه من تصانيفه» ا.هـ.

وقد ذكر الذهبي أنها تبلغ ألف مصنف، بل أكثر من ذلك.

ومن أشمل ما وقفت عليه ممن سعىٰ في حصر مؤلفات الشيخ ما قام به محققا كتاب «الصارم المسلول» حيث ذكرا ما يزيد علىٰ سبعمائة كتاب ورسالة[(٢)]، ومؤلفات الشيخ ورسائله أكثرها في الأصول

---

(١) أسماء مؤلفات شيخ الإسلام (ص: ٨).

(٢) انظر: الصارم المسلول علىٰ شاتم الرسول (١/٧٠ ـ ١٥٢)، تحقيق محمد =

والعقائد والرد علىٰ البدع، وقد بيّن الشيخ سبب ذلك.

قال البزار: «فسألته عن سبب ذلك، فقال لي: الفروع أمرها قريب، ومن قلد المسلم فيها أحد العلماء جاز له ما لم يتيقن خطأه. وأما الأصول فإني رأيت أهل البدع والضلالات والأهواء كالمتفلسفة[(١)]، والباطنية، والملاحدة[(٢)]، والقائلين بوحدة الوجود[(٣)]، والدهرية[(٤)]، والقدرية[(٥)] ....

= ابن عبد اللَّه الحلواني ومحمد كبير أحمد شودري، وقد اقتصرت علىٰ الإحالة علىٰ بعض من سعىٰ في استقصاء ما أمكنه، وذلك خشية التكرار دون فائدة تذكر، خاصة أن هذه الكتب متوفرة بين يدي القراء.

(١) المتفلسفة: هم المتأثرون بآراء الفلاسفة، وقد تقدم بيان المراد بالفلاسفة. ومن أشهر المتفلسفة المنتسبين إلىٰ الإسلام: ابن سينا، والفارابي، والغزالي، وابن رشد، وابن عربي. وقد سعوا في الجمع بين نصوص الشريعة وبين أراء الفلاسفة أرسطو وأتباعه، مما جعلهم يحرفون النصوص عن دلالتها، ويتأولونها تأويلات باطنية.

(٢) الملاحدة: الإلحاد مأخوذ من اللحد وهو الميل، لحد وألحد بمعنىٰ مال، والإلحاد يكون: في أسماء اللَّه وهو أنواع، ويكون في آيات اللَّه الكونية والشرعية وهو أنواع أيضاً. ويطلق لفظ الملاحدة علىٰ الذين ينكرون وجود اللَّه، أو ينكرون البعث والنشور.

(٣) القائلون بوحدة الوجود: أي أن الوجود الذي لذات المخلوق هو عين وجود ذات اللَّه.

(٤) الدهرية: هم الذين ينفون الربوبية، ويحيلون الأمر والنهي والرسالة من اللَّه تعالىٰ، ويقولون: يستحيل هذا في العقول، ويقولون بقدم العالم، وينسبون النوازل التي تنزل بهم إلىٰ الدهر، وقد ذكر ابن القيم أنها طائفتان.

(٥) القدرية: هم نفاة القدر، وغالباً ما يطلق هذا الاسم علىٰ المعتزلة لنفيهم القدر، وإن كان القدرية الأولىٰ الذين أنكروا علم اللَّه تعالىٰ =

والنصيرية(١)، والجهمية(٢)، والحلولية، والمعطلة(٣)، والمجسمة(٤)،

= السابق أقدم ظهوراً من المعتزلة، حيث ظهرت هذه الفرقة في آخر عهد الصحابة رضي الله عنهم. وقد تبرأ منهم الصحابة كابن عمر وغيره، وقد قيل: أن أول من ابتدع القول بالقدر سوسن النصراني. كما أنه رويت أحاديث بتسميتهم مجوس هذه الأمة. وذلك لمضاهاة مذهبهم مذهب المجوس في قولهم بالأصلين، وهما النور والظلمة، ويزعمون أن الخير من فعل النور، وأن الشر من فعل الظلمة، وكذا القدرية يضيفون الخير إلىٰ اللَّه، والشر إلىٰ الإنسان والشيطان. ولقب القدرية لقب ذم ولذا تنكره المعتزلة، بل تطلقه علىٰ أهل السنة والجماعة.

(١) النصيرية: فرقة من غُلاة الباطنية، أرجح الآراء أنهم يُنسبون إلىٰ ابن نُصير مولىٰ الحسن العسكري أو من أصحابه، وهو محمد بن نُصير البصري النميري، المتوفَّىٰ سنة ٢٦٠، وقيل: ٢٧٠، وهم يُؤلِّهون علياً رضي الله عنه، ويستحلُّون المحارم، وهم يوجدون اليوم في شمال سوريا ولبنان وفي لواء أنطاكية واسكندرونة بتركيا، ويُطلقون علىٰ أنفسهم: العلويون.

(٢) الجهمية: هم أتباع الجهم بن صفوان وهم من الجبرية الغلاة الذين يقولون: أن الإنسان مجبور، لا اختيار له ولا إرادة، وكذلك ينكرون الأسماء والصفات فهم معطلة، ويقولون بفناء الحنة والنار. وقد أخرج كثير من العلماء الجهمية من فرق المسلمين ولا يعدونها منها، كابن المبارك وغيره

(٣) المعطلة: التعطيل هو إنكار ما يجب للَّه تعالىٰ من الأسماء والصفات، أو إنكار بعضها، والتعطيل نوعان: تعطيل كلي كتعطيل الجهمية الذين ينكرون الأسماء والصفات، وتعطيل جزئي كتعطيل الأشعرية الذين ينكرون بعض الصفات دون بعض.

(٤) المجسمة: هم الذين يطلقون علىٰ اللَّه تعالىٰ لفظ «الجسم»، وبعضهم يصف هذا الجسم وصفاً دقيقاً فيذكر طوله وعرضه.. الخ، ولفظ الجسم من الألفاظ المجملة التي لم يرد نفيها ولا إثباتها في الكتاب ولا في السنة، لذا لا ينبغي أن تطلق علىٰ اللَّه تعالىٰ نفياً ولا إثباتاً، ومن أشهر =

والمشبهة[١]، والراوندية[٢]، والكلابية[٣]، والسليمية[٤]، وغيرهم

= المجسمة: الكرامية، وطائفة من الشيعة.

(١) المشبهة صنفان: صنف: شبهوا ذات اللّٰه تعالىٰ بذات غيره، وهم أصناف مختلفة، وصنف: شبهوا صفات اللّٰه تعالىٰ بصفات المخلوقين، وهم أصناف أيضاً، منهم: من شبّه كلام اللّٰه بكلام خلقه، ومنهم من شبه صفات اللّٰه تعالىٰ الذاتية بصفات خلقه، وأول من أفرط في التشبيه: فرقة من فرق الروافض تسمىٰ «السبئية»، ومن رؤوس المشبهة: هشام بن سالم الجواليقي، وداود الحواري، وأهل الحلول والاتحاد هم من غلاة المشبهة.

ولفظ التشبيه من الألفاظ المجملة المشتركة، ولفظ المشبهة يطلقه أهل الأهواء والبدع علىٰ كل من أثبت ما ينكرونه من صفات اللّٰه وأسمائه.

(٢) الراوندية: هم أتباع ابن الراوندي أحمد بن يحيىٰ، أبو الحسين، فيلسوف مجاهر بالإلحاد، له كتاب علىٰ أهل الاعتزال سماه «فضيحة المعتزلة»، توفي سنة: ٢٤٥. والفرقة تزعم أن النبي ﷺ نص علىٰ العباس بن عبد المطلب، ونصَّبه إماماً.

(٣) الكلابية: هم أتباع عبد اللّٰه بن سعيد بن كلاب من آرائهم: أن أسماء اللّٰه وصفاته لذاته لا هي اللّٰه ولا هي غيره، وأنها قائمة باللّٰه، ولا يجوز أن تقوم بالصفات صفات. وأن الصفات لا تتغاير، وأن العلم لا هو القدرة ولا غيرها، وكذلك سائر الصفات، وأن الإيمان لا يتفاضل بمعنىٰ أنه شيء واحد لا يزيد ولا ينقص. وأن القرآن معنىٰ قائم بالنفس لا يتعلق بالقدرة والمشيئة، وأنه لازم لذات اللّٰه. . .

(٤) السليمية: يحتمل أن يكون المراد بها: السليمانية إحدىٰ فرق الزيدية أتباع سليمان بن جرير، وسيأتي حديث عنها في مبحث الزيدية، أو أن يكون المراد بالسليمية ـ خاصة أنه في نسخة المنجد السلمية، وذكرها بعد الكلابية ـ: السالمية: أتباع أبي عبد اللّٰه محمد بن سالم ـ المتوفىٰ سنة ٢٩٧ ـ وابنه أبي الحسن أحمد بن سالم ـ المتوفىٰ سنة ٣٥٠ ـ وقد تتلمذ محمد بن سالم علىٰ سهل بن عبد اللّٰه التستري، وأبي طالب المكي، =

من أهل البدع قد تجاذبوا فيها بأزمة الضلال، وبان لي أن كثيراً منهم قصد إبطال الشريعة.. ويجب علىٰ من يقدر علىٰ دفع شبههم أن يبذل جهده ذباً عن الملة.. فهذا ونحوه هو الذي أوجب أني صرفت جل همي إلىٰ الأصول» ا.هـ.

وقد ابتُلي الشيخ بمحن من أبرز أسبابها منهجه في اتباع السنة والدعوة إليها، ومحاربة البدع، مما ألب عليه شيوخ المذاهب المخالفة حسداً لما يرون له من المكانة، ومن ذلك:

محنته بسبب الفتوى الحموية: وقد ذكر فيها معتقد أهل السنة في الصفات. فادعىٰ خصومه أنه ذكر فيها ما أفسد عقائد عوامهم، وحصلت مناظرات انتهت بالاعتراف للشيخ بأنه علىٰ الحق.

محنته حول «الواسطية»: اتُّهم الشيخ بسوء العقيدة، فعقدت مناظرات، وانتهت ببراءته.

محنته في مصر: وشىٰ به أعداؤه إلىٰ سلطان مصر بأنه مبتدع، فاستدعي إلىٰ مصر وعقد له مجلس كان فيه الحكم هو خصمه القاضي ابن مخلوف، وقد أنكر الشيخ كيف يكون الحكم هو الخصم مما أغضب القاضي، وحبس الشيخ ثمانية عشر شهراً، ثم أخرج، وتفرغ للتدريس والإفتاء.

محنته مع الصوفية: عندما أخرج من السجن، بقي في مصر للتدريس، وأنكر علىٰ الصوفية بدعهم، فثار الصوفية، وشكوه إلىٰ السلطان، فعقد مجلساً، ادعىٰ فيه علىٰ الشيخ بأشياء لم يثبت منها شيء، ثم أمر السلطان بتخييره بين السفر إلىٰ دمشق أو الإسكندرية أو الحبس، فاختار الحبس، فدخل عليه جماعة في السفر إلىٰ دمشق،

= ويجمع السالمية في مذهبهم بين كلام أهل السنة، وكلام المعتزلة، مع ميل إلىٰ التشبيه، ونزعة صوفية اتحادية.

فأجابهم، وفي الطريق رد إلىٰ مصر وبعد توقف القضاة وترددهم في الحكم عليه بالحبس، قال: أنا أمضي إلىٰ الحبس للمصلحة، ثم نقل للإسكندرية، لما رأىٰ خصومه أثره الكبير علىٰ الناس وهو في السجن، وبقي فيها نحو من ثمانية أشهر، ثم رجع للقاهرة بعد رجوع السلطان الناصر إلىٰ الحكم.

محنته بسبب فتواه في الطلاق: حيث ترجح لديه اعتبار الثلاث بكلمة واحدة طلاقاً رجعياً، فمنع من الإفتاء بذلك، فلم يستجب، لأنه يرىٰ أنه لا يسعه كتمان العلم. وقد عقد له مجلس عوتب فيه وحكم بسجنه، ثم أخرج منه بعد خمسة أشهر.

محنته بسبب فتواه في شد الرحال إلى القبور: وهي من أعظم المحن التي مرت عليه، وقد كذب فيها عليه، وحرف كلامه، وأوذي تلاميذه فيها، وسجن بسببها، وكانت من أشد المصائب عليه، وبقي فيه إلىٰ أن مات(١).

✍ وفاته:

توفي ليلة الاثنين العشرين من ذي القعدة من سنة ثمان وعشرين وسبعمائة، معتقلاً بقلعة دمشق، وكان يوم وفاته مشهوداً، فلم يبق في دمشق من يستطيع المجيء للصلاة عليه إلا حضر، وخرج الأمراء والرؤساء والعلماء والفقهاء.

وقال ابن حجر: «لم يوجد في الإسلام من اجتمع في جنازته لما مات ما اجتمع في جنازة الشيخ تقي الدين... وقد صح عن النبي

---

(١) انظر: موقف ابن تيمية من الأشاعرة، ففيه تفصيل لتلك المحن وبيان لها، وبيان لدور الشيخ الإيجابي في تلك المحن (١/١٧٤ ـ ١٩٧).

ﷺ أنه قال: (أنتم شهداء اللَّه في الأرض)[(١)]» ا.هـ.



(١) الحديث في الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: مروا بجنازة فأثنوا عليها خيراً، فقال النبي ﷺ: (وجبت)! ثم مروا بأخرىٰ فأثنوا عليها شراً، فقال: (وجبت)! فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما وجبت؟ قال: **(هذا أثنيتم عليه خيراً فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شراً فوجبت له النار؛ أنتم شهداء اللَّه في الأرض).**

الباب الأول

التعريف بالصوفية ـ إجمالاً ـ كما عرضها شيخ الإسلام

* وفيه فصلان:

الفصل الأول: التعريف بالصوفية

المبحث الأول: المراد بلفظ الصوفية وبيان نسبتهم

المبحث الثاني: نشأة الصوفية، وتاريخها، والأطوار التي مرّت بها

المبحث الثالث: أسماء الصوفية

الفصل الثاني: فرقها، ورجالها، ومصادرهم في التّلقّي

المبحث الأول: أشهر فرقها، والفروق بينها، وأسباب الافتراق

المبحث الثاني: أبرز رجالها، وأثرهم في الفرقة

المبحث الثالث: مصادر التلقي عندهم

الفصل الأول: التعريف بالصوفية

المبحث الأول

المراد بلفظ «الصوفية»، وبيان نسبتهم

تمهيد:

قبل البداية في تعريف مصطلح الصوفية أمهد قبل ذلك ببيان عام حولهم.

قال الشيخ: «... وقد تنازع الناس في طريقهم: **فطائفة**: ذمّت الصوفية والتصوف، وقالوا: إنهم مبتدعون خارجون عن السنة، **وطائفة**: غَلَت فجعلت طريقتهم أفضل الطرق، **والصواب**: أنهم يجتهدون في طاعة اللَّه، فمنهم المذنب والتقي» ا.هـ.

وقال لما ذكر مَن مدحَ التصوف ومَن ذمَّه: «والتحقيق فيه: أنه مشتمل علىٰ الممدوح والمذموم، كغيره من الطريق، وأن المذموم منه قد يكون اجتهادياً، وقد لا يكون، وأنهم في ذلك بمنزلة الفقهاء في الرأي، فإنه ذم الرأيَ من العلماء والعُبّاد طوائف كثيرة، والقاعدة التي قدّمتها تجمع ذلك كله، **وفي المتسمّين بذلك من أولياء اللَّه وصفوته وخيار عباده ما لا يُحصىٰ عَدُّه**، كما في أهل الرأي من أهل العلم والإيمان من لا يُحصي عدده إلا اللَّه.» ا.هـ.

وقال: «ولأجل ما وقع في كثير منهم من الاجتهاد والتنازع فيه، تنازع الناس في طريقهم: **فطائفة: ذمّت الصوفية والتصوف**، وقالوا: إنهم مُبتدعون خارجون عن السّنة، ونُقل عن طائفة من الأئمة في ذلك من الكلام ما هو معروف، وتبعهم علىٰ ذلك طوائف من أهل

الفقه والكلام، **وطائفة: غَلَت فيهم**، وادَّعَوا أنهم أفضل الخلق، وأكملهم بعد الأنبياء، **وكِلا طرفي هذه الأمور ذميم، والصواب**: أنهم مُجتهدون في طاعة اللَّه، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة اللَّه، ففيهم السابق المُقَرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين، وفي كلٍّ من الصنفين من قد يجتهد فيُخطئ، وفيهم من يُذنب فيتوب أولا يتوب، ومن المُنتسبين إليهم من هو ظالم لنَفسه، عاصٍ لِربه» ا. هـ.

فتبين أن شيخ الإسلام لم يطلق في الصوفية مدحاً ولا ذماً، وإنما جعل الحكم عليهم بحسب أحوالهم، والحكم علىٰ كل واحد منهم بحسب ما يظهر منه، لأن مذهبهم ليس له أصول معينة محددة يتفقون عليها، وإنما مذهب الصوفية أقرب ما يكون أنه مبنيٌ علىٰ الاستحسان، فكلّ صوفي استحسن طريقة أو سلوكاً أو عبادة فعلَها وصار له فيها أتباع.

ولذلك تعدد أسماء الصوفية وتنوعت ألقابهم، ومن هذه الألقاب والأسماء:

أولاً: أشهر الأسماء التي أُطلقت علىٰ هؤلاء العباد الزهاد ـ مع ما في كثير منهم من خلل ـ لفظ «الصوفية»، وقد بيّن شيخ الإسلام أن لفظةَ «صوفية» لفظةٌ حادثة لم تكن في الصحابة ﭬ، وكان الصحابة ﭬ يسمون أهل العلم والدين: القراء.

قال: «كان السلف يسمون أهل الدين والعلم: القُرّاء، فيدخل فيهم العلماء والنُسّاك، ثم حدث بعد ذلك لفظ: الصوفية والفقراء» ا. هـ.

أما سبب إطلاق لفظ «الصوفية «علىٰ العُبّاد والنساك، فقد بين سبب هذا الإطلاق، وعرض أقوال الناس في ذلك.

فقال في جواب عن الصوفية ونسبتهم: «الحمد للَّه، أما لفظ «الصوفية» فإنه لم يكن مشهوراً في القرون الثلاثة، وإنما اشتَهر التكلم به بعد ذلك، وقد نُقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ: كالإمام أحمد بن حنبل(١)، وأبي سليمان الداراني، وغيرهما، وقد رُوي عن سفيان الثوري أنه تكلم به، وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصري.

وتنازعوا في المعنىٰ الذي أُضيف إليه الصوفي(٢)**؛ فإنه من أسماء** النسب: كالقرشي، والمدني، وأمثال ذلك:

١ ـ فقيل: نسبة إلىٰ **الصَّفا، وهو غلط أيضاً، لأنه ينبغي أن يُقال:** صَفائي.

٢ ـ وقيل: نسبة إلىٰ **الصفّ المتقدم بين يدي اللَّه، وهو غلط، فإنه** لو كان كذلك لقيل: صَفِّيّ.

٣ ـ وقيل: نسبة إلىٰ **الصَّفْوة من خلق اللَّه، وهو غلط، لأنه لو** كان كذلك لقيل: صَفَويّ.

٤ ـ وقيل نسبة إلىٰ **صُوفة بن مُرّ**(٣) بن أدّ بن طابخة، قبيلة من

---

(١) لعل شيخ الإسلام يشير إلىٰ ما ذكره الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد في ترجمة محمد بن إبراهيم أبي حمزة الصوفي، أن أبا حمزة قال: كان الإمام أحمد يسألني في مجلسه عن مسائل ويقول: ما تقول فيها يا صوفي؟ ا. هـ.

(٢) ذهب صاحب «المصباح المنير «(٤٨١/١): إلىٰ أن كلمة صوفية كلمة مولدة؛ لا يشهد لها قياس، ولا اشتقاق في اللغة العربية، وقال ابن خلدون: «إن قيل بالاشتقاق فإنها مشتقة من الصوف، لأنهم في الغالب مختصون به» ا. هـ مقدمة ابن خلدون (ص: ٤٦٧).

(٣) في الفتاوىٰ (٥/١١): صوفة بن بشر، وما أثبته هو من: مختصر الفتاوىٰ =

العرب كانوا يُجاورون بمكة من الزمن القديم، يُنسَب إليهم النُسّاك، وهذا وإن كان موافقاً للنسب من جهة اللفظ، **فإنه ضعيف أيضاً، لأن** هؤلاء غير مشهورين، ولا معروفين عند أكثر النُسّاك، **ولأنه** لو نُسِب النُسّاك إلىٰ هؤلاء لكان هذا النسب في زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم أولىٰ، **ولأن** غالب من تكلم باسم: «الصوفي «لا يعرف هذه القبيلة، ولا يرضىٰ أن يكون مُضافاً إلىٰ قبيلة في الجاهلية لاوُجود لها في الإسلام[1].

٥ ـ وقيل ـ وهو المعروف ـ: إنه نسبة إلىٰ لبس الصوف[2].

= المصرية ص ٥٦٨: (صُوفة بن مُرٍّ بن أُدّ بن طابخة)، والذي ذكره المترجمون له: صوفة بن مُرّ، (وفي الفتاوىٰ ٣٦٨/١٠: صُوفة بن مُراد بن طابخة).

(١) لعله مما يؤيد صحة وجود هذه القبيلة الخبرُ الذي أورده أبو نصر السراج في اللمع (ص: ٢٢) عن محمد بن إسحاق بن يسار أنه رواه في أخبار مكة: أن مكة خلت في وقت من الطائفين، فكان لا يطوف بالبيت أحد ـ وكان ذلك قبل الإسلام ـ وكان يجيء من بلد بعيد رجل صوفي فيطوف البيت وينصرف، قال السراج: فإن صحّ ذلك، فإنه يدل علىٰ أنه قبل الإسلام كان يُعرف هذا الاسم، وكان يُنسب إليه أهل الفضل والصلاح، وإن كان وجود هذه القبيلة واشتهارهم بالنسك لا يعني أن نسبة الصوفية إليهم، للأسباب التي ذكرها شيخ الإسلام.

(٢) وقيل إن الصوفية منسوبون إلىٰ: الصوفانة (وهي بقلة زغباء قصيرة)، وذلك لاكتفائهم بالقليل من الطعام ولو من نبات الصحراء، وهذا غير سليم من ناحية اللغة، لأن النسبة إلىٰ صوفانة هي صوفاني، لا صوفي. تلبي إبليس (ص: ١٦٣)، لسان العرب (١٠٢/١١). صوفة القفا، وهي الشعرات النابتة في مؤخرة الرأس، كأن الصوفي انحرف عن الخلق إلىٰ الحق. تلبيس إبليس (ص: ١٦٣). وذهب البيروني إلىٰ أنهم منسوبون إلىٰ «السوفية «(بالسين لا بالصاد) وهم الحكماء، القائلون بالوحدة، =

فإنه أول ما ظهرت الصوفية من البصرة... وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك، ما لم يكن في سائر الأمصار، ولهذا كان يُقال: فِقهٌ كوفيّ، وعبادة بَصْرية، وهؤلاء نُسِبوا إلىٰ اللِبسة الظاهرة، وهي لِباس الصوف، فقيل في أحدهم: «صُوفي»، وليس طريقهم مقيَّداً بلِباس الصوف، ولا هم أوجبوا ذلك ولا علّقوا الأمر به، ولكن أضيفوا إليه لكونه ظاهر الحال.

والتحقيق: أن هذه النِّسب إنما أُطلقت علىٰ طريق الاشتقاق الأكبر والأوسط، دون الاشتقاق الأصغر(١)، كما قال أبو جعفر النحاس: العامة اسم مُشتق من العمىٰ، فراعَوْا الاشتراك في الحروف دون الترتيب، وهو الاشتقاق الأوسط، أو الاشتراك في جِنس الحروف دون أعيانها وهو الأكبر، وعلىٰ الأوسط قول نُحاة الكوفيين: الاسم: مُشتق من السِّمَة، وكذلك إذا قيل: الصوفي من الصَّفا، وأما إذا قيل هو من: الصُّفة، أو الصَّف، فهم علىٰ الأكبر.

وقد روىٰ أبو الشَّيخ الأصبهاني بإسناده عن محمد بن سيرين أنه

= وأن الصوفية أول من أدخل ذلك في الإسلام فسُموا باسمهم. تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة (ص: ٢٤ ـ ٢٥).

(١) قال أبو الفتح ابن جني في بيان معنىٰ الاشتقاق بأنواعه: «الاشتقاق عندي علىٰ ضربين: كبير وصغير،.. فالصغير: أن تأخذ أصلاً من الأصول فتتقرّاه فتجمع بين معانيه، وإن اختلفت صِيَغَه ومبانيه، وذلك كتركيب (س ل م) فإنك تأخذ منه معنىٰ السلامة في تصرفه، نحو: سلم ويسلم وسالم وسلمان.. وعلىٰ ذلك بقية الباب إذا تأولته.. وأما الاشتقاق الأكبر فهو أن تأخذ أصلاً من الأصول الثلاثية فتعقد عليه وعلىٰ تقاليبه الستة معنىٰ واحداً، تجتمع التراكيب الستة وما يتصرف من كل واحد منها عليه، وإن تباعد شيء من ذلك عنه رُدَّ بلطف الصنعة والتأويل إليه، كما يفعل الاشتقاقيون ذلك في التركيب الواحد.. نحو (ك ل م) (ك م ل) (م ل ك) (ل ك م) (ل م ك)» ا. هـ.

بلغه أن قوماً يُفَضلون لباس الصوف، فقال: إن قوماً يتخيرون الصوف، يقولون إنهم يتشبهون بالمسيح بن مريم، وهديُ نبينا ﷺ أحبُّ إلينا، وكان النبي ﷺ يلبس القطن وغيره، أو كلاماً نحو هذا» ا. هـ.

ويتضح من كلام الشيخ أن الصوفية منسوبون إلىٰ الصوف.

ثانياً: تعريف الصوفية للتصوّف:

تقدم بيان تعريف الشيخ للتصوف، وفيما يلي أوردُ ما ذكره من معاني التصوف عند الصوفية أنفسهم(١).

قال شيخ الإسلام: «**ثم التصوف عندهم له حقائق وأحوال معروفة، قد تكلموا في حدوده وسيرته وأخلاقه، كقول بعضهم:**

١ ـ الصوفي: من صفا من الكدر، وامتلأ من الفِكَر، واستوىٰ عنده الذهب والحجر.

٢ ـ التصوف: كتمان المعاني، وترك الدّعاوي.

وأشباه ذلك، وهم يسيرون بالصوفي إلىٰ معنىٰ الصِّدّيق، وأفضل الخلق بعد الأنبياء: الصِّدّيقون، كما قال تعالىٰ: ﴿فَأُولَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾

---

(١) عرف الصوفية التصوف تعريفات متقاربة، ومن ذلك: قال معروف الكرخي: «التصوف الأخذ بالحقائق، واليأس مما في أيدي الخلائق» ا. هـ. وقال الجنيد: «التصوف أن تكون مع اللّه بلا علاقة «المصدر السابق نفسه، وعرفه أيضاً بقوله: «تصفية القلب عن موافقة البرية ومفارقة الأخلاق الطبيعية وإخماد الصفات البشرية ومجانبة الدواعي النفسانية ومنازلة الصفات الروحانية والتعلق بالعلوم الحقيقية واستعمال ما هو أولىٰ علىٰ الأبدية والنصح لجميع الأمة والوفاء للّه علىٰ الحقيقة واتباع الرسول ﷺ في الشريعة» ا. هـ. وعرفه سحنون بقوله: «التصوف هو أن لا تملك شيئاً، ولا يملكك شيء» ا. هـ.

[النساء]، ولهذا ليس عندهم بعد الأنبياء أفضل من الصوفي، لكن هو في الحقيقة نوع من الصِّدِّيقين، فهو الصِّدِّيق الذي اختُصَّ بالزهد والعبادة علىٰ الوجه الذي اجتهدوا فيه، فكان الصِّدِّيق من أهل هذا الطريق، كما يُقال: صِدِّيقوا العلماء، وصِدِّيقوا الأمراء، فهم أخصُّ من الصِّديق المطلق، ودون الصِّديق الكامل الصِّدِّيقية من الصحابة والتابعين وتابعيهم» ا.هـ.

أما الصوفي عند غُلاة المتصوفة، كابن عربي، وابن سبعين، وأمثالهما، فهو مَن كان علىٰ طريقة الفلاسفة.

قال شيخ الإسلام مبيناً ذلك: «... كان هؤلاء كابن سبعين وأمثاله يعكسون دين الإسلام، فيجعلون أفضل الخلق: المُحَقِّق عندهم وهو القائل بالوحدة، وبعده عندهم ما ذكره ابن سبعين وإخوانه هو: **الصوفي، يعنون به المتصوف علىٰ طريقة الفلاسفة**، ليس هو الصوفي علىٰ مذهب أهل الحديث والكتاب والسنة، فلفظ الصوفي صار مُشتَرَكاً، فهؤلاء القائلون بالوحدة إذا قالوا: الصوفي، يريدون به هذا، ولهذا كان عندهم أفضل من الفيلسوف، لأِنه جمع بين النظر والتّأله، كالسهروردي المقتول وأمثاله» ا.هـ.

وبما سبق يتبين لنا أن لفظ (الصوفية) لفظ حادث، وأن المتصوفة أدخلوا في الإسلام ما ليس منه بناء علىٰ اشتهارهم بلبس الصوف وإظهار الزهد والتقشف.

كما تبين لنا من كلام شيخ الإسلام أن مصطلح الصوفية ليس له ضوابط معينة تضبطه وتحدد معالمه؛ بل أصبح كل من أراد أن ينتسب إلىٰ الصوفية لبس الصوف وأظهر الزهد والفقر فأصبح صوفياً، له ما للصوفية، وعليه ما عليهم، ومن هنا دخل فيهم الفلاسفة والملاحدة كابن سبعين وابن الفارض والتلمساني وغيرهم.



المبحث الثاني

نشأة الصوفية، وتاريخها، والأطوار التي مرت بها

عند تتبعنا لكلام الشيخ عن نشأة الصوفية نجد أن التصوف لم يظهر دفعة واحدة، وإنما ظهر في مواطن معينة ثم ينتشر منها إلىٰ غيرها، وكلما ازداد انتشاراً ظهر فيه الانحراف أكثر، وفيما يأتي من نقاط سأعرض ما ذكره عن نشأة الصوفية، وموطنهم الأصلي، وبداية انحرافهم، والأسباب التي دفعت بعض الناس إلىٰ الدخول في التصوف ومحبة أهله.

وقد رتبتُ ما ذكره في النقاط التالية:

✍ أولاً: بداية ظهور التصوف، وموطنه الأصلي:

قال: كما اختلفت الأقوال والآراء في أصل كلمة «صوفي»، فكذلك وقع الاختلاف في بداية نشأة التصوف(١)، وأين كان أول ظهوره.

✍ ثانياً: وذكر أن البصرة هي الموطن الأصلي للتصوف:

فقال: «أول ما ظهرت الصوفية من البصرة، وقد ذكر الإمام معمر ابن زياد من أصحاب الواحدي(٢) في: «أخبار الصوفية» أن أول

---

(١) ذهب ابن خلدون في المقدمة (ص: ٤٦٧) وابن الجوزي في تلبيس إبليس (ص: ٢٠١): إلىٰ أن نشأة التصوف كانت قبل سنة مائتين، ويرىٰ القشيري (الرسالة القشيرية، ص: ٦): إلىٰ أن هذا الاسم اشتهر قبل المائتين للهجرة، وذهب شيخ الإسلام (الفتاوىٰ ١١/٥): إلىٰ أنه نشأ في بداية القرن الثاني، إلا أنه لم يشتهر التكلم به إلا بعد القرن الثالث.

(٢) هو علي بن أحمد بن محمد الواحدي النيسابوري الشافعي، أبو الحسن، صاحب التفسير، كان طويل الباع في العربية واللغات، توفي سنة ٤٦٨.

دويرة بنيت لهم بالبصرة، وأول من بنىٰ دُوَيْرة الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد[١]، وعبد الواحد من أصحاب الحسن، وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ما لم يكن في سائر الأمصار، ولهذا كان يُقال: فقهٌ كوفي، وعبادة بصرية.. ولهذا غالب ما يُحكىٰ من المبالغة في هذا الباب إنما هو من عُباد أهل البصرة، مثل حكاية من مات أو غُشي عليه في سماع القرآن، ونحوه، كقصة زرارة بن أوفىٰ قاضي البصرة: فإنه قرأ في صلاة الفجر: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾﴾ [المدّثر]، فخَرَّ ميتاً، وكقصة أبي جهير الأعمىٰ الذي قرأ عليه صالح المرّي فمات، وكذلك غيره ممن رُوي أنهم ماتوا باستماع قراءته، وكان فيهم طوائف يُصعقون عند سماع القرآن...

والمقصود: أن هذه الأمور التي فيها زيادة في العبادة والأحوال خرجت من البصرة، وذلك لِشدة الخوف، فإن الذي يذكرونه من خوف عُتبة الغلام[٢]، وعطاء السَّليمي[٣]، وأمثالهما أمرٌ عظيم.

ولا ريب أن حالهم أكمل وأفضل ممن لم يكن عنده من خشية اللَّه ما قابلهم أو تفضّل عليهم، ومن خاف اللَّه خوفاً مقتصداً يدعوه إلىٰ فعل ما يُحبه اللَّه، وترك ما يكرهه اللَّه من غير هذه الزيادة فحاله

---

(١) هو عبد الواحد بن زيد البصري، أبو عُبَيدة، الزاهد، شيخ العُباد، حدث عن الحسن، وعطاء، وغيرهما، توفي بعد سنة: ١٥٠.

(٢) هو عتبة بن أبان البصري، المشهور بعتبة الغلام، الزاهد الخاشع الخائف، استشهد في غزوٍ للروم، لم أجد له تاريخ وفاة.

(٣) هو عطاء السّلَيمي البصري العابد، من صغار التابعين، أدرك أنس بن مالك، كان قد أرعبه فرط الخوف من اللَّه، وله في ذلك حكايات، توفي بعد سنة الأربعين ومائة.

أكمل وأفضل من حال هؤلاء، وهو حال الصحابة رضي الله عنهم، وقد رُوي أن عطاء السليمي رُئِيَ بعد موته فقيل له: ما فعل اللَّه بك؟ فقال: قال لي: يا عطاء! أما استحيت مني أن تخافني كل هذا؟! أما بلغك أني غفورٌ رحيم؟!» ا. هـ.

ثالثاً: مزامنة ظهور التصوف لظهور الرأي والكلام(١):

قال الشيخ: «.. واعلم أن عامة البدع المتعلقة بالعلوم والعبادات في هذا القدْر وغيره إنما وقعت في الأمة في أواخر خلافة الخلفاء الراشدين، كما أخبر به النبي ﷺ حيث قال: (**من يعش منكم بعدي فسيرىٰ اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي**)(٢)، ومعلوم أنه إذا استقام «ولاة الأمور» الذين يحكمون في النفوس والأموال استقام عامة الناس.. وكذلك من جهتهم يقع الفساد..، فلما ذهبت دولة الخلفاء الراشدين، وصار مُلْكاً ظهر النقص في الأمراء، فلا بدّ أن يظهر أيضاً في أهل العلم والدين، فحدث في آخر خلافة علي رضي الله عنه بدعتا الخوارج والرافضة.

وكان مُلك معاوية رضي الله عنه مُلْكاً ورحمة، فلما ذهب معاوية رَحِمَهُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وجاءت أمارة يزيد بن معاوية، وجرت فيها فتنة قتل الحسين رضي الله عنه بالعراق.. ثم مات يزيد وتفرقت الأمة: ابن الزبير في الحجاز، وبنو

---

(١) يُجمعُ كثيرٌ من الباحثين في التصوف علىٰ تأثر التصوف بعلم الكلام، والفلسفة اليونانية، قال أبو الوفا التفتازاني: «ونحن لا ننكر الأثر اليوناني علىٰ التصوف الإسلامي، فقد وصلت الفلسفة اليونانية عامة، والأفلاطونية خاصة، إلىٰ صوفية الإسلام عن طريق الترجمة والنقل، أو الاختلاط مع رهبان النصارىٰ في الرُّها، وحرّان» ا. هـ.

(٢) رواه أبو داود، والترمذي، عن حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

الحكم في الشام، ووثب المختار بن أبي عُبيد[(١)] وغيره بالعراق، وذلك في أواخر عصر الصحابة، وقد بقي فيهم مثل: عبد اللَّه بن عباس، وعبد اللَّه بن عمر، وجابر بن عبد اللَّه، وأبي سعيد الخدري، وغيرهم رضي الله عنهم حدثت بدعة القدرية والمرجئة[(٢)]، فردّها بقايا الصحابة رضي الله عنهم،

وفي أواخر عصر صغار التابعين، من حين أواخر الدولة الأموية حين: شرع القرن الثالث ـ **تابعوا التابعين** ـ **ينقرض أكثرهم** ـ فإن الاعتبار في القرون الثلاثة بجمهور أهل القرن وهم وسطه ـ **وجمهور الصحابة انقرضوا** بانقراض خلافة الخلفاء الأربعة، حتىٰ إنه لم يكن بقي من أهل بدر إلا نفرٌ قليل، **وجمهور التابعين بإحسان انقرضوا** في أواخر عصر أصاغر الصحابة في أمارة ابن الزبير وعبد الملك، **وجمهور تابعي التابعين انقرضوا** في أواخر الدولة الأموية، وأوائل الدولة العباسية، وصار في وُلاة الأمور كثيرٌ من الأعاجم، وخرج كثيرٌ من الأمر عن ولاية العرب، وعُرّبت بعض الكتب الأعجمية من كتب الفرس والهند والروم، وظهر ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم: (**ثم يفشو**

---

(١) هو المختار بن أبي عُبيد بن مسعود بن عمرو بن ثقيف، الكذاب، ادعىٰ أن الوحي يأتيه، وأنه يعلم الغيب، قتله مصعب بن الزبير سنة ٦٧.

(٢) المرجئة: الإرجاء علىٰ معنيين:
أحدهما: التأخير، كما في قوله تعالىٰ: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: ١١١]، لأنهم أخروا العمل عن مسمىٰ الإيمان.
والثاني: إعطاء الرجاء، حيث قالوا: لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة فأخرجوا الأعمال عن مُسَمىٰ الإيمان، والمرجئة أربعة أصناف: مرجئة الخوارج، ومرجئة الجبرية، ومرجئة القدرية، والمرجئة الخالصة..

الكذب حتىٰ يشهد الرجل ولا يُستشهد، ويحلف ولا يُستحلف)(١).

حدث ثلاثة أشياء: (الرّأي) و(الكلام) و(التصوّف)، وحدث (التّجهّم) وهو نفي الصفات، وبِإزائه (التمثيل)، **فكان جمهور الرأي من الكوفة، . . وكان جمهور الكلام والتصوف في البصرة:**

فإنه بعد موت الحسن وابن سيرين بقليل. . ظهر أحمد بن عطاء الهجيمي (٢)، الذي صحب عبد الواحد بن زيد، وعبد الواحد صحِب الحسن ومن اتبعه من المتصوفة، وبنىٰ دُوَيْرة للصوفية، هي أول ما بُني في الإسلام (٣)، وكان عبد الرحمن بن مهدي وغيره يُسَمونهم: الفقرية، وكانوا يجتمعون في دُوَيْرة لهم. . ولهذا تجد كتب الكلام، والتصوف، إنما خرجت في الأصل من البصرة. . وقد شَرَك هؤلاء من البغداديين والخراسانيين والشاميين خلق، **لكن الغرض أن الأصول من ثَمَّ»** ا. هـ.

رابعاً: بداية تشعّب الصوفية وتنوعها، والأطوار التي مرت بها:

قال الشيخ: «. . فهذا أصل التصوف، ثم إنه بعد ذلك تشعّب

---

(١) رواه الترمذي، ، وابن ماجة عن عمر بن الخطاب ﷺ.

(٢) أحمد بن عطاء الهجيمي البصري، شيخ الصوفية العابد القانت، قال الذهبي: «القدري المبتدع فما أقبح بالزهاد ركوب البدع، كان تلميذ شيخ البصرة عبد الواحد بن زيد، قال أبو سعيد بن الأعرابي في: طبقات النساك: برز في العبادة والاجتهاد، ولزم طريق شيخه فكان قدريا غير معتزلي، وكتب شيئا من الحديث» ا. هـ، توفي سنة: ٢٠٠، وذكر الذهبي: أنه سجن في آخر حياته فلقي في السجن الإمام أحمد فتحدث معه فانتفع ورجع عن مذهبه في القدر.

(٣) قال الذهبي: «وكان ابن عطاء قد نصب نفسه للأستاذية ووقف داراً في بلهجيم للمتعبدين والمريدين، يقص عليهم، قال ابن الأعرابي: وأحسبها أول دار وقفت بالبصرة للعبادة» ا. هـ.

وتنوع، وصارت الصوفية ثلاثة أصناف: صوفية الحقائق، وصوفية الأرزاق، وصوفية الرسم.

فأما صوفية الحقائق: فهم الذين وصفناهم[(١)].

وأما صوفية الأرزاق: فهم الذين وُقفت عليهم الوُقوف، كالخوانك، فلا يُشترط في هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق، فإن هذا عزيز، وأكثر أهل الحقائق لا يتصفون بلزوم الخوانك، ولكن يشترط فيهم ثلاثة شروط:

أحدها: العدالة الشرعية، بحيث يُؤدون الفرائض، ويجتنبون المحارم.

الثاني: التأدّب بآداب أهل الطريق، وهي الآداب الشرعية في غالب الأوقات، وأما الآداب البدعية الوضعية فلا يُلتفت إليها.

الثالث: أن لا يكون أحدهم متمسكاً بفضول الدنيا، فأما من كان جمّاعاً للمال، أو كان غير مُتَخلق بالأخلاق المحمودة، ولا يتأدب بالآداب الشرعية، أو كان فاسقاً، فإنه لا يستحق.

وأما صوفية الرسم: فهم المقتصرون على النسبة فَهمّهم في اللباس، والآداب الوضعية، ونحو ذلك، فهؤلاء في الصوفية بمنزلة الذي يقتصر على زيّ أهل العلم وأهل الجهاد ونوعٍ ما من أقوالهم وأعمالهم بحيث يَظن الجاهل حقيقة أمره أنه منهم، وليس منهم» ا.هـ.

---

(١) يعني الذين تقدم ذكرهم قبل قليل: أهل العبادة والتّألّه، والمبالغة في الخوف من اللّه تعالى.

خامساً: بداية إحداث الرُّبطِ[١] والخوانك[٢] للصوفية:

قال: «.. طال الأمد، وتفرقت الأُمة، وتمسّك كل قوم بشعبة من الدين زادوها فأعرضوا عن شعبة أُخرىٰ، .. وأُحدثتً الرّبُط والخوانك لِأهل التعبد، **وأظن مبدأ انتشار ذلك في دولة السلاجقة**[٣]، .. ودولتهم إنما كانت في المائة الخامسة.. فأول ما بُنيت المدارس والرِّباطات للمساكين، ووُقفت عليها وقوف تجري علىٰ أهلها في وزارة: نظام الملك، الحسن بن علي الطوسي» ا.هـ.

سادساً: الصفات المشترطة في الصوفي، ليستفيد من الرّبط والأوقاف:

كان التصوف في بدايته مقتصراً علىٰ أهل العبادة والورع، والتألّه والخوف، ثم لما ظهر أمر هؤلاء العُباد، وبدأ الناس يتعلقون بهم، ويرجون بركة دعائهم، ويلتمسون رضا اللَّه تعالىٰ بالصدقة عليهم وخدمتهم، والوقف عليهم، بدأ يدخل في صفوفهم عند ذلك أقوام ليسوا منهم، وإنما طمعوا في المال والجاه، والتصدّر والظّهور.

قال مُشيراً إلىٰ ذلك: «.. وقول القائل: اليوم في زماننا كثير

---

(١) الرّبط: جمع رَبيط، وجمع الجمع: رِباط، والرِّباط في الأصل: ملازمة الشيء والمواظبة عليه، والرباط أيضاً: واحد الرباطات المبنية، والربيط: الراهب والزاهد والحكيم الذي ربط نفسه عن الدنيا، أي سدها ومنعها، ومنهم المتصوفة الذين ربطوا أنفسهم وأوقفوها علىٰ العبادة، فكان بعض المحسنين المحتسبين يبني لهم بيوتاً يوقفها عليهم، يأوون إليها، ويُنْفَق عليهم فيها، فكانت تسمىٰ: الربط، والرباطات.

(٢) الخوانك: جمع خانكاه، لفظة فارسية، وعُربت: خانقاه، وجمعها: خوانق، وهي دور الصوفية التي يسكنونها ويتفرغون فيها للعبادة، وأول خانقاه بُنيت لهم: خانقاه رملة الشام، وقرية بين إسفرايين وجرجان.

(٣) دولة السلاجقة: قامت في بغداد سنة ٤٤٧، وقد كانت بغداد قبلهم تحت حكم بني بويه الشيعة، وقد شجعوا العلم ونشروا السنة.

من المجاهدين والعلماء يتخذون الجهاد والقتال والاشتغال بالعلم معيشة دنيوية، يُحامون بها عن المال والجاه، . . نعارضه بما هو أصدق منه، وهو أن يُقال: كثير من أهل الربط والزوايا[(١)] والمتظاهرين للناس بالفقر، إنما يتخذون ذلك معيشة دنيوية، هذا مع انضمام كفر وفسوق ومصائب لا يتسع الحال لِقولها، بمثل دعوىٰ الحلول والاتحاد في العُباد أكثر منها في أهل العلم والجهاد، . . » ا. هـ.

ثم ذكر الشيخ الشروط اللازم توفرها في الصوفي ليستفيد من هذه الأوقاف، حتىٰ يتحقق منها الغرض الذي لأِجله وُضعت، فقال: « . . وأما الصوفي الذي يدخل في الوقف علىٰ الصوفية، فيعتبر له ثلاثة شروط:

أحدها: أن يكون عدلاً في دينه، يؤدي الفرائض، ويجتنب المحارم.

الثاني: أن يكون مُلازماً لغالب الآداب الشرعية، في غالب الأوقات وإن لم تكن واجبة، مثل آداب الأكل، والشرب، واللباس، والنوم، والسفر، والركوب، والصحبة، والعِشرة، والمعاملة مع الخلق، إلىٰ غير ذلك من الآداب الشريفة، قولاً وفعلاً.

ولا يُلتَفت إلىٰ ما أحدثه بعض المتصوفة من الآداب التي لا أصل لها في الدين، من التزام شكل مخصوص في اللبسة، ونحوها مما لا يُستحب في الشريعة، فإن مبنىٰ الأدب علىٰ اتباع السنة، ولا يُلتفت أيضاً إلىٰ ما يهدره بعض المتفقهة من الآداب المشروعة، يعتقد ـ لِقِلّة

---

(١) الزوايا: جمع زاوية، وهي المكان الذي يخصصه شخصٌ ما للعبادة، ويختلي فيه ويأتيه فيه بعض مريديه وطلابه، وهي مما أحدثه الصوفية واشتهروا به.

علمه ـ أن ذلك ليس من آداب الشريعة، لِكونه ليس فيما بلغه من العلم أو طالعه من كتبه، بل العبرة في الآداب بما جاءت به الشريعة: قولاً وفعلاً وتركاً، كما أن العبرة في الفرائض والمحارم بذلك أيضاً.

الشرط الثالث في الصوفي: قناعتُه بالكفاف من الرزق، بحيث لا يمسك من الدنيا ما يفضُل عن حاجته، فمن كان جامعاً لِفضول المال لم يكن من الصوفية الذين يُقصَد إجراء الأرزاق عليهم، وإن كان قد يُفسح لهم في مُجرّد السكن في الرُبط ونحوها، **فمن حمل هذه الخصال الثلاث كان من الصوفية المقصودين بالرُّبط**، والوقوف عليها وما فوق هؤلاء من أرباب المقامات العَليّة والأحوال الزكية، وذوي الحقائق الدينية، والمِنَح الربانية: فيدخلون في العموم، لكن لا يختصّ الوقف بهم لِقِلة هؤلاء، ولِعُسر تمييز الأحوال الباطنة علىٰ غالب الخلق، فلا يُمكن ربط استحقاق الدنيا بذلك، ولأِن مثل هؤلاء قد لا ينزل الرُبُط إلا نادراً.

وما دون هذه الصفات من المقتصرين علىٰ مجرد الرسم في لِبسةٍ أو مِشية ونحو ذلك: لا يستحقون الوقف، ولا يدخلون في مُسمىٰ الصوفية، لاسيّما إن كان ذلك مُحدَثاً لا أصل له في السنة، فإن بذل المال علىٰ مثل هذه الرسوم فيه نَوع من التلاعب بالدين، وأكل لأِموال الناس بالباطل، وصدود عن سبيل اللَّه، ومن كان من الصوفية المذكورين المُستحقين فيه قَدْر زائد: مثل اجتهاد في نوافل العبادات، أو سعي في تصحيح أحوال القلب، أو طلب شيء من الأعيان، أو علم الكفاية: فهو أولىٰ من غيره، ومن لم يكن مُتَأدباً بالآداب الشرعية، فلا يستحق شيئاً البَتّة، وطالب العلم الذي ليس له تمام الكفاية: أولىٰ مِمن ليس فيه الآداب الشرعية، ولا علم عنده، بل مثل هذا لا يستحق شيئاً» ا.هـ.

✍ **سابعاً: بداية الانحراف عند الصوفية، وأسبابه:**

من سنن اللَّه تعالىٰ التي لا تتغير أن الانحراف مهما دقّ وصغُر، فإنه لا يزال يزيد ويكبر مع مرور الزمن، لِذا كانت كلّ بدعة مهما صغرت: ضلالة(١)، وقد كانت بداية التصوف ـ كما تقدم ـ مبالغات في الخوف والبكاء والتألّه، علىٰ خلاف ما كان عليه رسول اللَّه ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، ثم بدأت المخالفة تزداد، والانحراف يتضح حتىٰ غلا فريق من الصوفية في الولاية ورفعوا منزلتها فوق منزلة النبوّة، وغَلَوْا في الكرامات حتىٰ ادّعىٰ فريق منهم (أو من المنتسبين إليهم) علمَ الغيب والاطلاعَ علىٰ اللوح المحفوظ، ووقع فريق منهم في القول بالحلول والاتحاد، إلىٰ غير ذلك من الانحرافات والضلالات.

وهذه البدع في المتأخرين أكثر منها في المتقدمين، كما قال شيخ الإسلام:

«.. ولهذا كلما قرُب الناس من الرسول ﷺ كانت بدعهم أخف فكانت في الأقوال، ولم يكن في التابعين وتابعيهم مَن تَعَبد بالرقص والسماع، كما كان فيهم خوارج ومعتزلة وشيعة(٢)، وكان فيهم مَن

---

(١) يدل علىٰ ذلك قوله ﷺ: (.. **وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل مُحدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار**)، رواه مسلم عن العرباض بن سارية رضي الله عنه.

(٢) الشيعة: هو الذين شايعوا علياً رضي الله عنه، وفضّلوه علىٰ أبي بكر وعمر، ومنهم مَن قال: إنه الإمام بعد رسول اللَّه ﷺ، بالنص الجلي والخفي، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج عنه وعن ولده، وإن خرجت فبظلم أو تقيّة منه أو من أولاده، ويقولون: إن الإمامة من أصول الدين، وأن الأئمة معصومون، وهم فرق كثيرة جداً، وأصولها ثلاث: الغلاة، =

يُكذب بالقدر ولم يكن فيهم مَن يحتج بالقدر، فالبدع الكثيرة التي حصلت في المتأخرين من العُباد والزُّهاد والفقراء والصوفية لم يكن عامتها في زمن التابعين وتابعيهم، بخلاف أقوال أهل البدع القولية فإنها ظهرت في عصر الصحابة والتابعين، فعُلِم أن الشبهة فيها أقوىٰ، وأهلها أعقل، وأما بدع هؤلاء فأهلها أجهل وهم أبعد عن متابعة الرسول ﷺ. . » ا. هـ.

✍ ثامناً: وقد بين شيخ الإسلام في مواضع متفرقة من كتبه أصول انحرافات المتصوفة، ومنشأ ضلالهم، ويمكن في النقاط التالية أن نستقرئ بالتفصيل ما ذكره الشيخ من أسباب انحرافات الصوفية:

▫ أولاً: قِلة العلم بالدين ـ عامة ـ، والجهل بأسماء الله تعالى وصفاته:

قال الشيخ: « . . وهؤلاء الاتحادية وأمثالهم إنما أُتوا من قِلّة العلم والإيمان بصفات اللَّه التي يتميز بها عن المخلوقات. . » ا. هـ.

ومِما يزيد الأمر وضوحاً ما نقله الشيخ عن فريق من الصوفية من ذمهم لطلب العلم قال شيخ الإسلام: «وأهل العبادات البدعية يُزين لهم الشيطان تلك العبادات، ويُبَغض إليهم السُبل الشرعية، حتىٰ يُبغضهم في العلم والقرآن والحديث، فلا يحبون سماع القرآن والحديث ولا ذكره، وقد يُبغض إليهم حتىٰ الكتاب، فلا يحبون كتاباً ولا مَن معه كتاب، ولو كان مصحفاً أو حديثاً، وكان مِما زيّن لهم طريقهم أن وجدوا كثيراً من المشتغلين بالعلم والكتب معرضين عن عبادة اللَّه تعالىٰ، وسلوك سبيله: إما اشتغالاً بالدنيا، وإما

= والزيدية، والإمامية.

بالمعاصي، وإما جهلاً وتكذيباً بما يحصل لأهل التألّه والعبادة، وقد يظنون أنهم يحصل لهم بطريقهم أعظم مِما يُحَصّل في الكتب» ا.هـ.

□ **ثانياً: تقديمهم الاشتغال بالعبادة والتألّه على الاشتغال بالعلم:**

وهذا السبب مرتبط بالسبب الأول، وما أوقع كثيراً من المتعبّدة في البدعة والضلال إلا التعبد بغير علم، فصار حالهم كما قال اللَّه تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف].

قال الشيخ أثناء كلامه عن سبب انحراف أهل الكلام، وأهل التصوف:

«.. فإن كُلاً من المنحرفين له مفسدتان:

إحداهما: القول بلا علم ـ إن كان متكلماً ـ **والعمل بلا علم ـ إن كان متصوفاً ـ** وهو ما وقع من البدع الكلامية، والعملية، المخالفة للكتاب والسنة.

الثاني: فوّت المتكلمُ العملَ، وفوّت المتصوفُ القولَ والكلامَ.. فإن منحرفة أهل الكلام فيهم شبه اليهود، ومنحرفة أهل التصوف فيهم شبه النصارىٰ، ولهذا غلب علىٰ الأولين جانب الحروف وما يدل عليه من العلم، والاعتقاد، وعلىٰ الآخرين جانب الأصوات، وما يثيره من الوجد[1]» ا.هـ.

وقال الشيخ: «وأهل الإرادة: إن لم يقترن بإرادتهم طلب العلم، الواجبُ عليهم الاعتصامُ بالكتاب والسنة، وإلا وقعوا في الضلال والبغي: ولو اعتصم رجل بالعلم الشرعي من غير عمل بالواجب كان غاوياً، وإذا اعتصم بالعبادة الشرعية من غير علم بالواجب

(١) يعني السماع المبتدع عند المتصوفة.

كان ضالاً» ا. هـ.

▫ **ثالثاً: الرغبة عن طريقة النبي ﷺ، وصحابته الكرام ﭬ:**

قال الشيخ أثناء كلامه عن انحراف فريق من الصوفية في التعبد للَّه تعالىٰ بعبادات غير مشروعة:

«ثم إن هؤلاء مع هذا لم يجدوا الصحابة والتابعين تكلموا بمثل كلامهم، بل ولا نُقل ذلك عن النبي ﷺ، صار منهم من يقول: كانوا مشغولين بالجهاد عن هذا الباب، وأنهم حققوا ما لم يحققه الصحابة، ويقولون أيضاً: إن الرسول ﷺ لم يعلمهم هذا لِئلاّ يشتغلوا به عن الجهاد، فإنه كان محتاجاً إليهم في الجهاد، وهكذا يقول مَن يقول مِن مبتدعة أهل الزهد والتصوف إذا دخلوا في عبادات منهيٍّ عنها ومذمومة في الشرع؛ قالوا: كان الصحابة مشغولين عنها بالجهاد، وكان النبي ﷺ يخاف أن يشتغلوا بها عن الجهاد، وأهلُ السيف قد يظن مَن يظن منهم أن لهم من الجهاد وقتال الأعداء ما لم يكن مثله للصحابة، وأن الصحابة كانوا مشغولين بالعلم والعبادة عن مثل جهادهم» ا. هـ.

▫ **رابعاً: اعتمادهم مصادرَ للتلقّي غير الكتاب والسنة:**

وذلك أنهم يتلقّون ما تستحسنه عقولهم، أو ترتاح له نفوسهم، فيتعبدون للَّه تعالىٰ به.

قال الشيخ: «.. ولهذا كان مشايخ الصوفية العارفون أهل الاستقامة، يوصون بمتابعة العلم ومتابعة الشرع، لأن كثيراً منهم سلكوا في العبادة للَّه مُجرّد محبة النفس وإرادتها وهواها، من غير اعتصام بالعلم الذي جاء به الكتاب والسنة، فضلّوا بسبب ذلك ضلالاً يشبه النصارىٰ» ا. هـ.

▫ **خامساً: تقليد المشايخ في أغلاطهم وزلاتهم:**

قال الشيخ أثناء كلامه عن غلوّ الصوفية في مشايخهم: «.. ومن أمثلة ما ينسبه كثير من أتباع المشايخ والصوفية إلىٰ المشايخ الصادقين، من الكذب والمحال، أو يكون من كلامهم المتشابه الذي تأوّلوه علىٰ غير تأويله، أو يكون من غلطات بعض الشيوخ وزلاّتهم.. أو يكون من كلام المتشبهين بأولياء اللَّه من ذوي الزهادات والعبادات والمقامات، وليس هو من أولياء اللَّه المتقين، بل من الجاهلين الظالمين المعتدين، أو المنافقين أو الكافرين.. فمنهم من يجعل للشيخ قصائد يسميها: (جنيب القرآن) ويكون وجده بها، وفرحه بمضمونها أعظم من القرآن، ويكون فيها من الكذب والضلال أمور» ا.هـ.

▫ **تاسعاً: بداية دخول الفلسفة في التصوف:**

للتصوف علاقة كبيرة بالفلسفة، ويمكن بيان ذلك من خلال النقاط التالية:

أ: تقدم أن مظاهر التصوف الأولىٰ كانت تتمثل في المبالغة في التعبد والتألّه، والخوف والبكاء، ولم تكن ظهرت بعدُ تِلك الشطحات، كالغلوّ في الكرامات، أو ادعاء علم الغيب، أو القول بالحلول والاتحاد، ونحو ذلك، ولم يتكلم أحد من المتصوفة بهذا إلا بعدما تَزيّا فريق من الفلاسفة بِزِيّ المتصوفة، ثم بدؤوا ينشرون في الصوفية مثل هذه الاعتقادات.

وبين الشيخ هذا أثناء كلامه عن ابن عربي وابن سبعين، وغيرهما من الملاحدة الحلولية، وانخداع فريق من الناس بظاهرهم.

فقال: «.. والجنيد تكلم بكلام الأئمة العارفين، فإن كثيراً من الصوفية وقعوا في نوع من الحلول والاتحاد، كما ذكر ذلك أبو

نعيم في الحلية، وكما ذكره القشيري في رسالته، . . والشيوخ الأكابر. . كانوا علىٰ مذهب أهل السنة والجماعة، ومذهب أهل الحديث، . . **وإنما ظهر التفلسف في المتصوفة المتأخرين، فصارت المتصوفة:**

١ ـ تارة علىٰ طريقة **صوفية أهل الحديث**، وهم خيارهم وأعلامهم.

٢ ـ وتارة علىٰ اعتقاد **صوفية أهل الكلام**، فهؤلاء دونهم.

٣ ـ وتارة علىٰ اعتقاد **صوفية الفلاسفة**، كهؤلاء الملاحدة.

ولهذا ذكر ابن عربي في أول، الفتوحات، ثلاث عقائد:

١ ـ عقيدة مختصرة من، «إرشاد» أبي المعالي الجويني بحججها الكلامية[(١)].

٢ ـ عقيدة فلسفية، كأنها مأخوذة من ابن سينا وأمثاله.

ثم أشار إلىٰ:

٣ ـ اعتقاده الباطن الذي أفصح به في «فصوص الحكم»، وهو وحدة الوجود، فقال: «وأما عقيدة خلاصة الخاصة فتأتي مفرقة في الكتاب» ولهذا كان هؤلاء كابن سبعين ونحوه يعكسون دين الإسلام فيجعلون أفضل الخلق: المحقق عندهم، وهو القائل بوحدة الوجود. . » ا.هـ.

وقال الشيخ: «قول القائل إن معجزات الأنبياء عليهم السلام قوىٰ نفسانية باطل، بل هو كفر يُسْتتاب قائله ويُبَيَن له الحق، . . وهو من كلام طائفة من المتفلسفة، والقرامطة[(٢)] الباطنية. . . . .

---

(١) الإشارة هنا إلىٰ كتاب: «الإرشاد إلىٰ قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد»، لِأبي المعالي الجويني.

(٢) القرامطة: نسبة إلىٰ حمدان قرمط، زعيم هذه الفرقة، وقد خرجوا علىٰ =

والإسماعيلية[١]، ونحوهم،.. وقد دخل في كثير من أقوالهم في العلوم، أو في العلوم والأعمال، طائفة من المنتسبين إلىٰ التصوف والكلام، وكلام ابن عربي وابن سبعين، وأمثالهما من ملاحدة المتصوفة يرجع إلىٰ قول هؤلاء» ا. هـ.

ب: بيّن الشيخ أن تأثير الفلسفة في التصوف بلغ إلىٰ بناء بعض مذهب المتصوفة علىٰ أصول الفلاسفة، وأن بعض متفلسفة الصوفية قرّروا أصول الفلاسفة واعتمدوها، فسار باقي الصوفية عليها، فقال: «قال ابن سينا في: مقامات العارفين[٢]: «أول درجات

= المسلمين سنة: ٢٨١، في خلافة المعتضد، وحكموا البحرين (وتسمىٰ حالياً: الإحساء)، وقطعوا الطريق علىٰ الحجاج، وأفسدوا في الأرض ونهبوا وأسالوا الدماء، واستحلوا البيت الحرام، واقتلعوا الحجر الأسود وذهبوا به إلىٰ البحرين، وهذه الفرقة من الفرق الباطنية التي جحدت الشرائع، واستباحت المحارم، وأنكرت الأمور المعلومة من الدين بالضرورة، وتأولوا أحكام الشريعة والعبادات المفروضة بتأويلات باطلة.

(١) الإسماعيلية: إحدىٰ فرق الشيعة الباطنية، تنسب إلىٰ محمد بن إسماعيل ابن جعفر، وزعموا أن «السر المكتوم» آل إليه، وزعموا أن الظاهر من نصوص الوحي قشور والتأويل هو اللب، وأن هذا اللب لا يصل إليه إلا الخواص دون العوام، ومن تأويلاتهم الباطلة: أن البعث هو: الانتباه من نومة الغفلة، واليقظة من رقدة الجهالة، والميزان الذي جاء في النصوص أنه توزن به الأعمال يوم القيامة هو: ميزان الحكمة وليس ميزاناً حقيقياً!، وأمر الإسماعيلية ينتهي إلىٰ تعطيل الشريعة وسقوط التكاليف، ولهم كتب في مذهبهم، منها: كتاب الافتخار، وكتاب الجفر، وكتاب تأويل الشريعة، وكتاب السر،.. وغيرها.

(٢) انظر: كتاب: الإشارات والتنبيهات، لابن سينا الفصل السابع، (٣ ـ ٤/ ص ٨١٨ ـ ٨٢٧).

حركات العارفين ما يُسَمونه هم بالإرادة، وهو ما يعتري المستبصر باليقين البرهاني.. فما دامت درجته هذه فهو مُريد» والمقصود أن يجمع بين هذا وبين ما قاله ابن سينا في «مقامات العارفين» وهو خاتمة مُصحفهم[(١)].

وقد قال الرازي: «هذا الباب أجلّ ما في الكتاب، فإنه رتب عِلم الصوفية ترتيباً ما سبَقه إليه مَن قبله، ولا يلحقه من بعده»، وأقره الطوسي علىٰ هذا الكلام، وقال: «قد ذكر الفاضل الشارح أن هذا الباب أجلّ ما في هذا الكتاب، فإنه رتّب فيه علوم الصوفية ترتيباً ما سبقه إليه مَن قبله ولا لحقه مَن بعده» ا.هـ[(٢)].

وهذا الذي هو غاية ما عند هؤلاء من معارف الصوفية، إذا تدبره مَن يعرف ما بعث اللَّه به رسوله ﷺ، وما عليه شيوخ القوم المؤمنون باللَّه ورسوله ﷺ المتبعون للكتاب والسنة، تبين له أن ما ذكره في الكتاب بعد كمال تحقيقه لا يصيِّر الرجلَ مسلماً، فضلاً عن أن يكون ولياً للَّه، فإن غايته هو الفناء في التوحيد الذي وصفه، وهو توحيد غُلاة الجهمية المتضمن نفي الصفات.. وإنما يجعل الفناء في هذا التوحيد هو غاية العارفين: صوفية هؤلاء الملاحدة كابن الطُّفَيْل[(٣)] صاحب رسالة: ، حَيّ بن يقظان ا.هـ.

---

(١) يعني بمصحفهم: كتاب: «الإشارات والتنبيهات» لابن سينا، كما ذكر الشيخ ذلك بقوله: «.. فإنه قال في: (إشاراته) التي هي كالمصحف لهؤلاء المتفلسفة الملحدة» ا. هـ (الدرء: ١٩/٦).

(٢) انظر نصّ كلام الطوسي في شرحه علىٰ كتاب: «الإشارات والتنبيهات»، وهو مطبوع بِذيل كتاب «الإشارات والتنبيهات»، (٣، ٧٨٩/٤).

(٣) هو محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل القيسي الأندلسي، أبو بكر، وُلد سنة ٤٩٤، برع في الطب والفلسفة والرياضيات، له رسالة: حيّ بن يقظان، وغيرها، توفي سنة ٥٨١.

ج: سبب تظاهر ابن عربي وغيره من غلاة الصوفية بالتصوف دون التشيع أو غيره من الملل:

قال الشيخ: «ومن هنا دخل أهل الإلحاد من أهل الحلول والوحدة والاتحاد، . . من الملاحدة المنتسبين إلىٰ التصوف. . بخلاف أولئك الذين تظاهروا بمذهب التشيع، فإن نفور الجمهور عن مذهب الرافضة مِما نفّر الجمهور عن مثل هؤلاء، بخلاف جنس أهل الفقر والزهد، ومن يدخل في ذلك من مُتَكلم ومُتَصوف وفقير وناسك، وغير هؤلاء، فإنهم لمشاركتهم الجمهور في الانتساب إلىٰ السنة والجماعة، يخفىٰ من إلحاد الملحد الداخل فيهم ما لا يخفىٰ من إلحاد ملاحدة الشيعة» ا. هـ.

د: التفريق في الحكم، بين الصوفية عامة وبين مَن تظاهر بمظهرهم من الفلاسفة:

مِن عدل الشيخ وغزارة فهمه لمذهب الصوفية: أنه يفرق عند الحكم عليهم بين درجات الصوفية وطبقاتهم فلا يحكم علىٰ عمومهم بكلام غُلاتهم، بل إنه يخرج أكثر هؤلاء الغُلاة من فرقة الصوفية عامة، ويُقرّر أنهم ينتسبون إلىٰ المتصوفة ظاهرياً وهم ليسوا منهم، بل المتصوفة منهم براء.

قال أثناء كلامه عن الفلاسفة: «فصار هؤلاء الذين ظنوا الموجودات ما عرفه هؤلاء المتفلسفة، . . وكذلك الملاحدة **المنتسبون إلىٰ التصوف والتألّه: كابن سبعين وأمثاله**، سلكوا مسلكاً جمعوا فيه بزعمهم بين الشرع والفلسفة» ا. هـ.

وقال: «. . ولكن هذا بناه ابن عربي وأمثاله من الملاحدة علىٰ أصول الفلاسفة الصابئة[1]، وهؤلاء أخذوا كلام الفلاسفة: أخرجوه

(١) الصابئ، لغة: هو الخارج من دين إلىٰ دين، والصابئة: هم الذين بُعث =

في قالب المكاشفة والمشاهدة» ا.هـ.

وسيأتي في مبحث قادم تفصيل مذهب ابن عربي وحزبه القائلين بالحلول والاتحاد، والتفريق بنهم وبين صالحي الصوفية كالجنيد وغيره، وبيان ما أوقع ابن عربي وحزبه في الضلال، مع الرد عليهم.



= فيهم إبراهيم عليه السلام، كانوا يسكنون: حران، وكانوا يعظمون الكواكب السبعة، ويزعمون أنها تدير العالم. وهم قسمان: مشركون: وهم عبدة الكواكب، وصابئة حنفاء: وهم الموحدون الذين اتبعوا إبراهيم عليه السلام. وقد ذكر اللّه تعالىٰ هذين القسمين في القرآن وبين أن الصابئة ينقسمون إلىٰ مؤمنين وكفار؛ فقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة].

المبحث الثالث

أسماء الصوفية

أُطلق علىٰ المتصوفة عدة أسماء، لكنها في الغالب ترجع إلىٰ معاني الزهد والتعبد والجوع والفقر، ونحوها، ويمكن إجمال الأسماء التي ذكرها شيخ الإسلام فيما يلي:

الصوفية: وهو أشهر الأسماء وأظهرها، حتىٰ صار عند الإطلاق لا ينصرف إلا إلىٰ هؤلاء، وقد تقدم بيان سبب إطلاق هذا الاسم عليهم.

الفقرية، المتفَقِّرة، الفقراء، الفكرية، المغاربة، الجوعية:

قال الشيخ: «وقد كان للزهاد عدة أسماء: يُسمَّون بالشام: «**الجوعية**»، ويُسمّون بالبصرة «**الفقرية**» و«**الفكرية**»، ويُسمّون بخُراسان: **المغاربة**، ويُسمّون أيضاً: الصوفية والفقراء» ا.هـ.

وقال: «وصار أيضاً اسم «**الفقراء** «يُعنىٰ به أهل السلوك، وهذا عُرْفٌ حادث..» ا.هـ.

العُبّاد، المتعبِّدة، النُّساك، المتنسِّكة، الزهّاد، المتزهِّدة:

قال الشيخ: «تنبيه علىٰ أصل عظيم، ضلّ فيه من طوائف **النُّساك**، والصوفية، **والعًباد**، والعامة، من لا يحصيهم إلا اللَّه» ا.هـ.

أهل السلوك(١)، **أهل الإرادة**(٢):

---

(١) أهل السلوك: سُموا بذلك لأنهم يتكلمون في طريق السلوك إلىٰ اللَّه، ومعالم الطريق، وما يجب علىٰ السالك فيه.

(٢) أهل الإرادة: سُموا بذلك لأنهم يُعظمون الإرادة والمريد، ويتكلمون في دقائق النيات والإرادات، ويبالغون في ذلك

قال الشيخ أثناء كلامه عن محبة اللَّه تعالىٰ: «. . وهذا من أعظم ما تجب رعايته علىٰ **أهل الإرادة والسلوك،** » ا. هـ.

أهل التألُّه[(١)]:

قال الشيخ في معرض كلامه عن القدر: «وأما الطائفة الثانية: فهم شرٌّ منهم، وهم طوائف من أهل السلوك والإرادة **والتألُّه** والتصوف والفقر، ونحوهم» ا. هـ.

أهل المعرفة[(٢)]:

قال الشيخ أثناء كلامه عن الأحوال المبتدعة التي تعرض لبعض الصوفية: «. . فالأحوال التي ترِد علىٰ العُباد **وأهل المعرفة،** والزهّاد، ونحوهم مِما توجب زوال عقل أحدهم وعلمه، حتىٰ تجعله كالمجنون. . » ا. هـ.

المُتبتّلَة[(٣)]:

قال الشيخ أثناء كلامه عن محبة اللَّه تعالىٰ: «. . والضرب الثاني: طوائف من المتصوفة، والمتفقّرة، **والمتبتلة،** . . » ا. هـ.

فهذه مسميات متعددة أطلقت علىٰ الصوفية، والمتأمل فيها يجد أنها كلها تدور حول العبادة والزهد والإعراض عن الدنيا ـ كما تقدم ـ ولو دام حال المتصوفة علىٰ الزهد والتعبد المشروع لكان الأمر سهلاً، ولكن واقع كثير من المتصوفة تعدىٰ مسائل الزهد والعبادة إلىٰ بدع وضلالات أوقعتهم في الحلول والاتحاد، بل والانسلاخ من ربقة الدين

---

(١) التأله: هو التعبد، مشتق من الألوهية وهي العبودية.

(٢) أهل المعرفة: لأنهم يزعمون معرفة اللَّه معرفة خاصة، وأن اللَّه يعرفهم بنفسه معرفة ينفردون بها عن غيرهم.

(٣) المتبتلة: التبتل، هو التعبد، ومنه: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨﴾ [المزمل].

بدعاء غير اللَّه تعالىٰ، وصرف أنواع من العبادات إلىٰ الأولياء وغيرهم.



الفصل الثاني: فرقها، ورجالها، ومصادرهم في التلقي

المبحث الأول

أشهر فرقها، والفروق بينها، وأسباب الافتراق

تمهيد:

عند النظر في منهج الشيخ في التفريق بين طوائف وفرق الصوفية، نجد أنه، علىٰ الأغلب، لا ينسبها إلىٰ مسميات أو ألقاب اشتهرت بها، بل ينسبها إلىٰ أشخاص، فيقول مثلاً: وهذه طريقة فلان ومَن تبِعه.. أو يقول: وهذا قاله فلان وتبِعَه عليه أقوام..، ونحو ذلك.

ومن ذلك قوله أثناء كلامه عن الخلوة وأحكامها عند المتصوفة: «..ثم صار أصحاب الخلوات فيهم من يتمسك بجنس العبادات الشرعية: الصلاة والصيام والقراءة والذكر، وأكثرهم يخرجون إلىٰ أجناس غير مشروعة، **فمن ذلك طريقة أبي حامد ومن تبِعه**، وهؤلاء يأمرون صاحب الخلوة..» ا.هـ.

ويبدو أن السبب في ذلك هو: أن فرقة الصوفية لم تكن في بداية نشأتها، قولاً مبتدعاً، أو رأياً معارضاً، أو مذهباً مخالفاً مخالفة صريحة ظاهرة لما عليه أهل السنة والجماعة، وإنما كانت: مبالغات ظهرت من بعض التابعين في الخوف، والبكاء، ونحو ذلك مِما لم يكن عليه النبي ﷺ وأصحابه، ثمّ بدأت مع تقدم الزمن تفشوا بين عموم الصوفية مظاهر الغلوّ والشَّطَح، وبدأ مشايخ المتصوفة، ومن تغلغل بينهم من ملاحدة الفلاسفة، يصَنفون المصنفات، وينشرون الآراء في جزئيات المذهب، وصار لكلٍ منهم رأي في السماع يُخالفه فيه غيره، ورأي آخرُ في الخلوة والعًزلة يخالفه فيه غيره، ورأي في

الكرامة.. الخ، ولأنهم لا يرجعون في تقرير مذهبهم إلىٰ أصول علمية ثابتة، ولا يحتكمون عند الاختلاف إلىٰ الكتاب والسنة، كثُر بينهم التنازع، وتعددت الأقوال، وصار لكل شيخ طريقة يتبعه عليها أقوام.

ويمكن، بالاستقراء، حصر فرق الصوفية التي ذكرها الشيخ، في الفرق التالية:

الاتحادية: وهي من أكبر فرقهم، وهم الذين يقولون: إن المخلوق يصل إلىٰ مرحلة عالية من التعبد والقُرب يتحد فيها معه الخالق.

الحلولية: وهي والاتحادية سواء، ولا يكاد الشيخ يفرد إحداهما عن الأخرىٰ إلا نادراً سواء في العرض أو الرد، وبينهما فرق بسيط لا يكاد يظهر.

نبَّه الشيخ عليه بقوله: «فإن هؤلاء الحلولية إخوان هؤلاء الاتحادية، **أولئك قالوا:** هو في جميع المصنوعات، **وهؤلاء قالوا:** هو المصنوعات» ا.هـ.

السبعينية: وهي من فرق الحلولية والاتحادية، وهم **أتباع ابن سبعين** من رؤوس القائلين بالحلول والاتحاد.

وذكرهم الشيخ بقوله: «.. وهؤلاء عندهم ما ثَمَّ وجود لِغيره حتىٰ يتحد مع وجوده، وهم من أعظم الناس تناقضاً، فإنهم يقولون: ما ثَمَّ غيْرٌ ولا سِوَىٰ، وتقول **السبعينية:** ليس إلا اللَّه، بدل قول المسلمين لا إله إلا اللَّه، ثُم يقولون: هؤلاء المحجوبون لا يرون هذا..» ا.هـ.

الحلاجية: وهم منسوبون إلىٰ **الحسين بن منصور الحلاج**،

المقتول علىٰ الزندقة[(١)]، وهي من فرق الحلولية والاتحادية، **وقد ذكرها الشيخ أثناء كلامه عن الحلول والاتحاد.**

فقال: «فهؤلاء في الكفر الصريح هم أهل الإلحاد والاتحاد العام، بخلاف مَن قال بالاتحاد الخاص المقيَّد في نبي أو غير نبي كالنصارىٰ وغالية الرافضة، وغالية جُهال المتعبدة من **الحلاجية**» ا.هـ.

اليونسية[(٢)]: ونسبتهم إلىٰ: **يونس القنّي**[(٣)]، وقد ذكره الشيخ أثناء رده علىٰ الحلولية والاتحادية في غلوِّهم في مشايخهم وإيصال بعضهم بعض المشايخ إلىٰ درجة الألوهية.

فقال: «.. وكذلك الغلوّ في بعض المشايخ،.. **ويونس القنيي**،.. ونحوهم وجعل فيهم نوعاً من الإلهية» ا.هـ.

واليونسية من فرق الحلولية والاتحادية.

قال الشيخ: «..بخلاف من قال بالاتحاد الخاص المُقَيَّد في نبيٍ

---

(١) الزندقة: في الأصل لفظ فارسي معرب، وهي إنكار أصل من أصول العقيدة، أو الإلحاد، أو سلوك طريق يؤدي إلىٰ ذلك، وأطلقه الإمام أحمد علىٰ القائلين بتناقض القرآن، وأكثر المصنفين في الفرق لا يطلقون هذا اللفظ علىٰ طائفة معينة.

(٢) قال الإمام الذهبي: «وأما اليونسية فهم شر الطوائف الفقراء، ولهم أعمال تدل علىٰ الاستهتار والانحلال قالاً وفعلاً، أستحي من اللّه ومن الناس من التفوه بها، فنسأل اللّه المغفرة والتوفيق» ا. هـ.

(٣) هو يونس بن يوسف بن مساعد الشيباني المخارقي المشرقي القنيي، نسبة إلىٰ قريته قُنَيَّة، شيخ الطائفة اليونسية.
قال الذهبي: «هذا شيخ الطائفة اليونسية، أولي الزعارة والشطارة، والشطح وقلة العقل، أبعد اللّه شرهم.. وكان شيخنا ابن تيمية يتوقف في أمره أولاً ثم أطلق لسانه فيه وفي غيره من الكبار، والشأن في ثبوت ما يُنقل عن الرجل» ا. هـ.

أو غير نبي كالنصارىٰ وغالية الرافضة، وغالية جُهال المتعبدة، من الحلاجية، واليونسية، . . » ا.هـ.

وذكر الشيخ اليونسية أثناء كلامه عن اعتقاد فريق من الصوفية في خاتم الأولياء.

فقال: «وكذلك جهال القدرية، والأحمدية، واليونسية، قد يُفضلون شيخهم علىٰ النبي ﷺ، أو غيره من الأنبياء، وربما ادَّعَوْ في شيخهم نوعاً من الإلهية. . » ا.هـ.

وقال: «وأما المنتسبون إلىٰ الشيخ يونس: فكثير منهم كافر باللَّه ورسوله ﷺ، لا يُقرون بوجوب الصلاة الخمس، وصيام شهر رمضان، وحج البيت العتيق، ولا يُحرمون ما حرم اللَّه ورسوله ﷺ، بل لهم من الكلام في سَبِّ اللَّه ورسوله، والقرآن والإسلام، ما يعرفه مَن عرفهم» ا.هـ.

العدوية[1]: وهم أتباع الشيخ: عدِي بن مسافر[2]، وقد ذكرهم الشيخ من ضمن فرق الحلولية والاتحادية.

---

(١) العدوية: هم أتباع عدي بن مسافر، كما قال ابن كثير: «عدي بن مسافر. . شيخ الطائفة العدوية» ا. هـ.

(٢) هو عدي بن مسافر بن إسماعيل بن موسىٰ بن مروان بن الحسن بن مروان، الشامي الهكاري، شيخ الطائفة العدوية، أصله من دمشق، ثم دخل إلىٰ بغداد، فاجتمع بالشيخ عبد القادر وحماد الدباس، وعقيل المنبجي، وأبي النجيب السهروردي وغيرهم، قال ابن كثير: «انفرد عن الناس وتخلىٰ بجبل هكار، وبنىٰ له هناك زاوية، واعتقده أهل تلك الناحية اعتقاداً بليغاً، حتىٰ إن منهم من يغلو غلواً كثيراً منكراً، ومنهم من يجعله إلهاً أو شريكاً، وهذا اعتقاد فاحش يؤدي إلىٰ الخروج من الدين جملة» ا. هـ، توفي سنة ٥٥٧، وله تسعون سنة.

ومنه قوله: «.. فهؤلاء في الكفر الصريح هم أهل الإلحاد والاتحاد العام بخلاف مَن قال بالاتحاد الخاص المقيَّد في نبي أو غير نبي كالنصارىٰ وغالية الرافضة، وغالية جُهال المتعبدة من الحلاجية، واليونسية، وبعض **العدوية**، والحاكمية، وغيرهم، فإن هؤلاء يقولون بالاتحاد المعين المقيد» ا.هـ.

وقد غلا فيه أتباعه فرفعوا منزلته لدرجة الألوهية، قال الشيخ: «وكذلك الغلوّ في بعض المشايخ، إما في **الشيخ عدي**.. وجعل فيهم نوعاً من الإلهية، .. فكل هذا شرك وضلال» ا.هـ.

وكتب شيخ الإسلام إلىٰ أتباع الشيخ عدي نصيحة لما وقعوا فيه من غلوّ.

ومن ذلك قوله: «.. وأنتم أصلحكم اللّٰه، قد منَّ اللّٰه عليكم بالانتساب إلىٰ الإسلام.. وفي أهل الزهادة والعبادة منكم من له الأحوال الزكية، والطريقة المرضية، وله المكاشفات والتصرفات، وفيكم من أولياء اللّٰه المتقين مَن له لسان صدق في العالمين، فإن قدماء المشايخ الذين كانوا فيكم، مثل الملقب بشيخ الإسلام: أبي الحسن علي بن أحمد بن يوسف القرشي الهكاري[(١)]، وبعده الشيخ العارف القدوة: عدي بن مسافر الأموي، ومن سلك سبيلهم فيهم من الفضل والدين والصلاح والاتباع للسنة ما عظّم اللّٰه به أقدارهم،

---

(١) هو علي بن أحمد بن يوسف بن جعفر، أبو الحسن الهكاري القرشي الأموي، سكن بغداد، ولد سنة: ٤٠٩، وسمع الحديث وروىٰ عنه غير واحد من الحفاظ، وكان زاهداً عابداً ربانياً ذا وقار وهيبة، وكان يقول: رأيت رسول اللّٰه ﷺ في المنام في الروضة فقلت: يا رسول اللّٰه أوصني، فقال: عليك باعتقاد أحمد بن حنبل، ومذهب الشافعي، وإياك ومجالسة أهل البدع، توفي سنة: ٤٨٦.

ورفع به منارهم، وهؤلاء المشايخ لم يخرجوا في الأصول الكبار عن أصول أهل السنة والجماعة، . . وغالب ما يقولونه في أصولها الكبار جيِّد، مع أنه لا بد أن يوجد في كلامهم وكلام نظرائهم من المسائل المرجوحة، والدلائل الضعيفة، كأحاديث لا تثبت، ومقاييس لا تطرد، ما يعرفه أهل البصيرة، . . وأنتم تعلمون، أصلحكم اللَّه، أن السنة التي يجب اتباعها هي سنة رسول اللَّه ﷺ» ا. هـ.

القادرية(١): وينتسبون إلىٰ الشيخ: عبد القادر الجيلاني، وهذه الفرقة ذكرها الشيخ من ضمن فرق الصوفية أثناء كلامه عن اعتقاد فريق من الصوفية في خاتم الأولياء.

فقال: «وكذلك جهال **القادرية**، والأحمدية، واليونسية، قد يُفضلون شيخهم علىٰ النبي ﷺ، أو غيره من الأنبياء، وربما ادَّعَوْ في شيخهم نوعاً من الإلهية» ا. هـ.

الحاكمية(٢):

---

(١) القادرية: المشهور أن «القادرية «طريقة من طرق الصوفية، ولكن علىٰ اعتبار أن لها أحوالاً ومبادئ خاصة تجعلها تفترق بعض الافتراق عن بقية المتصوفة، وضعتها هنا بين الفرق الصوفية، والطريقة القادرية أسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني، ويدلّ علىٰ ذلك قوله في كتابه الغنية (١٦٣/٢): «ويجب علىٰ المبتدئ في هذه الطريقة الاعتقاد الصحيح الذي هو الأساس فيكون علىٰ عقيدة السلف الصالح».

وللطريقة القادرية أتباع منتشرون في العالم الإسلامي، ويكثرون في الجزائر وجاوا وغينيا، ويتعبدون بهذه الطريقة ويحسبون أنهم علىٰ خير!!

(٢) هذه الفرقة في الأصل من الفرق الباطنية، لا من الفرق الصوفية، ولكن لما أشبهت غلاة الصوفية في القول بالحلول والاتحاد ذكرتهم هنا، ولأن شيخ الإسلام أوردهم هنا ضمن غالية المتعبدة، فقال: «غالية جُهال =

ونسبتهم إلىٰ الحاكم بأمره[(١)]، وقد غلا فيه أتباعه ورفعوه إلىٰ درجة الألوهية.

وأشار الشيخ إلىٰ ذلك بقوله أثناء رده علىٰ الحلولية: «وكذلك الغلوّ في بعض المشايخ.. فكل مَن غلا في حيّ، أو في رجل صالح.. أو **الحاكم الذي كان بمصر**.. وجعل فيه نوعاً من الإلهية.. فكل هذا شرك وضلال» ا.هـ.

وذكرهم الشيخ من ضمن فرق الحلولية والاتحادية.

فقال: «فهؤلاء في الكفر الصريح هم أهل الإلحاد والاتحاد العام بخلاف مَن قال بالاتحاد الخاص المقيَّد في نبي أو غير نبي.. وغالية جُهال المتعبدة.. **والحاكمية**، وغيرهم، فإن هؤلاء يقولون بالاتحاد المعين المقيد» ا.هـ.

السعدية: وهم منسوبون إلىٰ الشيخ: **عمار السعدي**[(٢)]، وذكره

= المتعبدة من الحلاجية واليونسية وبعض العدوية، والحاكمية» ا. هـ.

(١) هو منصور بن العزيز نزار بن المعز مَعَد بن المنصور إسماعيل بن القائم محمد بن المهدي، أبو علي، العُبَيْدي المصري الرافضي، بل الإسماعيلي الزنديق المدَّعي الربوبية، الملقب بالحاكم بأمر اللَّه، صاحب مصر، ولد سنة ٣٧٥، وملَكَ بعد أبيه وله إحدىٰ عشرة سنة، وكان شيطاناً مريداً، خبيث النِّحلة، فرعون زمانه، وكان قوم من الغوغاء إذا رأوه قالوا: يا واحد يا أحد يا محيي يا مميت، مات مقتولاً سنة ٤١١.

(٢) وقفت علىٰ رجل بهذا الاسم ترجم له ابن حجر في تهذيب التهذيب، وفي لسان الميزان، ولعله هو المراد هنا ـ وإن كنت لا أجزم بذلك ـ وهو: عمار بن نصر السعدي، أبو ياسر الخراساني المروزي، سكن بغداد، روىٰ عنه سفيان بن عيينة وابن المبارك ووكيع وغيرهم، وعنه ابن أبي الدنيا وأبو يعلىٰ وأبو القاسم البغوي وغيرهم، قال ابن معين: ليس بثقة، وقال العقيلي قال لي موسىٰ بن هارون: عمار أبو ياسر متروك =

الشيخ أثناء رَدِّه علىٰ أتباع الشيخ عدي فيما اختلقوه مِن إسناد لِلِبْس الشيخ عدي للخِرقة.

فقال شيخ الإسلام: «وأما، الخرقة، فقالوا: دخل علىٰ الشيخ العارف عقيل المنبجي وألبسه الخرقة بيده،.. والشيخ عليل لبس الخرقة من يد الشيخ **عمار السعدي**، والشيخ **عمار السعدي** لبس الخرقة من يد الشيخ يوسف الغساني[(١)]» ا.هـ.

ذكرهم الشيخ أثناء كلامه عن اعتقاد الصوفية بخاتم الأولياء.

فقال: «.. وكذلك طائفة من السعدية: يفَضلون الوليَّ علىٰ النبي» ا.هـ.

البطائحية[(٢)] ويُسَمَّون أيضاً: **الأحْمديَّة، والرفاعية**: وهذه الفرقة ذكرها الشيخ من ضمن فرق الصوفية أثناء كلامه عن اعتقاد فريق من الصوفية في خاتم الأولياء.

فقال: «.. وكذلك جهال القادرية، **والأحمدية**، واليونسية، قد يُفضلون شيخهم علىٰ النبي ﷺ، أو غيره من الأنبياء، وربما ادَّعَوْ في شيخهم نوعاً من الإلهية..» ا.هـ.

ويُطلَقُ عليهم ثلاثة أسماء: الأحمدية: نسبة إلىٰ شيخهم: أحمد

= الحديث، وقال الخطيب: هو متروك الحديث، وذكره ابن حبان في الثقات، توفي سنة: ٢٢٩.

(١) يوسف الغساني: لم أقف علىٰ هذا الاسم إلا في الإصابة (٥٣٦/٤) لابن حجر حيث أورد حديثاً ثم قال: «وهكذا رواه يوسف الغساني عن سليمان بهذا الإسناد..» ا. هـ.

(٢) البطائحية: فرقة صوفية منسوبة إلىٰ مؤسسها: منصور البطائحي وهو خال أحمد الرفاعي، والبطائح مجموعة قرىٰ بين البصرة وواسط، وقد خلف منصوراً البطائحي ابن أخته أحمد الرفاعي فنسبوا إليه بعد ذلك.

الرفاعي[1]، الرفاعية: نسبة إلىٰ شيخهم: الرفاعي: أحمد بن أبي الحسين، البطائحية: نسبة إلىٰ نواحي البطائح (موطن الرفاعي).

ولشيخ الإسلام مناظرة مشهورة مع رؤوس هذه الفرقة، بين باطلهم، ورد شبهاتهم، وكشف حيلهم التي يُلَبِّسون بها علىٰ الناس.

وبما سبق من كلام شيخ الإسلام يتضح لنا أن الصوفية لما لم يكن لهم مصدر محدد يعوِّلون عليه، ويتفقون علىٰ الرجوع إليه، عند الاختلاف والتنازع، ظهر بينهم الخلاف الذي أدىٰ إلىٰ تفرقهم شيعاً وأحزاباً.



(١) هو أحمد بن علي بن أبي الحسين الرفاعي الحسيني، نسبة إلىٰ بني رِفاعة، قبيلة من العرب، ولد بالعراق سنة ٥١٢، وقيل: ٥٠٠، سكن أَمَّ البطائح إلىٰ أن مات وبه عُرف أمر تربية المريدين بالبطائح، إليه انتهت الرياسة في علوم الطريق، وإليه تُنسب الطريقة الرفاعية، توفي سنة: ٥٧٠.

المبحث الثاني

أبرز رجالها، وأثرهم في الفرقة

تقدم في المبحث السابق أن المتصوفة لا يعتمدون في آرائهم واعتقاداتهم علىٰ أصول ثابتة، لا من الكتاب والسنة ولا من غيرهما، بل هم تبع لأقوال الرجال، وكلما كان الرجل منهم ألحنَ حُجَّة، وأبلغَ بياناً، صار أرفعَ قدراً، وأكثرَ أتباعاً، ولهم في كل عصر من العصور رجال يحملون رايتهم، ويقودون بدعتهم، والغالب أن أثر هؤلاء الأشخاص يموت بموتهم، إلا أشخاصاً منهم بقيت آثارهم علىٰ الصوفية حتىٰ بعد موتهم.

ومن هؤلاء:

أ ـ أبو القاسم القشيري [ت: ٤٦٥]:

لأبي القاسم القشيري تأثير كبير علىٰ المتصوفه نجمل ما ذكره الشيخ عن ذلك فيما يلي:

١ ـ يعتبر كتاب «**الرسالة القشيرية**» من الكتب الأصلية التي يعتمد عليها الصوفية في تقرير المذهب، ويجعلونه عمدة في سلوكهم وتربيتهم للمريد، وغير ذلك.

٢ ـ لِما لكتاب «**الرسالة القشيرية**» من أهمية وتأثير عند الصوفية، فإن الشيخ أفرد كتاب «**الاستقامة**» وهو كتاب كبير يزيد عدد صفحاته عن (٧٠٠ صفحة) في الرد علىٰ مظاهر سلوكية مبتدعة عند الصوفية، وأكثره في عرض جوانب من كلام أبي القاسم القشيري في الرسالة والرد عليه.

قال الشيخ: «فيما ذكره الشيخ أبو القاسم القشيري في رسالته

المشهورة، من اعتقاد مشايخ الصوفية، فإنه ذكر من متفرقات كلامهم ما يستدل به علىٰ أنهم كانوا يوافقون اعتقاد كثير من المتكلمين الأشعرية، وذلك هو اعتقاد أبي القاسم، الذي تلقاه عن أبي بكر بن فورك وأبي إسحاق الإسفراييني، وهذا الاعتقاد غالبه موافق لأصول السلف وأهل السنة والجماعة، لكنه مقصر عن ذلك، ومتضمن ترك بعض ما كانوا عليه، وزيادة تخالف ما كانوا عليه، والثابت الصحيح عن أكابر المشايخ يوافق ما كان عليه السلف وهذا هو الذي كان يجب أن يذكر» ا. هـ.

ب ـ أبو حامد الغزالي [ت ٥٠٥هـ]:

وكذلك الشأن بالنسبة لأبي حامد؛ فإن له تأثيره الكبير عليهم ونجمل ما ذكر الشيخ عن ذلك فيما يلي:

١ ـ ابتدع الغزالي قولاً في أسماء اللَّه تابعه عليه ابن عربي وابن سبعين وغيرهما، فأوقعهم في الحلول، وقد أشار إلىٰ ذلك الشيخ أثناء رده علىٰ الحلولية.

حيث قال: «وصنف أبو حامد «شرح أسماء اللَّه الحسنىٰ» وضمَّنه التشبهَ باللَّه في كل اسم من أسمائه، وسماه «التخلق»، حتىٰ في اسمه: الجبار والمتكبر والإله، ونحو ذلك من الأسماء التي ثبت بالنص والإجماع أنها مختصة باللَّه، وأنه ليس للعباد فيها نصيب، كقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وغيره: **(يقول اللَّه تعالىٰ: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحداً منهما عذَّبته)**(١)، وسلك هذا المسلك ابن عربي وابن سبعين، وغيرهما، من ملاحدة الصوفية، وصار ذلك مع ما ضمّوا إليه من

---

(١) رواه مسلم عن ابن عباس رضي الله عنه.

البدع موقِعاً لهم في الحلول والاتحاد» ا. هـ.

٢ ـ كتاب الغزالي (مشكاة الأنوار) أساس الاتحاديين ومنطلق مذهبهم.

وقد صرّح الشيخ بهذا أثناء بيانه لمذهب الاتحادية، وأنهم يستعملون التفسير الباطني للقرآن، وذكر شيئاً من كلام الغزالي في هذا الباب.

ثم قال: «وكذلك قال في كتاب «مشكاة الأنوار» لما تكلم علىٰ المشكاة والمصباح، والزجاجة والشجرة والزيت والنار،.. **وهذا الكتاب كالعنصر لمذهب الاتحادية القائلين بوحدة الوجود**، وإن كان صاحب الكتاب لم يقل بذلك، بل قد يُكَفِّر مَنْ يقول بذلك، لكن ذاك لِما فيه من الإجمال تارة، ومن التفلسف وإبراز مقاصد الفلاسفة في الألفاظ النبوية وتأويلها عليه تارة، ومن المخالفة لما دلّ عليه الكتاب والسنة والإجماع تارة، بل ومن المخالفة لما عُلم بالعقل الصريح تارة، ولما فيه من الأمور التي يقولون إنها تستلزم قولهم» ا. هـ.

٣ ـ قرر الغزالي في كتابه «إحياء علوم الدين»: أن معرفة اللّٰه تعالىٰ لا تُنال بطلب العلم والنظر في الكتاب والسنة، وإنما هي أمر يُلقىٰ في القلب عند تجرُّده من الشهوات.. ، وقد تابعه علىٰ ذلك فئام من المتصوفة.

قال الشيخ مبيناً ذلك أثناء رده علىٰ كلامٍ لابنِ رشد الحفيد(١):

---

(١) هو محمد بن أحمد بن شيخ المالكية أبي الوليد محمد بن أحمد بن أحمد ابن رشد، أبو الوليد، ويُميز بالحفيد تفريقاً بينه وبين جَدّه، ولد سنة ٥٢٠، وبرع في الفقه والطب والفلسفة، مات محبوساً في داره بسبب =

«.. وأما ما حكاه عنهم حيث قال: وأما الصوفية فطرقهم في النظر ليست طريقة نظرية، أعني من مقدمات وأقيسة، وإنما يزعمون المعرفةَ باللَّه وبغيره من الموجودات بشيء يُلقىٰ في النفس عند تجريدها من العوارض الشهوانية، وإقبالها بالقلوب علىٰ المطلوب»[(١)]؛ **فيُقال: هذه الأشياء إنما أخذها من كلام أبي حامد**، فإنه كثيراً ما يذكر في كتبه: أن الطريق إلىٰ المعرفة هي هذا، وهو يذكر ذلك في الكتب التي يذكر فيها المشايخ الصوفية، كالإحياء، وغيره، ويذكر بعض ما في النصوص والآثار وكلام المشايخ الصوفية من الدِّلالة علىٰ تأثير العمل الصالح في حصول العلم، **فظن هذا وأمثاله أن هذا هو مذهب الصوفية كما حكاه**، وليس الأمر علىٰ ما قالوه..» ا. هـ.

٤ ـ كُتُب الغزالي أدخلت الفلسفة علىٰ المتصوفة:

قال الشيخ: «.. وهذا الإلحاد الذي وقع في كلام ابن عربي صاحب «الفتوحات» وأمثاله، في أصول الإيمان باللَّه ورسوله واليوم الآخر، لم يكن في كلام العلماء والشيوخ المشهورين عند الأمة الذين لهم لسان صدق، ولكن هؤلاء أخذوا مذهب الفلاسفة المنتسبين إلىٰ الإسلام كابن سينا وأمثاله؛ الذي دخل كثير منها في كلام صاحب الكتب المضنون بها علىٰ غير أهلها، وأمثاله، فأخرجوها في قالب الإسلام بلسان التصوف والتحقيق، كما فعل ابن عربي» ا. هـ.

وقال الشيخ: «.. وأبو حامد يميل إلىٰ الفلسفة لكنه أظهرها في قالب التصوف والعبارات الإسلامية..» ا. هـ.

= أقواله الردية أواخر سنة: ٥٩٤.

(١) الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة، لابن رشد، (ص: ٥٩).

ج ـ أبو حفص عمر بن محمد السهروردي [ت: ٦٣٢]:

كتاب «عوارف المعارف «للسهروردي، من أهم كتب المتصوفة، بين فيه أصولهم، وحدد ضوابطهم، وعرّف مصطلحاتهم، وقد عرض الشيخ لهذا الكتاب ومؤلفه في مواضع، ومن ذلك أنه نقل ما احتج به الصوفية علىٰ جواز السماع البدعي بحديث مكذوب علىٰ رسول اللَّه ﷺ، وبين الشيخ أن السهروردي أورد الحديث في كتابه «عوارف المعارف «وتبعه عليه أقوام من الصوفية.

قال الشيخ: «ورواه من طريقه الشيخ أبو حفص عمر السهروردي، صاحب «عوارف المعارف «: أن النبي ﷺ أنشده أعرابي:

قد لسعت حية الهوىٰ كبدي فلا طبيب لها ولا راقي

إلا الحبيبُ الذي شُغفتُ به فعنده رُقيتي وترياقي

وأنه تواجد حتىٰ سقطت البردة عن منكبيه، فقال له معاوية: ما أحسن لهوكم، فقال له: مهلاً يا معاوية! ليس بكريم من لم يتواجد عند ذكر الحبيب، فهو حديث مكذوب موضوع باتفاق أهل العلم بهذا الشأن» ا. هـ.

د ـ ابن عربي [ت ٦٣٨هـ]:

يُعتبر ابن عربي رأس القائلين بالحلول والاتحاد، وكل من جاء بعده مِمن تكلم في الحلول والاتحاد فمنه يأخذ أصول المذهب، ويبني عليه، أو يغير العبارات، أو يزيد وينقص.

وقد نص الشيخ علىٰ ذلك بقوله: «.. فالذين يقولون بوحدة الوجود متنازعون في أمور لكن إمامهم ابن عربي يقول: الأعيان ثابتة في العدم ووجود الحق فاض عليها..» ا. هـ.

ويرجع السبب في ذلك إلىٰ: كثرة مؤلفاته في هذا المذهب، بل

إن بنيان مذهب الاتحادية يقوم علىٰ كتابه: «فصوص الحِكَم» فضلاً عن كتبه الأخرىٰ، مثل: «الفتوحات المكية»، وغيره، والناظر في كلام الشيخ عن الاتحادية ـ عرضاً ونقداً ـ يجد أن أكثره يعتمد علىٰ ما نقله من «فصوص الحكم».

وأكثر الأقوال التي ابتدعها ابن عربي أو أظْهرَها، تابعَهُ عليها فريق غير قليل من المتصوفة، ومن ذلك: أنه صرّح بتفضيل الأولياء علىٰ الأنبياء، وانتصر لذلك، وتبعه من جاء بعده.

هـ ـ الشاذلي [ت: ٦٥٦]:

وهو من كبار الصوفية، وله أتباع قد وضع لهم حزباً فيه أدعية ابتدعها يذكرون اللّٰه تعالىٰ بها.

قال الشيخ أثناء كلامه عن «الفناء» عند الصوفية، واستعمالهم لأذكار مبتدعة: «.. كما نُقل عن الشاذلي: يكون الجمع في قلبك مشهوداً، والفرق علىٰ لسانك موجوداً، كما يوجد في كلامه وكلام غيره أقوال وأدعية، وأحزاب تستلزم تعطيل الأمر والنهي، مثل: دعوىٰ أن اللّٰه يعطيه علىٰ المعصية أكثر مما يعطيه علىٰ الطاعة، ونحو هذا مما يوجب أنه يجوز عنده أن يُجعَل الذين اجترحوا السيئات كالذين آمنوا وعملوا الصالحات، أو أفضل، ويدعون بأدعية فيها ابتداع، كما يوجد في حزب الشاذلي» ا. هـ.

فهؤلاء هم رجال الصوفية الذين نصَّ شيخ الإسلام علىٰ وجود أثر لهم في التصوف، وكان لهم أتباع وأنصار، أو كان لهم تصانيف تأثر بها من بعدهم.



المبحث الثالث

مصادر التلقي عندهم

✍ **تمهيد:**

من أخطر البدع الموجودة في التصوف: مصادر الصوفية في تلَقِّي مسائل الدين، وسلوكهم لذلك مسلكاً، فارقوا به أهل السنة والجماعة، ولا أعني جميع الصوفية، وإنما هذا حال الأغلب، ومِما جرَّأ أكثرهم علىٰ هذا الانحراف: اعتقادهم عدم اشتمال الكتاب والسنة علىٰ كل ما يحتاجونه في سيرهم إلىٰ اللَّه.

قال الشيخ أثناء تقريره اشتمال الكتاب والسنة علىٰ كل ما يحتاج العباد إلىٰ معرفته، وأن الدين كامل لا يحتاج إلىٰ مَن يزيد فيه، أو يُصلح أو يُبدل ويُغَير: «وإنما يظن عدم اشتمال الكتاب والحكمة علىٰ بيان ذلك، مَن كان ناقصاً في عقله وسمعه، ومَن له نصيب مِن قول أهل النار الذين قالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك]، وإن كان ذلك كثيراً في كثير مِن المتفلسفة، والمتكلمة، وجُهال أهل الحديث، والمتفقِّهة، والمتصوفة» ا. هـ.

والأدهىٰ من ذلك أن فريقاً منهم يزعم أنه غير محتاج للتلقي عن الرسل لأنه يتلقّىٰ من المصدر الذي يتلقّىٰ منه الرسول، فهو يأخذ عن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ مباشرة، وقد يرتقي به الحال فيأخذ عن اللَّه.

قال الشيخ: «وكان هذا لِقِلّة علمه بالفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وظنَّ أن ما يؤمر به الشيوخ في قلوبهم هو من اللَّه، وأن مَن قال: حدَّثني قلبي عن ربّي فإن اللَّه هو يناجيه، ومَن قال:

أخذتم علمكم ميتاً عن ميت وأخذنا عِلمنا عن الحيّ الذي لا يموت، هو كذلك، وهذا أضلّ مِمن ادَّعىٰ الاستغناء عن الأنبياء، وأنه لا يحتاج إلىٰ واسطتهم. . ومِن هؤلاء مَن يظن الرجال الذين يؤيد بهم الكفار من المشركين وأهل الكتاب، هم أولياء اللَّه، ولا يجب عليهم اتباع الرسول ﷺ، كالملائكة الموَكلة ببني آدم المعقِّبات، فقلتُ لشيخ منهم: محمد أُرسل إلىٰ الثقلين الإنس والجن، ولم يُرسل إلىٰ الملائكة، فكلُّ إنسيٍّ أو جنّي خرج عن الإيمان به فهو عدوٌ لِله، لا وليٌ لِله، بخلاف الملائكة. .» ا. هـ.

أما مصادر التلقي عند المتصوفة، التي ذكرها الشيخ فهي:

(١) **الأحاديث الضعيفة والموضوعة:** فالصوفية يحتجون بكل حديث يؤيّد مُرادهم سواء ولو كان ضعيفاً، أو موضوعاً، وسيأتي تفصيل ما احتجوا به من روايات، في مبحث خاص بذلك.

(٢) **الإلهام:** يعتبر الإلهام(١) من المصادر المعتمدة عند كثير من الصوفية، فهم يعملون بالإلهام أو بموجب الخطاب الذي يوجد في القلب.

وذكر الشيخ حقيقة الإلهام، وبين مكانته عند المتصوفة، وردّ عليهم في ذلك، ويمكن بيان ما ذكره فيما يلي:

أ ـ حقيقته: **قال الشيخ أثناء كلامه عن الإلهام:** «وحقيقته أن اللَّه وكّل بالإنس ملائكة وشياطين، يُلقون في قلوبهم الخير والشر،

---

(١) الإلهام: في اللغة: ما يُلقىٰ في الروع، أو ما يلقيه اللَّه في النفس من الأمور التي تبعث علىٰ الفعل أو الترك.
وفي الاصطلاح: إيقاع شيء في القلب يثلج له الصدر، ويطمئن، ويسكن، من غير استدلال بآية، ولا نظر في حجة، يخُصّ اللَّه تعالىٰ به بعض أصفيائه.

فالعلم الصادق من الخير، والعقائد الباطلة من الشر، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: لَمَّة المَلَكِ تصديق بالحق، ولَمَّة الشيطان تكذيب بالحق، وكما قال النبي ﷺ في القاضي: (**أنزل اللَّه عليه مَلَكاً يُسدِّده**)[1]، وكما أخبر اللَّه أن الملائكة توحي إلىٰ البشر ما توحيه، وإن كان البشر لا يشعر بأنه من المَلَك، كما لا يشعر بالشيطان الموَسوس، لكن اللَّه أخبر أنه يكلم البشر وحياً، ويكلمه: بمَلَك يوحي بإذنه ما يشاء، والثالث: التكليم من وراء حجاب» ا.هـ.

ب ـ الإلهام نوعان: قسم الشيخ الإلهام إلىٰ قسمين، فقال: «قال تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس]، فهو سبحانه يُلهم الفجور والتقوىٰ للنفس، والفجور يكون بواسطة الشيطان، وهو إلهام وسواس، والتقوىٰ بواسطة مَلَك، وهو إلهام وحي، هذا أمر بالفجور، وهذا أمر بالتقوىٰ، والأمر لا بدَّ أن يقترن به خبر، وقد صار في العرف لفظ الإلهام إذا أُطلق لا يُراد به الوسوسة، وهذه الآية مما تدل علىٰ أنه يُفَرَّق بين إلهام الوحي، وبين الوسوسة، فالمأمور به إن كان تقوىٰ اللَّه فهو من إلهام الوحي، وإن كان من الفجور فهو من وسوسة الشيطان» ا.هـ.

▫ **النوع الأول من نوعَيْ الإلهام: الإلهام الشرعي:**

قال الشيخ أثناء كلامه عن تعارض الأدلة أو الأقوال مع غياب المرجِّح الواضح:

«ففي الجملة القلب المعمور بالتقوىٰ إذا رجّح بمجرد رأيه فهو ترجيح شرعي، فمتىٰ ما وقع عنده وحصل في قلبه ما يُظنُّ معه أن

---

(١) الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: (**من طلب القضاء واستعان عليه وُكل إليه، ومن لم يطلبه ولم يستعن عليه أنزل اللَّه مَلَكًا يسدده**)، رواه الترمذي، وأبو داود.

أحد الأمرين أحب إلىٰ اللَّه ورسوله ﷺ كان هذا ترجيحاً بدليل شرعي، والذين أنكروا كَون الإلهام طريقاً علىٰ الإطلاق أخطئوا، كما أخطأ الذين جعلوه طريقاً شرعياً علىٰ الإطلاق، ولكن إذا اجتهد السالك في الأدلة الشرعية الظاهرة فلم يرَ فيها ترجيحاً، وأُلْهِمَ حينئذٍ رجحان أحد الفعلين مع حسن قصده وعمارته بالتقوىٰ، فإلهام مثل هذا دليل في حقه، قد يكون أقوىٰ من كثير من الأقيسة الضعيفة، والأحاديث الضعيفة، والظواهر الضعيفة، والاستصحابات الضعيفة التي يحتج بها كثير من الخائضين في المذهب، والخلاف وأصول الفقه» ا. هـ.

وقال أيضاً: «. . فقد يقع في قلبه أن هذا القول أرجح وأظهر وأصوب، وقد يميل قلبه إلىٰ أحد الأمرين دون الآخر، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: (**قد كان في الأمم قبلكم محدّثون فإن يكن في أمّتي أحد فعُمر**)(١)، والمُحَدَّث: المُلْهم المُخاطَب، وفي مثل هذا قول النبي ﷺ في حديث وابصة رضي الله عنه: (**البِرّ ما اطمأنّت إليه النفس وسكن إليه القلب، والإثم ما حاك في نفسك وإن أفتاك الناس وأفتوك**)(٢) . . » ا. هـ.

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) الحديث: بهذا اللفظ عند الدارمي عن وابصة بن معبد الأسدي: أن رسول اللَّه ﷺ قال لوابصة: جئت تسأل عن البر والإثم قال: قلت: نعم. قال: فجمع أصابعه فضرب بها صدره، وقال: (**استفت نفسك، استفت قلبك يا وابصة ـ ثلاثاً ـ؛ البر: ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم: ما حاك في النفس وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك**). ورواه بغير زيادة: (**وإن أفتاك الناس وأفتوك**) مسلم عن النواس بن سمعان رضي الله عنه.

▫ النوع الثاني من نوعَيْ الإلهام: الإلهام البدعي:

قال الشيخ أثناء كلامه عن أحوال بعض الصوفية، ومصادرهم في التلقي:

«.. فمنهم مَن يظن أنه يُلَقن القرآن بلا تلقين، ويحكون أن شخصاً حصل له ذلك، وهذا كذب، .. ويقول بعضهم أو يحكي أن بعضهم قال: أخذوا علمهم ميتاً عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت، وهذا لا يقع، لكن منهم يظن أن ما يُلقىٰ إليه من خطاب أو خاطر هو من اللَّه تعالىٰ بلا واسطة، وقد يكون من الشيطان وليس عندهم فُرقان يفرق بين الرحماني والشيطاني، فإن الفرق الذي لا يخطئ هو القرآن والسنة، فهو حق وما خالف ذلك فهو خطأ، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف]، وذكر الرحمن هو ما أنزله علىٰ رسوله.. ثم هؤلاء لما ظنوا أن هذا يحصل لهم من اللَّه بلا واسطة صاروا عند أنفسهم أعظم من أتباع الرسول، يقول أحدهم: فلان عطيته علىٰ يد محمد ﷺ، وأنا عطيتي من اللَّه بلا واسطة، ويقول أيضاً: فلان يأخذ عن الكتاب، وهذا الشيخ يأخذ عن اللَّه، ومثل هذا» ا.هـ.

ج ـ الإلهام، وإن كان شرعياً، ليس مصدراً مُستقلاً للتلقي بل يوزن بالكتاب والسنة:

بين الشيخ أن الإلهام وإن كان ظاهره شرعياً ووقع لرجل قلبه معمور بالتقوىٰ والإيمان، إلا أنه يجب أن يعرض ما يقع في قلبه علىٰ الكتاب والسنة.

قال: «والأولياء وإن كان فيهم مُحَدَّثون كما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنه كان في الأمم قبلكم مُحَدَّثون، فإن يكن**

في أمتي أحد فعمر»(١)، فهذا الحديث يدل علىٰ أن أول المحَدَّثين من هذه الأمة: عمر، وأبو بكر أفضل منه إذ هو الصِّدِّيق، فالمحَدَّث وإن كان يُلْهم ويُحدَّث من جهة اللَّه تعالىٰ فعليه أن يعرض ذلك علىٰ الكتاب والسنة، فإنه ليس بمعصوم، كما قال أبو الحسن الشاذلي: قد ضُمنت لنا العصمة فيما جاء به الكتاب والسنة، ولم تُضمن لنا العصمة في الكشوف والإلهام، ولهذا كان عمر رضي الله عنه وقّافاً عند كتاب اللَّه، وكان أبو بكر يبيّن له أشياء تخالف ما يقع له، كما بيّن له يوم الحُدَيبية(٢) ويوم موت النبي صلى الله عليه وسلم أنكر عمر رضي الله عنه

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة، ومسلم عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) يشير إلىٰ ما اعترض به عمر رضي الله عنه علىٰ رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية، ثم تبين له رضي الله عنه الحقّ فرجع إليه، والقصة في الصحيحين: عن سهل بن حنيف رضي الله عنه قال: كنا مع رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ولو نرىٰ قتالاً لقاتلنا، وذلك في الصلح الذي كان بين رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم وبين المشركين، فجاء عمر بن الخطاب فأتىٰ رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول اللَّه ألسنا علىٰ حق وهم علىٰ باطل؟! قال: «بلىٰ»، قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟! قال: «بلىٰ»، قال: ففيم نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم اللَّه بيننا وبينهم؟! فقال: **«يا ابن الخطاب إني رسول اللَّه ولن يضيعني اللَّه أبداً»**.

قال: فانطلق عمر فلم يصبر ـ متغيظاً ـ فأتىٰ أبا بكر، فقال: يا أبا بكر ألسنا علىٰ حق وهم علىٰ باطل؟! قال: «بلىٰ»، قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟! قال: «بلىٰ»، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم اللَّه بيننا وبينهم؟! فقال: **«يا ابن الخطاب إنه رسول اللَّه ولن يضيعه اللَّه أبداً»**، قال: فنزل القرآن علىٰ رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم بالفتح، فأرسل إلىٰ عمر فأقرأه إياه، فقال: يا رسول اللَّه أَوَفَتحٌ هو؟! قال: «نعم»، فطابت نفسه ورجع.

موته أوّلاً، فلما قال أبو بكر رضي الله عنه: إنه مات، رجع عمر عن ذلك[١] وكان عمر يشاور الصحابة رضي الله عنهم، فتارة يرجع إليهم وتارة يرجعون إليه وينازعونه في أشياء فيحتج عليهم ويحتجون عليه بالكتاب والسنة، ويُقرّرهم علىٰ منازعته ولا يقول أنا مُحَدَّثٌ مُلهم مَخاطَب فينبغي لكم أن تقبلوا مني ولا تعارضوني، وربما قال القول فتردّ عليه امرأة من المسلمين قوله، وتبيّن له الحق فيرجع إليها، ويدع قوله، كما قَدَّر الصَّداق[٢].

---

(١) يشير إلىٰ ما اعترض به عمر يوم موت النبي ﷺ، والقصة في الصحيحين: عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ: أن رسول اللَّه ﷺ مات وأبو بكر بالسنح ـ قال إسماعيل يعني بالعالية ـ فقام عمر يقول: واللَّه ما مات رسول اللَّه ﷺ، قالت: وقال عمر: واللَّه ما كان يقع في نفسي إلا ذاك وليبعثنه اللَّه فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم، فجاء أبو بكر فكشف عن رسول اللَّه ﷺ فقبله، قال: بأبي أنت وأمي طبت حياً وميتاً، والذي نفسي بيده لا يذيقك اللَّه الموتتين أبداً، ثم خرج فقال: أيها الحالف! علىٰ رِسْلك، فلما تكلم أبو بكر جلس عمر، فحمد اللَّه أبو بكر وأثنىٰ عليه، وقال: ألا من كان يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد اللَّه فإن اللَّه حي لا يموت، وقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ [الزمر]، وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝١٤٤﴾ [آل عمران]، فنشج الناس يبكون. . الحديث.

(٢) يشير الشيخ إلىٰ ما أخرجه سعيد بن منصور في سننه (١/١٦٦/ح ٥٩٨) عن الشعبي قال: «خطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه الناس فحمد اللَّه وأثنىٰ عليه، وقال: ألا لا تغالوا في صُدُق النساء، فإنه لا يبلغني عن أحد ساق أكثر من شيء ساقه رسول اللَّه ﷺ، أو سيق إليه إلا جعلت فضل ذلك في بيت المال، ثم نزل.

فعرضت له امرأة من قريش، فقالت: يا أمير المؤمنين! كتاب اللَّه ﷻ =

وربما يرىٰ رأياً فيُذكر له حديث عن النبي ﷺ فيعمل به ويدع رأيه، وكان يأخذ بعض السنة عمّن هو دونه في قضايا متعدّدة، وكان يقول القول، فيُقال له: أصبت، فيقول: واللَّه ما يدري عمر أصاب الحق أم أخطأه؟ فإذا كان هذا إمام المحَدَّثين، فكل ذي قلب يحدِّثه قلبه عن ربه إلىٰ يوم القيامة هو دون عمر، فليس فيهم معصوم بل الخطأ يجوز عليهم كلهم» ا. هـ.

د ـ أدلة الصوفية علىٰ صحة الاحتجاج بالإلهام عموماً: يزعم فريق من الصوفية أن ما يُلقىٰ في قلوبهم من إلهامات، هو من اللَّه تعالىٰ وهم معصومون أن يقع عليهم خطأ في هذه الإلهامات، واستدلوا علىٰ قولهم بعصمة المحَدَّثين بدليل عرضه الشيخ وردَّ عليه.

فقال: «فإن ما جاء به الرسول ﷺ معصوم أن يستقرَّ فيه خطأ، قد فرض اللَّه علىٰ خلقه تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر، وأما ما يرد علىٰ قلوب الأولياء فليس معصوماً، وليس عليهم تصديقه، بل وليس لهم العمل بشيء منه إذا خالف الكتاب والسنة.. ومما يبَين الفرق بين النبيين وغيرهم أن اللَّه سبحانه أوجب الإيمان بما أوتِيَه كل نبي من غير استثناء..» ا. هـ.

(٣) الذَّوْق: يعتبر الذوق[1] من مصادر التلقي عند الصوفية، وقد

= أحق أن يتبع أو قولك؟ قال: بل كتاب اللَّه ﷻ، فما ذلك؟ قالت: نهيت الناس آنفاً أن يغالوا في صدق النساء واللَّه ﷻ يقول في كتابه: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٢٠]؛ فقال عمر: كل أحد أفقه من عمر، مرتين أو ثلاثاً، ثم رجع إلىٰ المنبر فقال للناس: إني نهيتكم أن تغالوا في صدق النساء، ألا! فليفعل الرجل في ماله ما بدا له» ا. هـ.

(١) الذوق لغة: مصدر من ذاق يذوق، وهو اختبار طعم الشيء بإدارته في =

بين الشيخ معناه وحقيقته، وردّ علىٰ المتصوفة في احتجاجهم به.

ويمكن بيان ما ذكره الشيخ فيما يلي:

أ ـ تعريفه لُغَةً: قال الشيخ: «الذوق في لغة العرب هو: وجود طعم الشيء، والاستعمال يدل علىٰ ذلك، قال تعالىٰ: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١]» ا. هـ.

ب ـ تعريف الذوق اصطلاحاً: عرَّفه الشيخ أثناء كلامه عن منهج الاستدلال عند مختلف الفرق، وَذَكَر المصالح المرسلة، ثم قال: «ومنهم مَن يسميها الرأي، وبعضهم يُقَرب إليها الاستحسان، وقريب منها ذوق الصوفية ووجدهم وإلهاماتهم، فإن حاصلها أنهم يجدون في القول والعمل مصلحة في قلوبهم وأديانهم ويذوقون طعم ثمرته» ا. هـ.

ج ـ وقد يُطلق بعض الصوفية اسم الحقيقة ويعنون به الذوق:

قال الشيخ: «ومن خرج عن الشرع الذي بعث اللَّه به محمداً ﷺ، ظاناً أنه مُتّبع للحقيقة، فإنه مُضاهٍ للمشركين المكذبين للرسل، ولفظ الحقيقة يُقال علىٰ: حقيقة كونية، وحقيقة بدعية، وحقيقة شرعية: فالحقيقة الكونية: مضمونها الإيمان بالقضاء والقدر، وأن

= الفم باللسان لمعرفة حلاوته أو مرارته.
والذوق في عرف الصوفية: قال الكاشاني: «هو أول درجات شهود الحق بالحق في أثناء البوارق المتوالية عند أدنىٰ لبث من التجلي البرقي، فإذا زاد وبلغ أوسط مقام الشهود سمي مشرباً، فإذا بلغ النهاية يسمىٰ: رياً، وذلك بحسب صفاء السر عن لحوظ الغير» ا. هـ.
وقال الجرجاني: «الذوق في معرفة اللَّه: عبارة عن نور عرفاني يقذفه الحق بتجليه في قلوب أوليائه يفرقون به بين الحق والباطل من غير أن ينقلوا ذلك من كتاب أو غيره.

اللَّه خالق كلّ شيء ومليكه. . وأما الحقيقة البدعية: فهي سلوك طريق اللَّه ﷻ مما يقع في قلب العبد من الذوق والوجد، والمحبة والهوىٰ، من غير اتّباع الكتاب والسنة، . . وأما الحقيقة الدينية: وهي تحقيق ما شرعه اللَّه ورسوله ﷺ، مثل الإخلاص للَّه، والتوكل علىٰ اللَّه» ا. هـ.

د ـ حقيقة الذوق والوجد: **قال الشيخ**: «فالذوق والوجد هو يرجع إلىٰ حُبّ الإنسان ووَجده بحلاوته وذوقه وطعمه، وكلّ صاحب محبة فله في محبوبه ذَوق ووَجد، فإن لم يكن ذلك بسلطان من اللَّه وهو ما أنزله علىٰ رسوله ﷺ كان صاحبه متَّبعاً لهواه بغير هدىٰ، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]» ا. هـ.

هـ ـ الذوق نوعان: بدعي، وشرعي:

أوّلاً: الذوق البدعي (الذي هو من مصادر التلقّي عند الصوفية):

قال الشيخ أثناء كلامه عن المتصوفة: «وهؤلاء قد يُسمون ما أحدثوه من البدع: حقيقة، وطريق الحقيقة عندهم هو السلوك الذي لا يتقيد صاحبه بأمر الشارع ونهيه، ولكن بما يراه **ويذوقه** ويجده ونحو ذلك، . . وأصل ضلال مَن ضلَّ هو بتقديم قياسه علىٰ النص المنَزَّل من عند اللَّه، واختياره الهوىٰ علىٰ اتباع أمر اللَّه، **فإن الذوق** والوجد، ونحو ذلك هو بحسب ما يحبه العبد، فكل مُحب له **ذَوْق** ووجد بحسب محبته، فأهل الإيمان لهم من الذوق والوجد مثل ما بيَّنه النبي ﷺ بقوله في الحديث الصحيح: **(ذاق طعم الإيمان مِن رضِي باللَّه رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً)**(١)، وأما أهل الكفر

---

(١) رواه مسلم عن العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه.

والبدع والشهوات فكُلٌ بِحسَبه، قيل لسفيان بن عُيَيْنة: ما بال أهل الأهواء لهم محبة شديدة لأهوائهم؟! فقال: أنسيت قوله تعالىٰ: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣]، أو نحو هذا الكلام» ا. هـ.

ثانياً: الذوق الشرعي:

قال الشيخ: «فاستعمال لفظ: الذوق في إدراك الملائم والمنافر، وقال النبي ﷺ: **(ثلاث مَن كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان)**، كما تقدم ذكر الحديث، فوجود المؤمن حلاوة الإيمان في قلبه وذوق طعم الإيمان أمر يعرفه مَن حصل له هذا الوجد» ا. هـ.

وقال أثناء كلامه عن صلاح القلب وإخلاصه للَّه تعالىٰ: «والقلب إذا ذاق حلاوة عبوديته للَّه ومحبته له لم يكن أحب إليه من ذلك حتىٰ يقدمه عليه» ا. هـ

و ـ والصوفية يعتبرون الذوق من مصادر التلقي:

قال الشيخ أثناء كلامٍ له عن طرق تحصيل العلم: «وكثير من المتصوفة والفقراء يبني علىٰ منامات وأذواق وخيالات يعتقدها كشفاً وهي خيالات غير مطابقة، وأوهام غير صادقة ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾ [النجم]» ا. هـ.

ز ـ الرد علىٰ من جعل الذوق والوجد مصدراً للتلقي:

قال الشيخ أثناء ردِّه علىٰ الصوفية في احتجاجهم لجواز السماع البدعي ونحوه من العبادات المبتدعة باستحسان القلوب لها ووجود الرقة والخشوع عند فعلها: «ونحن نتكلم علىٰ ذلك بوجوه نبين بها إن شاء اللَّه المقصود:

الوجه الأول: أن نقول: يجب أن يُعرَف أن المرجع في القُرَب

والطاعات، والديانات، والمستحبات إلىٰ الشريعة، ليس لأحد أن يبتدع ديناً لم يأذن اللَّه به، ويقول: هذا يُحبه اللَّه، . . وكلام المشايخ الذين ذكرهم أبو القاسم(١) في هذا الأصل كثير، مثل:

ما ذكره عن: الشيخ أبي سليمان الداراني(٢)، أنه قال: رُبَّما يقع النكتة في قلبي من نُكت القوم أياماً، فلا أقبل إلا بشاهدين عدلين: الكتاب والسنة، وعن صاحبه أحمد بن الحواري(٣)أنه قال: مَن عمل بلا اتباعِ سُنة فباطل عملُهُ، . . ومثل هذا كثير في كلام أئمة المشايخ، وهم إنما وصُّوا بذلك لِما يعلمونه من حال كثير مِن السالكين: أنه يجري مع ذَوقِه، وما يراه ويهواه، غير مُتبع لسبيل اللَّه التي بعث بها رسله، وهذا مِن نوع الهوىٰ بغير هدىٰ مِن اللَّه» ا. هـ.

ح ـ وتعرّض الشيخ في مَوضع آخر لبيان حقيقة محبة المتصوفة للَّه تعالىٰ، وأن غُلُوَّ فريق منهمً فيها أوصلهم إلىٰ القول بالحلول والاتحاد.

فقال: «كان مشايخ الصوفية العارفون أهل الاستقامة يوصون كثيراً بمتابعة العلم ومتابعة الشرع، . . **والمقصود:** ذِكرُ مَن عدل عن العبادات التي شرعها الرسول ﷺ، إلىٰ عبادات بإرادته وذوقه ووَجده ومحبّته وهواه، وأنهم صاروا في أنواع من الضلال من جنس ضلال

---

(١) يعني أبا القاسم القشيري.

(٢) هو عبد الرحمن بن أحمد (وقيل: ابن عطية) العنسي، أبو سليمان الداراني، الإمام الزاهد، ولد سنة: ١٤٠ تقريباً، روىٰ عن سفيان الثوري وجماعة، توفي سنة: ٢١٥.

(٣) هو أحمد بن أبي الحواريّ ميمون، أبو الحسن، من أهل دمشق، كان من شيوخ الصوفية، صحِب الجُنيد وأبا سليمان الداراني، توفي سنة: ٢٣٠.

النصارىٰ، ففيهم مَن يدّعي إسقاط وساطة الأنبياء، والوصول إلىٰ اللَّه بغير طريقهم، ويدّعي ما هو أفضل من النبوّة، ومنهم من يدّعي الاتحاد والحلول الخاص: إما لِنفسه، وإما لِشيخه، وإما لِطائفته الواصلين إلىٰ حقيقة التوحيد بزعمه» ا. هـ.

طَ ـ لم يكن أحد من السلف يجعل الذوق والوجد مصدراً للتلَقّي:

قال الشيخ: «فكان القرآن هو الإمام الذي يُقتدىٰ به، ولهذا لا يوجد في كلام أحد من السلف أنه عارض القرآن بعقل ورأي وقياس، ولا بذوق ووَجْد ومكاشفة، . . ولا فيهم من يقول إن له ذوقاً أو وَجداً أو مخاطبة أو مكاشفة تخالف القرآن والحديث» ا. هـ.

(٤) **الكشف:** يعتبر المتصوفة الكشف(١) من مصادر التلقي، ويمكن بيان ما ذكره الشيخ فيما يلي:

أ ـ الكشف ثلاثة أصناف: قال: «وما يحصل من نوع المكاشفة والتصرف ثلاثة أصناف: ملكي، ونفسي، وشيطاني، فإن المَلَك له قوّة، والنفس لها قوّة، والشيطان له قوّة، وقلب المؤمن له قوّة، فما كان من المَلَك ومن قلب المؤمن فهو حق، وما كان من الشيطان ووسوسة النفس فهو باطل، وقد اشتبه هذا بهذا علىٰ طوائف كثيرة. . » ا. هـ.

---

(١) الكشف لغة: رَفعُك الشيء عما يواريه ويغطيه، وكشف الأمر يكشفه كشفاً: أظهره. لسان العرب (٩/٣٠٠، مادة كشف). الكشف اصطلاحاً: هو الاطلاع علىٰ ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية، والأمور الحقيقية، وجوداً وشهوداً. معجم اصطلاحات الصوفية للحفني (ص: ٢٥٥)، وعرّفه السراج في اللمع (ص: ٢٤٩) بقوله: الكشف: بيان ما يستتر علىٰ الفهم، فيُكشف عنه للعبد كأنه رأي عين.

ب ـ الكشف قِسمان: القسم الأول: الكشف الشرعي.

قال الشيخ: «.. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: اقربوا من أفواه المطيعين، واسمعوا منهم ما يقولون، فإنهم تتجلىٰ لهم أمور صادقة،.. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (**الصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء**)[(١)]، ومن معه نور وبرهان وضياء، كيف لا يعرف حقائق الأشياء مِن فحوىٰ كلام أصحابها؟.. وقد قدمنا أن الكذب ريبة والصدق طمأنينة، فالحديث الصدق تطمئن إليه النفس، ويطمئن إليه القلب، وأيضاً: فإن اللَّه فطر عباده علىٰ الحق، فإذا لم تستَحِلِ الفطرة شاهدت الأشياء علىٰ ما هي عليه، فأنكرت منكرها، وعرفت معروفها.. وإذا كان القلب معموراً بالتقوىٰ انجلت له الأمور وانكشفت، بخلاف القلب الخراب المظلم، قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: إن في قلب المؤمن سراجاً يزهر، وفي الحديث الصحيح: (**إن الدجال مكتوب بين عينيه كافر، يقرؤه كلُّ مؤمن قارئ وغير قارئ**)[(٢)]، فدلّ علىٰ أن المؤمن يتبين له ما لا يتبين لغيره، ولا في الفتن، وينكشف له حال الكذاب» ا. هـ.

القسم الثاني من قسمَيْ الكشف: الكشف البدعي: وهو ما يكون سببه الجن والشياطين.

قال الشيخ: «فكل مَن كان من أهل الإلهام والخطاب والمكاشفة، لم يكن أفضل من عمر رضي الله عنه، فعليه أن يسلك سبيله في الاعتصام بالكتاب والسنة،.. وهؤلاء الذين لهم مكاشفات ومخاطبات يرون ويسمعون ما له وجود في الخارج، وما لا يكون موجوداً إلا في

---

(١) رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري، ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنه.

أنفسهم، كحال النائم، وهذا يعرفه كل أحد، . . لكن من الناس مَن يعلم أن هذا من الشيطان، وأنه من السحر، وأن ذلك حصل بما قاله وعمِله من السحر، ومنهم من يعلم أن ذلك من الجن» ا. هـ.

ج ـ الكشف لا يكون مصدراً ـ مُنفرداً ـ للتلقي:

قال الشيخ: «. . طريق أهل الرياضة والتصوف والعبادة البدعية: وهؤلاء منصرفون إلىٰ النصرانية الباطلة، فإن هؤلاء يقولون: إذا صفّىٰ الإنسان نفسه علىٰ الوجه الذي يذكرونه، فاضت عليه العلوم بلا تعلم، وكثير من هؤلاء تكون عباداته مبتدعة، . . وكثير من أهل الإرادة يزعمون أن طريقة الرياضة بمجردها، تُحَصِّل المعارف بلا تعلّم ولا نظر ولا تدبّر للقرآن والحديث، وكِلا الفريقين غالط» ا. هـ.

د ـ ليس كل عمل أورث كشفاً، يكون أفضل من غيره:

قال الشيخ: «ليس كل عمل أورث كشوفاً أو تصرّفاً في الكون يكون أفضل من العمل الذي لا يورث كشفاً وتصرّفاً، فإن الكشف والتصرّف إن لم يكن مما يُستعان به علىٰ دين اللّه وإلا كان من متاع الحياة الدنيا، وقد يحصل ذلك للكفار من المشركين وأهل الكتاب» ا. هـ.

هـ ـ احتجاج الصوفية علىٰ صحة التلقي عن الكشف بقصة الخضر مع موسىٰ عليهما السلام:

قال الشيخ بعد كلامه السابق: «ومن استدلَّ علىٰ ذلك بقصة الخضر فهو من أجهل الناس، فإن موسىٰ لم يكن مبعوثاً إلىٰ الخضر، ولا كان يجب علىٰ الخضر اتّباعه، بل قال لموسىٰ: (**إني علَىَ عِلْم مِنْ عِلْم اللّه علَّمنيه اللّه، لا تعلمه، وأنت علىٰ علم من علم اللّه علّمَكه اللّه لا أعلمه، ولما سلّم عليه، قال: وأنَّىٰ بأرضك السلام؟ قال:**

أنا موسىٰ، قال: موسىٰ بني إسرائيل؟ قال: نعم)[١]، فالخضر عليه السلام، لم يعرف موسىٰ عليه السلام، حتّىٰ عرّفه موسىٰ نفسَه، وأما محمد ﷺ: فهو الرسول إلىٰ جميع الخلق، فمن لم يتبعه من جميع مَن بلغته دعوته كان كافراً ضالا، ومَن قال له مثل ما قال للخضر فهو كافر.

وأيضاً: ما فعله الخضر فلم يكن خارجاً عن شريعة موسىٰ عليه السلام، إذ لما بيَّن له الأسباب أقرّه علىٰ ذلك، فكان قد علم الخضرُ الأسباب التي أباحت له ذلك الفعل، ولم يكن يعلمها موسىٰ، كما يدخل الرجل علىٰ غيره فيأكل طعامه، ويأخذ ماله لعلمه بأنه مأذون له، وأيضاً: فإن الخضر إن كان نبياً فليس لغيره أن يتشبه به، وإن لم يكن نبياً ـ وهو قول الجمهور ـ فأبو بكر وعمر رضي الله عنهما أفضل منه، فإن هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس، وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما خيارها، وكان حالهما مع رسول اللَّه ﷺ كما عُلِم من الطاعة لأمره، ونحن مأمورون أن نقتدي بهما» ا.هـ.

و ـ ومن طرق الكشف عند الصوفية: المنامات:

قال الشيخ: «وكثير من المتصوفة والفقراء يبني علىٰ منامات وأذواق وخيالات يعتقدها كشفاً، وهي خيالات غير مطابقة، وأوهام غير صادقة ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾ [النجم]» ا.هـ.

زَ ـ ومن طرق الكشف عند الصوفية: الإسراء والمعراج:

بين الشيخ أن ابن عربي فسّر إسراء النبي ﷺ بأنه نوع من الكشف العلمي، في خيال النبي ونفسه، نظير ما ادّعاه في تكليم اللَّه تعالىٰ لِموسىٰ ﷺ فقال: «وله كتاب الإسراء الذي سماه: «الإسراء إلىٰ

---

(١) رواه البخاري، ومسلم عن أبي بن كعب رضي الله عنه.

المقام الأسرىٰ»، وجعل له إسراءً كإسراء النبي ﷺ. . وجعلوه من نوع الكشف العلمي،. . **وباب الخيال**: باب لا يُحيط به إلا اللّٰه، وابن عربي يدّعي أن الخيال هو عالم الحقيقة، ويُعَظمه تعظيماً بليغاً، فجعل في خياله يتكلّم علىٰ المشايخ، وتوحيدهم، بكلام يقدح في توحيدهم، ويدَّعي أنه علّمَهم التوحيد في ذلك الإسراء، وهذا كلّه مِن جنس قُرآن مُسَيلمة، بل شَرٌّ منه، وهو كلام مخلوق، اختلقه في نفسه» ا.هـ.

ح ـ القبور:

قال الشيخ أثناء كلامه عن زيارة القبور البدعية، وما يقع من بعض الزائرين من دعاء المقبورين: «. . وأما أن يقول: يفيض علىٰ الداعي من جهتهم ما يطلب من غير علم منهم ولا قصد كشعاع الشمس الذي يظهر في الماء وبواسطة الماء يظهر في الحائط وإن كانت الشمس لا تدري بذلك، وهذا قول طائفة من الفلاسفة المنتسبين إلىٰ الملل، وقد ذكره صاحب الكتب المضنون بها علىٰ أهلها[(١)] وغيره» ا.هـ.

طَ ـ الهواتف:

قال الشيخ: «. . والمنتسبون إلىٰ الزهد والتصوف،. . يظنون أنهم يُخاطَبون،. . فيقولون: خوطبنا من جهته، وهذا وإن كان موجوداً في المُخاطَب فمن المخاطِب له؟ فالفرقان هنا، فإنما ذلك المخاطَب من وسواس الشيطان والنفس» ا.هـ.

ي ـ اللوح المحفوظ:

يدَّعي فريق من المتصوفة أنه بإمكان بعضهم الاطلاع علىٰ اللوح

---

(١) يعني أبا حامد الغزالي.

المحفوظ، وتلقي العلوم والمعارف منه مباشرة دون حاجة إلىٰ الرسل، وقد عرض الشيخ هذا الرأي وردَّ عليه، أثناء كلامه عن الفلاسفة ودعواهم تلقي العلم والمعرفة من النفس الفلكية، إلىٰ غير ذلك من التُّرَّهات.

فقال: «كما يوجد ذلك في كلام ابن عربي، وابن سبعين، والشاذلي، وغيرهم، يقولون: إن العارف قد يطلع علىٰ اللوح المحفوظ، وأنه يعلم أسماء مُريديه من اللوح المحفوظ، أو أنه يعلم كل وليّ كان ويكون للَّه من اللوح المحفوظ، ونحو هذه الدّعَاوَىٰ التي مضمونها أنهم يعلمون ما في اللوح المحفوظ، وهذا باطل مخالف لدين المسلمين وغيرهم من أتباع الرسل» ا.هـ.

ك ـ الخضر:

من تأمل في آراء الصوفية ومروياتهم، يجد أن شخصية الخضر حظيت لديهم، باعتناء بالغ، بحيث أصبح الأخذ عنه ولُقياه عندهم أمراً لا يقبل اللجاج، بل واستفاضت الأخبار، وتواترت عنهم بذلك.

وقد حكىٰ الشيخ هذا الأمر عنهم، وبين وجه خطئهم وضلالهم فيه.

فقال: «.. والجُهَّل الذين يُعلقون أمورهم بالمجهولات، كرجال الغيب، والقطب، والغوث، والخضر، .. فقد يرىٰ أحدهم بعض الجن فيظن أنه الخضر، ولا يخاطبه الجني، إلا بما يرىٰ أنه يقبله منه، ليربطه علىٰ ذلك» ا.هـ.

ل ـ الجنّ والشياطين:

تتلاعب الشياطين كثيراً بالصوفية، وتُخيّل لهم أشياء غير حقيقية وغير موجودة، وتوحي إليهم بوساوس يظنها جهّالهم من اللَّه،

وهي في الحقيقة من الجن والشياطين(١).

قال الشيخ أثناء كلامه عن تلاعب الجن بالصوفية: «.. وتخاطبهم الشياطين بأمر ونهي وكشف يظنونه من جهة اللَّه، وأن اللَّه هو أمرهم ونهاهم، وأنه حصل لهم من المكاشفة ما حصل لأولياء اللَّه المتقين، ويكون ذلك كله من الشياطين، وهم لا يُفرّقون بين الأحوال الرحمانية والشيطانية» ا.هـ.

يتبين لنا مما سبق أن ما وقع فيه الصوفية من ضلال هو بسبب عدم توحيد مصدر التلقي باعتماد الوحيين مصدراً للتلقي دون أن يزاحمهما ذوق ولا وجد ولا إلهام، ويتبين لنا أيضاً أن ما يُذكره بعض الصوفية عن مشايخهم ـ من أنهم يَزِنُون ما يرد علىٰ قلوبهم بميزان الكتاب والسنة فما وافق الكتاب والسنة قبلوه وما خالفهما ردوه ـ هو كلام يتكلمون به دون أن يكون له أثر في الواقع، بل معايير الكثيرين منهم في الموافقة والمخالفة تختلف عن معايير أهل السنة والجماعة.

ومما زادهم ضلالاً أنهم جعلوا هذه المصادر التي اعتمدوها من الذوق والوجد والإلهام.. الخ، قطعية الدلالة، وما خالفها أوّلوه أو حرفوه أو ردوه، ألا تراهم يحتجون بالأحاديث وإن كانت ضعيفة وموضوعة لأنها توافق ذوقهم ووجدهم، ويتغافلون عن الأحاديث

---

(١) وقد اعترف ابن عربي بأن «الشيطان لا يزال مراقباً لِحال المريدين والمكاشفين، فيَّخيل لهم أموراً لا حقيقة لها، ويُمثل لهم صور السماوات، أو الملائكة، أو سدرة المنتهىٰ، أو العرش، ويُجلّي لهم غير ذلك من الصور، بغرض التلبيس عليهم» ا. هـ. الفتوحات المكية (٢/٦٢٢ ـ ٦٢٣).

الصحيحة الثابتة التي تبطل ما هم عليه[١].



(١) للتوسع في موضوع: مصادر التلقي عند الصوفية، يمكن مراجعة رسالة علمية بعنوان: «المصادر العامة للتلقي عند الصوفية ـ عرضاً ونقداً «تأليف: صادق سليم صادق، بين هذه المصادر، وتقع رسالته في (٧٤٤ صفحة).

الباب الثاني

مصادر شيخ الإسلام، ومنهجه في عرض آراء الفرق الإسلامية ومناقشتها

* وفيه فصلان:

الفصل الأول: مصادره في عرض آراء الفرق:

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: كتب الفرقة نفسها

المبحث الثاني: مصادر مباشرة

الفصل الثاني: منهجه في عرض آراء الفرق، ومناقشتها، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: منهجه في عرض الآراء

المبحث الثاني: منهجه في عرض أدلة الفرقة

المبحث الثالث: منهجه في الرد علىٰ أدلتها ومناقشتها

المبحث الرابع: منهجه في إيراد عباراتهم والحكم عليها

الفصل الأول: مصادره في عرض آراء الفرق

المبحث الأول

كتب الفرق نفسها

تميز شيخ الإسلام بالدِّقة والأمانة عند حكاية الآراء والمذاهب، وسعة المعرفة بها، فلا تجده يحكي مذهباً، أو ينسب قولاً إلىٰ أحد، إلا وقد أحاط علماً بدقائقه ولوازمه.

ويدل علىٰ ذلك قوله في معرض حكايته لمذهب الاتحادية: «. . وهؤلاء الاتحادية وأمثالهم إنما أُتوا من قِلة العلم والإيمان. . **وقد رأيت منهم ومن كتبهم، وسمعت منهم، ومِمن يُخبر عنهم من ذلك ما شاء اللَّه**» ا.هـ.

وقال في موضع آخر في معرض حكايته لمذهب ابن عربي[(١)]: «. . ولهذا يقول: إن قلت عبد فذاك ميت، وفي موضع آخر ـ رأيته بخطه ـ: إن قلت عبد فذاك نفي» ا.هـ.

ومن المعلوم أن العصر الذي عاش فيه الشيخ، لم يكن الحصول فيه علىٰ الكتب أو امتلاكها أمراً سهلاً، ومع ذلك نجد أن الشيخ يرجع

---

(١) هو محيي الدين محمد بن علي بن محمد الحاتمي الطائي الأندلسي، المعروف بابن عربي، والملقب عند الصوفية بالشيخ الأكبر، فيلسوف صوفي من أئمة المتكلمين، ولد بمرسية سنة: ٥٦٠، ثم رحلت أسرته إلىٰ أشبيلية، وفيها أخذ عن ابن بشكوال، وأبي بكر محمد بن خلف الإشبيلي، وأبي الحسن الرعيني، وابن زرقون، وغيرهم من أقطاب التصوف، ثم تنقل ابن عربي بين البلدان في الغرب والشرق حتىٰ استقرَّ في دمشق وفيها توفي سنة: ٦٣٨.

في حكايته للأقوال إلىٰ كتب كثيرة ومتنوّعة، منها ما هو لأصحاب المذهب أنفسهم، ومنها ما هو لخصومهم الذين ردّوا عليهم.

وقد وجدت باستقراء ما وقفت عليه من مصنفات الشيخ أن كتب الصوفية التي رجع إليها في حكاية مذهبهم بلغت ثلاثة وأربعين كتاباً، وهي: طبقات الصوفية، حقائق التفسير، محنة الصوفية كلها لأبي عبد الرحمن السلمي(١)، الرسالة القشيرية لأبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري(٢)، منازل السائرين، لأبي إسماعيل الهروي(٣)، التعرف لمذهب التصوف، لأبي بكر الكلاباذي(٤)، ختم الولاية، لأبي عبد اللّه محمد بن علي الحكيم الترمذي(٥)، قصيدة

---

(١) هو محمد بن الحسين بن محمد بن موسىٰ الأزدي، أبو عبد الرحمن، السلمي الأُمِّ، الحافظ المحدث، شيخ خراسان وكبير الصوفية، وصاحب تصانيفهم، منها التفسير وطبقات الصوفية، وغيرهما، توفي سنة: ٤١٢.

(٢) هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد القشيري الشافعي، الصوفي المفسر، ولد سنة: ٣٧٥، ، سمع الحديث وتفقه، وهو من رؤوس المتصوفة وله فيهم تصانيف، منها: الرسالة في التصوف تكلم فيها عن رجال التصوف وأخلاقهم وترجم لكثير منهم، ولطائف الإشارات، توفي سنة: ٤٦٥.

(٣) هو عبد اللّه بن محمد بن علي الهروي الأنصاري، أبو إسماعيل، كان يُدعىٰ شيخ الإسلام، وكان إمام أهل السنة في هراة، ويُسمىٰ خطيب العجم لتبحّر علمه وفصاحته ونبله، له تصانيف منها: ذم الكلام، ومنازل السائرين، وعلل المقامات، توفي سنة: ٤٨١.

(٤) هو محمد بن إسحاق (ويُقال: بن إبراهيم) الكلاباذي البخاري، أبو بكر، مُحدّث صوفي، له تصانيف منها: كتاب: بحر الفوائد، ويُعرف بمعاني الآثار، وأشهر كتبه: التعرف لمذهب أهل التصوف، توفي سنة: ٣٨٠.

(٥) هو محمد بن علي الترمذي، المشهور بالحكيم الترمذي، أصله من ترمذ لكن أهلها نفوه منها وحكموا عليه بالكفر بسبب كتابه: ختم الولاية، =

نظم السلوك، لابن الفارض[١]، فصوص الحكم، الفتوحات المكية، الإسرا إلىٰ المقام الأسرىٰ، التجليات، عنقاء مغرب، كلها لمحيي الدين ابن عربي، شرح أسماء اللَّه الحسنىٰ، ديوان التلمساني، لسليمان بن علي التلمساني، العفيف التلمساني[٢]، إحياء علوم الدين، منهاج القاصدين، مشكاة الأنوار، جواهر القرآن، المضنون به علىٰ غير أهله، كلها لأبي حامد الغزالي، الغنية لطالبي طريق الحق، فتوح الغيب، لعبد القادر الجيلاني[٣]، عوارف المعارف لأبي حفص عمر بن محمد السهروردي[٤]، قوت القلوب في معاملة

= له تصانيف في الحديث منها: نوادر الأصول في أحاديث الرسول، اختلف في تاريخ وفاته، فقيل سنة: ٢٨٥، وقيل: ٣٢٠، وقيل غير ذلك.

(١) هو عمر بن علي بن مرشد بن علي، المشهور بابن الفارض، الحموي الأصل، المصري الدار والمنشأ والوفاة، ولد سنة: ٥٦٦ وقيل ٥٧٦، واشتهر بابن الفارض لأن أباه سكن مصر فكان يثبت الفروض للنساء علىٰ الرجال فلقب بالفارض، وابن الفارض من غلاة الصوفية بل من ملحديهم القائلين بالحلول والاتحاد، توفي سنة: ٦٣٢.

(٢) هو سليمان بن علي بن عبد اللَّه بن علي الكومي التلمساني، المشهور بعفيف الدين، صوفي شاعر، ولد سنة: ٦١٠، له عظائم في الحلول والاتحاد، من كتبه: شرح الفصوص لابن عربي، وشرح منازل السائرين للهروي، وشرح القصيدة العينية لابن سينا، توفي بدمشق سنة: ٦٩٠.

(٣) هو محيي الدين أبو محمد، عبد القادر بن أبي صالح عبد اللَّه بن جنكي دوست الجيلي أو الجيلاني أو الكيلاني، ولد بجيلان سنة: ٤٧١، نسبه بعض أتباعه للحسن بن علي بن أبي طالب، وقيل يُنسب إلىٰ قبيلة من العجم، كان كبير الشأن، وعليه مآخذ في بعض أقواله ودعاواه بعضها مكذوب عليه، إليه تنتسب الطائفة القادرية، له مصنفات منها: الغنية لطالب الحق، الفيوضات الربانية، توفي ببغداد سنة: ٥٦١.

(٤) هو شهاب الدين عمر بن محمد بن عبد اللَّه القرشي السهروردي، ولد =

المحبوب، لأبي طالب محمد بن علي المكي[(١)]، ذم الكلام، لأبي إسماعيل الهروي، وصية معمر بن أحمد لأصحابه، لمعمر بن أحمد الأصبهاني[(٢)]، خلع النعلين في الوصول إلىٰ حضرة الجمعين، لأحمد ابن الحسين بن قسي[(٣)]، فك الأزرار عن أعناق الأسرار، المؤلف: لم يذكر شيخُ الإسلام اسمَه[(٤)]، طبقات النساك، لأبي سعيد بن الأعرابي[(٥)]، آداب المريدين والتعرف لأحوال العباد، لعمرو بن

= سنة: ٥٣٩، من كبار الصوفية، وكان شيخ شيوخ بغداد، وصحِب قليلاً الشيخ: عبد القادر، وسمِع من هبة اللّه الشبلي، قال الذهبي عنه: الزاهد العارف المحدث شيخ الإسلام أوْحد الصوفية، توفي سنة: ٦٣٢.

(١) هو أبو طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي، صوفي نشأ واشتهر بمكة، له تصانيف في التصوف، منها كتاب: قوت القلوب، في التصوف، قال عنه الخطيب البغدادي: ذكر فيه أشياء مستشنعة في الصفات، توفي سنة: ٣٨٦.

(٢) هو معمر بن أحمد بن محمد بن زياد الأصفهاني، أبو منصور، كان كبير الصوفية في أصفهان، إمام جليل القدر، روىٰ عن الطبراني وغيره، توفي سنة: ٤١٨.

(٣) هو أحمد بن قسي الأندلسي، صوفي، نقل الشعراني في «الجواهر والدرر» عن شيخه الخواص: أن ابن قسي كان يقول: إن الأولياء لهم الاطلاع علىٰ علوم الأنبياء بغير واسطة من طريق الكشف لا الذوق! توفي ابن قسي سنة: ٥٤٥.

(٤) بحثت عنه فيما وقفت عليه من الكتب المصنفة في أسماء الكتب، ولم أعثر عليه.

(٥) هو أحمد بن محمد بن زياد بن بشر بن درهم العَنَزي، المشهور بأبي سعيد بن الأعرابي، بصريُّ الأصل، سكن مكة وكان شيخ الحرم في وقته، له في علم الصوفية تصانيف كطبقات النّسّاك وغيره، صحِب الجنيد، وعمرو بن عثمان المكي، وغيرهما، توفي سنة: ٣٤١.

عثمان المكي(١)، فهم القرآن، للحارث المحاسبي، مفتاح غيب الجمع والوجود، للصدر الرومي محمد بن إسحاق القونوي(٢)، رسائل ابن سبعين (الألواح)، لعبد الحق بن إبراهيم ابن سبعين(٣)، اعتقاد التوحيد بإثبات الأسماء والصفات، لأبي عبد اللَّه محمد بن خفيف الشيرازي(٤)، مقامات العارفين، لابن سينا، أخبار شيوخ أهل المعرفة والتصوف، لمعمر بن زياد الأصبهاني(٥)، حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصبهاني(٦)، محاسن المجالس، لأبي العباس بن

---

(١) هو عمرو بن عثمان بن كُرَب بن غُصَص المكي، أبو عبد اللَّه، ينتسب إلىٰ الجنيد في الصحبة، وصحِب أبا سعيد الخراز وغيره، له كلام حسن في التصوف، توفي ببغداد سنة: ٢٩١.

(٢) هو صدر الدين محمد بن إسحاق بن محمد بن يوسف بن علي القونوي الرومي، من غلاة الصوفية والقائلين بوحدة الوجود، ومن أصحاب محيي بن عربي، توفي سنة: ٦٧٣، وقيل ٦٧٢.

(٣) هو عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن محمد بن سبعين الإشبيلي الرقوطي، وُلد في رقوطة بالأندلس سنة: ٦١٣، من رؤوس القائلين بالحلول والاتحاد، توفي سنة: ٦٨٨.

(٤) هو محمد بن خفيف بن اسفكشار الضبِّي الفارسي الشيرازي، أبو عبد اللَّه، من خيار المشايخ، ولد سنة: ٢٦٨، وتفقه علىٰ أبي العباس بن سُرَيج، له تصانيف في السنة انتفع بها الناس، منها الوصية، والعقيدة أو المعتقد، وغيرهما، توفي سنة: ٣٧١.

(٥) هو معمر بن أحمد بن محمد بن زياد أبو منصور الأصبهاني، الزاهد شيخ الصوفية في زمانه بأصبهان، صحب أبا الحسن الواحدي (صاحب أسباب النزول)، وروىٰ عن الطبراني وأبي شيخ، ومات في رمضان سنة: ٤١٨.

(٦) هو أحمد بن عبد اللَّه بن أحمد بن إسحاق بن موسىٰ بن مهران الأصبهاني، أبو نعيم، الصوفي الشافعي الحافظ، ولد سنة: ٣٣٦، تفرد في الدنيا بعلو الإسناد مع الحفظ والاستبحار من الحديث وفنونه، =

العريف[1]، علل المقامات، لم يذكر شيخُ الإسلام اسمَ المؤلف، صفة التصوف، لمحمد بن طاهر المقدسي (أبو جعفر الهمذاني)، مسألة السماع، لمحمد بن طاهر المقدسي (أبو جعفر الهمذاني)، السر المكتوم في مخاطبة الشمس والقمر النجوم، وهو مصنف في جواز عبادة الأصنام، للرازي[2]، حِزب الشاذلي، لأبي الحسن الشاذلي[3].

والمتأمل فيما مضىٰ من كتب الصوفية، يتبين له دقة الشيخ، وحرصه علىٰ استخراج أقوال الفرق من كتب أصحابها، وهذا العرض الذي عرضه الشيخ بنقله عن هذه الكتب يُعد تقويماً لهذه الكتب مدحاً أو ذماً.

= وصنف التصانيف المشهورة منها: حلية الأولياء، توفي سنة: ٤٣٠.

(١) هو أحمد بن محمد بن موسىٰ الصنهاجي الأندلسي، أبو العباس بن العريف، الصوفي الزاهد، كان الزهاد والعباد يقصدونه، قال الذهبي: «لما كثر أتباعه توهم السلطان، وخاف أن يخرج عليه، فطلبه فأحضر إلىٰ مراكش فتوفي في الطريق قبل أن يصل وكان من أهل المرية» ا. هـ، وهو القائل: «كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقين «توفي سنة ٦٣٥ وله ٧٨ سنة.

(٢) لم يذكر الشيخ اسم هذا الرازي كاملاً، لكن المشهور أن الرازي صاحب كتاب السر المكتوم هو: فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين التيمي البكري الرازي، ويُعرف بابن خطيب الري، من أئمة الأشاعرة الذين مزجوا المذهب الأشعري بالفلسفة والاعتزال، ردّ عليه شيخ الإسلام في نقض التأسيس والدرء وغيرهما، قال الذهبي عنه: «وقد بدت في تواليفه بلايا وعظائم وسحر وانحرافات عن السنة، واللَّه يعفو عنه فإنه توفي علىٰ طريقة مرضية» ا. هـ، وُلد سنة: ٥٤٤، وتوفي سنة: ٦٠٦..

(٣) هو علي بن محمد بن عبد اللَّه الشاذلي، الضرير، صوفي فقيه شاعر، تنسب إليه الطريقة الشاذلية، التي تشعبت منها طرق كثيرة مثل: الوفائية، والزروقية، والبكرية، والجزولية، قصد الحج فمات في الصحراء سنة: ٦٥٦، له مصنفات في التصوف، وفروع الفقه المالكي.

المبحث الثاني

مصادر مباشرة

كذلك مما رجع إليه الشيخ في حكاية مذهب الصوفية الكتب المصنفة في الاعتقاد والحديث وغيرها، فهو يحرص علىٰ الإحاطة بما يتكلم عنه، ونقل ما وقف عليه من معلومات سواء كانت في مظانها من كتب الصوفية وكتب المقالات التي نقلت عنهم وحكت مذهبهم، أو في غير مظانها ككتب الاعتقاد والحديث، وغيرها.

وهناك مصادر مباشرة: حيث يتميز بسعة معرفته بالمذاهب وأقوال أصحابها، ومما يزيده علماً وإتقاناً لمذاهبهم كثرةُ مخالطته للناس عموماً مما أدىٰ إلىٰ رؤيته لتأثير البدعة وانتشارها، وكذلك كثرة مناظراته لأهل البدع، ومناصحتهم، إضافة إلىٰ ما حباه اللَّه من بسطة في العلم جعلت طوائف من أهل البدع يحسدونه عليه فيتهمونه ويخاصمونه إلىٰ السلاطين؛ فيناقشهم ويسمع مذهبهم من أفواههم مباشرة.

ويمكن تصنيف مصادرِ الشيخ المباشرةِ في حكاية أقوال أهل التصوف فيما يلي:

أ ـ ما عرفه الشيخ عنهم ورآه من أحوالهم أثناء مخالطته لهم:

قال أثناء كلامه عن السماع البدعي عند الصوفية: «وكنتُ في أوائل عمري حضرتُ مع جماعة من أهل الزهد والعبادة والإرادة، فكانوا مِن خيار أهل هذه الطبقة، فبتنا في مكان وأرادوا أن يقيموا سماعاً وأن أحضر معهم، فامتنعتُ من ذلك، فجعلوا لي مكاناً مُنفرداً قعدتُ فيه، فلما سمعوا وحصل لهم الوجد والحال صار الشيخ الكبير

يهتف بي في حال وِجْده ويقول: يا فلان! قد جاءك نصيب عظيم، تعال خُذ نصيبك، فقلتُ في نفسي ثم أظهرته لهم لما اجتمعنا: أنتم في حِلّ من هذا النصيب، فكلّ نصيب لا يأتي عن طريق محمد بن عبد اللّٰه ﷺ فإني لا آكل منه شيئاً، وتبين لبعض من فيهم ممن له معرفة وعلم أنه كان معهم الشياطين، وكان فيهم مَن هو سكران بالخمر» ا. هـ.

ب ـ ما سمعه الشيخ من أصحاب المذهب أنفسهم، ومن ذلك:

ـ ما ذكره عند كلامه عن ابتداعهم للذكر المفرد: اللّٰه.. اللّٰه.. هو.. هو.. ، فقال: «وأبلغ من ذلك من يقول ليس مقصودنا إلا جمع النفس بأي شيء كان، حتىٰ يقول: لا فرق بين قولك: يا حي! وقولك: يا جحش! **وهذا مما قاله لي شخص منهم** وأنكرت ذلك عليه» ا. هـ.

ـ قوله أثناء كلامه عن غلو فريق من الصوفية في الكرامة والولاية: «وصرح بعضهم: بأنه يعلم كل ما يعلمه اللّٰه،.. **خاطبني بذلك من هو من أكابر أصحابهم،.. وحدثني الثقة من أعيانهم**، أنهم يقولون: إن محمداً هو اللّٰه..» ا. هـ.

ـ لما تكلم الشيخ عن الحلولية ذكر ما عليه رؤوسهم من الضلال ثم قال عن التلمساني: «وحدثني الثقة أنه قرأ عليه، فصوص الحكم،.. قال: فقلت له: هذا الكلام يخالف القرآن، فقال: القرآن كله شرك.. **وحدثني من كان معه ومع آخر نظير له** فمرا علىٰ كلب أجرب، فقال له رفيقه: هذا أيضاً هو ذات اللّٰه؟ فقال: وهل ثم شيء خارج عنها؟» ا. هـ

ج ـ ما سمعه الشيخ ممن كان معهم ثم تبين له ضلالهم وتاب، ومن ذلك:

ـ ما ذكره أثناء كلامه علىٰ الحلولية أيضاً، فقال: «وحدثني الشيخ

عبد السيد الذي كان قاضي اليهود ثم أسلم.. أنه كان يجتمع بشيخ منهم يقال له الشرف البلاسي، يطلب منه المعرفة والعلم، قال: فدعاني إلىٰ هذا المذهب، فقلت له: قولكم يشبه قول فرعون،.. وكان عبد السيد إذ ذاك قد ذاكرني بهذا المذهب» ا.هـ.

د ـ ما سمعه الشيخ منهم أثناء مناظراته معهم، ومن ذلك:

ـ وقوله: «.. وهم لا يطلقون علىٰ المخلوقات اسم الغير **وقد سمعت هذا التناقض من مشايخهم** فإنهم في ضلال مبين» ا. هـ.

ـ وقوله: «.. وهذا يقوله كثير من شيوخ هؤلاء الاتحادية، حتىٰ إن أحدهم إذا أمر بقتال العدو يقول: أقاتل اللَّه؟ ما أقدر أقاتل اللَّه، ونحو هذا الكلام الذي **سمعناه من شيوخهم**، وبيّنا فساده لهم وضلالهم فيه غير مرة» ا.هـ.

هـ ـ ما سمعه الشيخ من بعض علماء أهل السنة الذين ناظروهم، ومن ذلك:

قوله أثناء كلامه عن الحلولية: «.. حتىٰ حدثني بعض عن كثير من كبرائهم أنهم يعترفون، ويقولون نحن علىٰ قول فرعون» ا.هـ.

وبما تقدم من مصادر سواء من كتب الصوفية أو كتب غيرهم، أو المصادر المباشرة، يتبين لنا تميز شيخ الإسلام في حكاية مذهب الصوفية؛ إذ أن كثيراً من المصنفين في العقائد والمقالات ينقل بعضهم عن بعض، ومن كان منهم حريصاً مجتهداً نقل عن كتب أصحاب الفرق التي يشرح مذهبها، وأكثر هؤلاء المصنفين يكتفي بعرض المذاهب دون أن يردّ عليها، أما شيخ الإسلام فيجمع ذلك كله ويضيف إليه مصادره المباشرة، ثم يردّ علىٰ هذه الأقوال ويفندها ويذكر ما وافق منها الحقّ وما خالف.

وبالتأمل فيما مضىٰ من مصادر يتبين لنا أن شيخ الإسلام شديد الدِّقة في حكاية مذاهب المخالفين من المتصوفة وغيرهم، بل والحكم عليهم من خلال ما يحكونه هم عن أنفسهم، والرد عليهم وتفنيد آرائهم.

لذا نجد أن الشيخ لا يكتفي بمصدر واحد في التعرف علىٰ المذهب والرد عليه، وإنما يقرن عدداً من المصادر بعضها ببعض حتىٰ لا يبقىٰ عند المسترشد أدنىٰ شك في نسبة هذا المذهب إلىٰ من نسبه الشيخ إليه.



الفصل الثاني: منهجه في عرض آراء الفرق ومناقشتها

المبحث الأول

منهجه في عرض الآراء

يتميز منهج شيخ الإسلام في التعامل مع آراء الخصوم بميزات عديدة تدلّ علىٰ جمعه بين العلم الدقيق بأحوالهم وأقوالهم، والعدل والإنصاف في التعامل معهم والحكم عليهم.

ويمكن إجمال منهج الشيخ في النقاط التالية:

✍ أولاً: توثيق الآراء عند نقلها:

يحرص علىٰ استخراج آراء الصوفية من المصادر الموثوقة عندهم، ولا يكاد يذكر رأياً من آراء الصوفية إلا ويذكر معه اسم المصدر الّذي نقل منه الرأي، كتاباً كان المصدر، أو عَلَماً من أعلامهم، أو غير ذلك.

✍ ثانياً: يستشهد في تقرير الآراء بنصوص الشيوخ المعتبرين عندهم، ليثبت قوة الرأي، وظهوره عندهم، ومن ذلك:

- لما تكلم عن دعوىٰ الحلولية استغناءهم عن الشرع بما يلقىٰ في قلوبهم، استشهد بكلام رأس من رؤوسهم المعتبرين وهو التلمساني.

فقال: «.. وإذا ادعيت أنه حصل لك في الكشف ما يناقض صريح العقل علم أنك غالط، كما قال شيخ هؤلاء الملاحدة: التلمساني: يا صاحبي أنت تنهاني وتأمرني..» ا.هـ.

- واستشهد أيضاً بقول ابن الفارض في قصيدة «نظم السلوك».

فقال: «وهؤلاء لهم شعر نظموا قصائد علىٰ مذهبهم، كابن الفارض، حيث يقول:..» ا.هـ.

✍ ثالثاً: سعة معرفة الشيخ بأقوالهم، حيث يستشهد في المسألة الواحدة بأقوال عدد منهم.

ومن ذلك: عرض مذهب الصوفية في السماع، وردّ عليهم، ثم استشهد بأقوال ما يزيد علىٰ عشرة من مشايخ المتصوفة، في الحثِّ علىٰ لزوم هدي الكتاب والسنة.

✍ رابعاً: الدقة في نسبة الآراء والأقوال إلى أصحابها.

ومن ذلك: ذكر مذاهب الصوفية في رؤية اللَّه تعالىٰ، **ثم قال**: «. . وهؤلاء منهم من يقول: إن موسىٰ رآه، وإن الجبل كان حجابه، فلما جعل الجبل دكاً رآه. **وهذا يوجد في كلام أبي طالب** ونحوه» ا.هـ.

ـ ذكر شيئاً من ضلالات الاتحادية **ثم قال**: «ويقولون إن فرعون كان صادقاً في قوله: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات]. **وهذا قول طائفة من ملاحدة المتصوفة المتفلسفة الاتحادية: كالتلمساني، والقول بالاتحاد العام المسمىٰ: وحدة الوجود، هو قول ابن عربي الطائي وصاحبه القونوي وابن سبعين وابن الفارض وأمثالهم، لكن لهم في المعاد والجزاء** نزاع، كما أن لهم نزاعاً في الوجود هل هو شيء غير الذوات أم لا؟ وهؤلاء ضلوا من وجوه» ا.هـ.

✍ خامساً: البعد عن التعميم عند حكاية الرأي، والحكم عليه.

ومن ذلك: تكلم عن تعلق الصوفية بالمردان ورأيهم في ذلك، وقولهم إن هذا التعلق يورث النفس صفاءً وشفافية، ثم خشي أن يظن القارئ أن هذا مذهب عامة الصوفية.

فقال: «. . وهذا الباب من أعظم أبواب اتباع الهوىٰ. . ومَن أَمَرَ بعشق الصور من المتفلسفة. . أو من جهال المتصوفة: فإنهم في ضلال

وغي، . . والصوفية المشهورون الذين لهم لسان صدق في الأمة لم يكونوا يستحبون مثل هذا؛ بل ينهون عنه، . . وإنما استحسنه من تشبه بهم ممن هو عاص أو فاسق أو كافر، فتظاهر بدعوىٰ الولاية للَّه وتحقيق الإيمان والعرفان وهو من شر أهل العداوة للَّه وأهل النفاق والبهتان» ا. هـ.

✍ سادساً: يعرض الشيخ ـ أحياناً ـ رأي الشخص المعين منهم بالإسناد، ومن ذلك:

ـ تكلم عن التلمساني وضلاله، **ثم قال**: قد ذهب إلىٰ النصيرية وصنف لهم كتاباً وهم يعظمونه جداً، وحدثني نقيب الأشراف عنه أنه قال: قلت له: أنت نصيري؟ قال: نصير جزء مني» ا. هـ.

✍ سابعاً: يورد الرأي أحياناً بصيغة التمريض، ومن ذلك:

تكلم عن ابتداع الصوفية الذكر بـ«اللَّه. . اللَّه. . »، **ثم قال**: «وربما اتبعوا فيه حال شيخ مغلوب عليه، **مثلما يروىٰ عن الشبلي**(١) **أنه كان يقول**: **اللَّه. . اللَّه**. . فقيل له: لم لا تقول لا إله إلا اللَّه؟ فقال: أخاف أن أموت بين النفي والإثبات. . » ا. هـ.

وقال: «وهذا قد يقوله كثير من الصوفية، **وأظنه مأثوراً عن الجنيد**(٢): سلبُ العبدِ الفعل، نظراً إلىٰ الحقيقة» ا. هـ.

---

(١) هو دلف بن جحدر، وقيل ابن جعفر الشبلي، أصله من قرية شبلية وراء سمرقند، كنيته: أبو بكر، كان حاجباً للموفق، ثم عُزل، فصحِب الجُنيد وتصوف، وتفقه علىٰ مذهب مالك، كان له شطحات وتجاوزات، لا يُقتدىٰ به فيها، توفي سنة: ٣٣٤.

(٢) هو الجنيد بن محمد بن الجنيد، أبو القاسم البغدادي الخراز، أصل أبيه من نهاوند، يثني عليه شيخ الإسلام كثيراً، ويصفه بسيد الطائفة، =

ثامناً: سعة معرفته بالفروق الدقيقة بين الأقوال المتشابهة لأصحاب المذهب الواحد.

ومن ذلك: ذكر أثناء كلامه عن الاتحادية أصلين قام عليهما مذهبهم، ثم قال بعد ذكره للأصل الأول: «.. وهذا القول.. أن المعدوم شيء ثابت في نفسه، خارج عن علم اللّه تعالىٰ.. ابتدع في الإسلام من نحو أربعمائة سنة وابن عربي وافق أصحابه..، والأصل الثاني: أن وجود المحدثات المخلوقات هو عين وجود الخالق ليس غيره ولا سواه، وهذا هو الذي ابتدعه وانفرد به عن جميع من تقدمه من المشايخ والعلماء، وهو قول بقية الاتحادية، لكن ابن عربي أقربهم إلىٰ الإسلام.. فإنه يفرق بين الظاهر والمظاهر، فيقر بالأمر والنهي.. وأما صاحبه الصدر الرومي.. فحقيقة قوله: إنه ليس للّه سبحانه وجود أصلاً.. وأما الفاجر التلمساني فهو أخبث القوم وأعمقهم كفراً، فإنه لا يفرق بين الوجود والثبوت كما يفرق ابن عربي، ولا يفرق بين المطلق والمعين كما يفرق الرومي،.. وأما ابن سبعين فإنه في البدوّ والإحاطة يقول أيضاً بوحدة الوجود، وأنه ما ثم غير، وكذلك ابن الفارض في آخر نظم السلوك، لكن لم يصرح هل يقول بمثل قول التلمساني، أو قول الرومي، أو قول ابن عربي؟ وهو إلىٰ كلام التلمساني أقرب» ا.هـ.

تاسعاً: حرصه عند ذكر بعض الآراء التي عليها مآخذ على الاعتذار عن أصحابها، إذا كان لهم حسنات تحسن الظن بهم.

ومن ذلك: تكلم عن موقف شيوخ الصوفية من السماع، ثم ذكر

= وإمام الصوفية، ومن أئمة الطريق، ونحو ذلك، كان يضبط مذهبه في التصوف بما جاء في الكتاب والسنة، وينكر علىٰ الصوفية ما يقعون فيه من بدع ومحدثات، توفي ببغداد سنة: ٢٧٩ وقيل ٢٩٨.

استدلال بعضهم بمدح ذي النون للسماع، فقال معتذراً له: «.. فإن كان هذا الكلام ثابتاً عن ذي النون رَحِمَهُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ.. **فيكون ذو النون**[١] **هو أحد الذين حضروا التغبير**[٢] **الذي أنكره الأئمة وشيوخ السلف، ويكون هو أحد المتأولين في ذلك**، وقوله فيه كقول شيوخ الكوفة وعلمائها في النبيذ الذين استحلوه» ا.هـ.

ـ وتكلم عن الذكر بـ«اللَّه.. اللَّه»، وما روي عن الشبلي أنه كان يذكر اللَّه بمثل ذلك، **ثم قال معتذراً للشبلي**: «وهذه من زلات الشبلي التي تغفر له لصدق إيمانه، وقوة وجده، وغلبة الحال عليه، فإنه كان ربما يجن ويذهب به إلىٰ المارستان، ويحلق لحيته، وله أشياء من هذا النمط التي لا يجوز الاقتداء به فيها، وإن كان معذوراً أو مأجوراً» ا.هـ.

✍ عاشراً: عدلُ الشيخ في التعامل مع آراء مشايخ الصوفية، بحيث إن الشخص الواحد منهم يكون له آراء ينتقدها الشيخ ويفندها، ومع ذلك يستدل الشيخ ببعض آرائه الصائبة في مواضيع لا تتعلق بالتصوف، فيأخذ حقهم، ويترك باطلهم، ومن ذلك:

ـ تكلم في مسألة حول الطهارة، واستطرد بذكر مسألة اتقاء الشبهات، **ثم قال**: «.. إنما يقتضي اتقاء الشبهات التي يشتبه فيها الحلال بالحرام، بخلاف ما إذا اشتبه الواجب أو المستحب بالمحظور،

---

(١) هو ثوبان بن إبراهيم الإخميمي المصري، أبو الفيض، المشهور بذي النون، أحد أعلام الصوفية، نَوْبي الأصل، من الموالي، كان حكيماً فصيحاً، قيل: سئل عن سبب توبته؟ فذكر: أنه رأىٰ قُبّرة عمياء نزلت من وكرها، فانشقت لها الأرض فأكلت وشربت، توفي سنة: ٢٤٥.

(٢) التغبير: هو سماع القصائد الملحّنة والضرب عليها بالدف.

وقد ذكر ذلك أبو طالب المكي . . » ا.هـ.

ـ **وقال:** « . . وإذا كان وجل القلب من ذِكره يتضمن خشيته ومخافته؛ فذلك يدعوا صاحبه إلىٰ فعل المأمور، وترك المحظور، **قال سهل بن عبد اللَّه**(١): ليس بين العبد وبين اللَّه حجاب أغلظ من الدعوىٰ، ولا طريق إليه أقرب من الافتقار، وأصل كلّ خير في الدنيا والآخرة الخوف من اللَّه، . . » ا.هـ.

✍ حادي عشر: من عدل الشيخ أنه لا يكتفي بسياق آراء مبتدعة الصوفية الذين خالفوا في آرائهم أهل السنة، وإنما يذكر أيضاً آراء صالحي الصوفية ومعتدليهم الذين وافقوا أهل السنة، ليبين أن الصوفية ليسوا كلهم على ضلال، ومن ذلك:

ـ لما تكلم عن السماع لم يكتف بسياق رأي المؤيدين له من الصوفية، بل ساق رأي الذامين له المعرضين عن أهله، كالجنيد، والجيلاني رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ، وتكلم عن افتتان فريق من الصوفية بالأحوال المبتدعة التي تصيبهم أثناء السماع وغيره.

ثم قال: «ولهذا كان مشايخ الصوفية العارفون أهل الاستقامة يوصون كثيراً بمتابعة العلم ومتابعة الشرع، . . وقال أبو عثمان النيسابوري(٢): من أمر السنة علىٰ نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة،

---

(١) هو سهل بن عبد اللَّه بن يونس التستري، من أئمة الصوفية، ولد بتستر سنة: ٢٠٠، لقي ذا النون المصري من كلام سهل الحسن قوله: أمس قد مات واليوم في النزع وغد لم يولد، له مصنفات منها: تفسير القرآن ورقائق المحبين ومواعظ العارفين توفي بالبصرة سنة: ٢٨٣، وله من العمر: ٨٠ سنة.

(٢) هو سعيد بن إسماعيل الحيري النيسابوري، أبو عثمان، أصله من الري، من كبار مشايخ الصوفية وهو الذي نشر المذهب في نيسابور، صحِب =

ومن أمر الهوىٰ علىٰ نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة، لأن اللَّه تعالىٰ يقول: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْ﴾ [النور: ٥٤]» ا. هـ.

ـ ولما تكلم عن الذوق عند الصوفية واعتماد فريق منهم عليه في التلقي، رد عليهم ذلك واستشهد بقول أبي سليمان الداراني.

فقال: «فإن الشيخ أبا سليمان من أَجِلاء المشايخ وساداتهم حتىٰ إنه قال: إنه لتمر بقلبي النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين: الكتاب والسنة» ا. هـ.

وبما سبق يتبين لنا عدل شيخ الإسلام في عرض آراء المتصوفة، وسلامة صدره للمسلمين ويتبين ذلك لنا عند النظر في حسن عبارته ومحاولته الاعتذار عنهم قدر المستطاع، وسوف يأتي في مباحث قادمة تفصيل منهج الشيخ في الحكم عليهم من خلال عباراتهم، أو من خلال ما كتبوه.



= يحي بن معاذ وشاه الكرماني، توفي بنيسابور سنة: ٢٩٨.

المبحث الثاني

منهجه في عرض أدلة الفرقة

للشيخ منهج متميز في التعامل مع أدلة الخصوم، في الإحاطة بها، وعرضها والرد عليها، ويمكن إجمال منهجه في عرض أدلة الصوفية في النقاط التالية:

✍ أولاً: الإحاطة بجميع ما استدلوا به، من آيات وأحاديث وآثار عن العلماء، أو أقوال المشايخ المعتبرين.

وهذا واضح من خلال النظر في منهج الشيخ في المناقشة والرد علىٰ المخالفين، وسيأتي تفصيل ذلك عند سياق استدلالات الصوفية علىٰ مسائل الحلول والاتحاد، وغير ذلك من المسائل التي حررها الشيخ، وحصر الأدلة عليها وفندها.

✍ ثانياً: الأغلب أنه يسمي المستدل إن كان واحداً، أو يسمي الكتاب الذي نقل منه الدليل والاستدلال.

ومن ذلك: قوله أثناء كلامه عن الفناء ومعناه عند الصوفية: «.. كقول بعضهم: ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق]، أي: أن رأىٰ ربه استغنىٰ، والمعنىٰ: إنه ليطغىٰ أن رأىٰ نفسه استغنىٰ.. وكقول بعضهم.. وقد أودع الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي (حقائق التفسير) من هذا قطعة» ا.هـ.

✍ ثالثاً: قد يورد الدليل دون أن يسمي المستدل.

ومن ذلك: قوله أثناء كلامه عن ابتداعهم للذكر بـ«اللَّه.. اللَّه»..: «.. وأغرب من هذا ما قاله لي مرة شخص من هؤلاء الغالطين: في قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]، قال:

المعنىٰ: وما يعلم تأويل «هو» أي اسم: هو، الذي يقال فيه: هو.. هو..» ا.هـ.

وبما تقدم في هذا المبحث يتبن أن الشيخ يحاول أن لا يدع شارداً ولا وارداً من أدلة الخصم، أو حججه وشبهاته إلا وعرضه عرضاً واضح العبارة سهل الفهم ليحذر القارئ المستفيد من الوقوع في شَرَكِ البدعة.

ثم إن الناظرَ المتأملَ فيما يخطه يراعُ شيخ الإسلام عند عرضه لأدلة الخصوم، يلحظ الأدب الجم الرفيع، فهو يقول: (احتج فلان بكذا.. واستدلّ بعضهم بكذا.. ويروي بعضهم كذا..) دون أن يكتب عبارة جارحة، فلا تجده يقول (احتج الفاجر.. أو: الزنديق.. أو: لعنه اللَّه.. الخ)، وهذا يدلّ علىٰ موضوعية الشيخ في عرض كلام الخصم وعدم إشغال طالب العلم ـ القارئ المستفيد ـ بالسب والشتم، وأيضاً فإن المقصود بالرد علىٰ الباطل هو إظهار خطأ هذا الباطل ليحذره الناس، وليس شرطاً أن يُسب قائلُ هذا الباطل ويُلعن، إلا إن احتاج الأمر إلىٰ ذلك.



المبحث الثالث

منهجه في الرد على أدلتها ومناقشتها

من أبرز ما يتميز به منهج الشيخ عند كلامه عن بدعة من البدع أنه لا يكتفي بعرض هذه البدعة وإيضاحها ثم يهمل الرد عليها، أو يردّ رداً مجملاً مقتضباً ـ كما يفعل بعض المصنفين في العقائد والمقالات، لا، بل يرد علىٰ أدلة الخصوم ويناقشهم، مع العدل في النظر إلىٰ آرائهم، والاعتدال والموضوعية في مناقشة أدلتهم والرد عليها، والبعد عن الانفعال عند الحكم عليهم وتفنيد آرائهم.

ويمكن إجمال منهج الشيخ في الرد علىٰ أدلة الصوفية، ومناقشتها في أمور:

أولاً: سلامة الصدر، وحسن الظن بهم، مع التماس الأعذار لهم.

ومن ذلك: تكلم الشيخ عن قول بعض الصوفية: إن الأوامر والنواهي هي للعوام دون الخواص، ثم ذكر استدلالهم **فقال:** «.. وربما تأولوا علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحِجر]، وجعلوا اليقين هو معرفة هذه الحقيقة، **وقول هؤلاء كفر صريح، وإن وقع فيه طوائف لم يعلموا أنه كفر**» ا.هـ.

ثانياً: يورد أحياناً عدة أدلة للخصم، ثم يرد عليها رداً واحداً، من وجوه.

ومن ذلك: تكلم عن كذب المبتدعة عموماً والصوفية خصوصاً علىٰ رسول اللّه ﷺ، واختلاقهم الأحاديث للانتصار لمذهبهم، ثم أورد عدداً من الأحاديث التي يستدل بها الصوفية علىٰ مشروعية

السماع البدعي، ورد عليها رداً واحداً من وجوه، **فقال**: «. . والأحاديث التي يروونها في استماع النبي ﷺ هو وأصحابه، وتواجده، وسقوط البردة عن ردائه، وتمزيقه الثوب، وأخذ جبريل لبعضه، وصعوده به إلىٰ السماء، وقتال أهل الصفة مع الكفار، واستماعهم لمناجاته ليلة الإسراء، والأحاديث المأثورة في نزول الرب إلىٰ الأرض يوم عرفة، وصبيحة مزدلفة، ورؤية النبي ﷺ له في الأرض بعيني رأسه، وأمثال هذه الأحاديث..**وكان من الدلائل علىٰ انتفاء هذه الأمور المكذوبة وغيرها، وجوه**:..» ا. هـ.

✍ **ثالثاً: يقرر قاعدة عامة في الرد على الصوفية في مسألة معينة، دون إيراد أدلتهم في ذلك، لأن جميع أدلتهم في هذه المسألة المعيّنة تكون واهية.**

ومن ذلك: تكلم عن غلو الصوفية في الرجال، وتعلقهم بالأقطاب والأوتاد، وغيرهم، ورواياتهم الأحاديث في ذلك، **ثم قال**: «..وكذا كل حديث يروىٰ عن النبي ﷺ في عدة الأولياء والأبدال والنقباء والنجباء والأوتاد والأقطاب. . **فليس في ذلك شيء صحيح عن النبي** ﷺ، ولم ينطق السلف بشيء من هذه الألفاظ» ا. هـ.

✍ **رابعاً: عند إيراد الشيخ لاستدلالهم بحديث ما على مسألة من مسائلهم البدعية، فإنه ينوّع الرد عليه، بأشكال ثلاثة:**

أ ـ الرد بالحكم علىٰ الإسناد:

ومن ذلك: قوله أثناء كلامه عن حجج الصوفية علىٰ جواز السماع البدعي: «. . وقال أبو القاسم[1]: وقد روي أن رجلاً أنشد بين يدي النبي ﷺ، فقال: أقبلت فلاح لها. . **قلت**: هذا الحديث موضوع

---

(١) الرسالة القشيرية (٢/٦٤١).

باتفاق أهل المعرفة بالحديث، لا أصل له، وليس في شيء من دواوين الإسلام، وليس له إسناد، بل هو من. . » ا. هـ.

ب ـ الرد من الناحية اللغوية:

ومن ذلك: أنه أورد استدلال الصوفية بقوله ﷺ في تعريف الإحسان: «**فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» علىٰ فنائهم المبتدع.

فقال: «وكقول بعضهم: «**فإن لم تكن تراه**»: يعني فإن فنيت عنك رأيت ربك، وليس هذا معنىٰ الحديث، فإنه لو أريد لقيل: فإن لم تكن تره، وقد قيل «**تراه**»، ثم كيف يصنع بجواب الشرط؟ وهو قوله «**فإنه يراك**»، ثم إنه علىٰ قولهم الباطل تكون كان تامة، فالتقدير: فإن لم تكن: أي لم تقع، ولم تحصل، وهذا تقدير محال؛ فإن العبد كائن موجود ليس بمعدوم، ولو أريد فناؤه عن هواه أو فناء شهوده للأغيار لم يعبر بنفي كونه؛ فإن هذا محال. . » ا. هـ.

ج ـ **الرد من الناحية التاريخية**: **ومن ذلك**: أنه أورد ما يزعمه فريق من المتصوفة من إمكان استغناء بعض الناس عن اتباع الرسول ﷺ، كما استغنىٰ أهل الصفة عن الرسول ﷺ.

فقال: «وقد يقول بعض هؤلاء: إن أهل الصفة كانوا مستغنين عنه ولم يرسل إليهم، ومنهم من يقول: إن اللَّه أوحىٰ إلىٰ أهل الصفة في الباطن ما أوحىٰ إليه ليلة المعراج، فصار أهل الصفة بمنزلته، وهؤلاء من فرط جهلهم لا يعلمون أن الإسراء كان بمكة كما قال تعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١]، وأن الصُّفَّة لم تكن إلا بالمدينة، وكانت صُفَّة في شمالي مسجده ﷺ» ا. هـ.

خامساً: لما كان من منهج المتصوفة الاحتجاج في مسائل الدين بأفعال الرجال:

نجد أن الشيخ لا يكتفي بالرد علىٰ استدلالهم بالنصوص الشرعية من الكتاب والسنة، وإنما يورد احتجاجهم بأقوال الأئمة المعتبرين عندهم ثم يرد علىٰ هذا الاحتجاج، **وله في ذلك ثلاثة أساليب:**

١ ـ الرد من جهة المتن.

ومن ذلك: قوله أثناء كلامه عمّا احتج به القشيري لجواز السماع: «ثم قال أبو القاسم[(١)]: وحكىٰ إسماعيل بن عُلَية قال: كنت أمشي مع الشافعي وقت الهاجرة، فجزنا بموضع يقول فيه أحدٌ شيئاً، فقال: مِلْ بنا إليه، ثم قال: أيُطربك هذا؟ فقلت: لا، فقال: ما لك حِس، قلت: قد كان مستغنياً عن أن يستشهد علىٰ الأمور الحسية بحكاية مكذوبة علىٰ الشافعي، فإن إسماعيل بن علية شيخ الشافعي لم يكن ممن يمشي معه، ولم يروِ هذا عن الشافعي، . . فهذه الحكاية يعلم أنها مفتراة من له أدنىٰ معرفة بالناس. . » ا.هـ.

٢ ـ الرد من جهة السند.

ومن ذلك: قوله أثناء حكايته لمذهب الصوفية في الأسماء والصفات: «. . قال[(٢)]: قيل ليحيىٰ بن معاذ[(٣)]: أخبرني عن اللَّه،

---

(١) الرسالة القشيرية (٦٤١/٢ ـ ٦٤٢).

(٢) القائل هو: أبو القاسم القشيري، وقد ذكر هذا الكلام في: الرسالة القشيرية (٣٨/١ ـ ٣٩).

(٣) هو يحيىٰ بن معاذ بن جعفر الرازي الواعظ، من خيار المتصوفة، له كلام حسن، منه قوله: الذي حجب الناس عن التوبة طول الأمل، وعلامة التائب إسبال الدمعة، وحب الخلوة، والمحاسبة للنفس عند كل همة، توفي بنيسابور سنة: ٢٥٨.

فقال: إله واحد، فقال: كيف هو؟ فقال: ملك قادر، فقال: أين هو؟ فقال: بالمرصاد، فقال السائل: لم أسألك عن هذا، فقال: ما كان غير هذا كان صفة المخلوق، فأما صفته فما أخبرتك عنه، قلت: **لا تُعلم صحة هذا الكلام عن يحي بن معاذ، إذ في الإسناد من لا نعرفه، . .**» ا. هـ.

٣ ـ الرد علىٰ رأي الشخص المحتج به، برأي شخص آخر منهم.

ومن ذلك: قوله أثناء كلامه عن الفناء عند المتصوفة وأنه يكون بزوال الفرق بين الحسنات والسيئات، ثم ذكر احتجاجهم بحال أبي منصور الحلاج.

فقال: «ومنهم من يقول: **إن الحلاج كان هذا مشهده**، وإنما قُتل لأنه باح بالسرّ الذي ما ينبغي البَوح به. . **وكان الجنيد** ـ قدس اللّٰه روحه ـ **لما وصل أصحابه كالثوري وأمثاله إلىٰ هذا المقام أمرهم بالفرق الثاني**، وهو: أن يفرقوا بين المأمور والمحظور، ومحبوب اللّٰه ومرضيه، ومسخوطة ومكروهة، . . وهو حقيقة قول لا إله إلا اللّٰه، فمنهم من أنكر علىٰ الجنيد، ومنهم من توقف، ومنهم من وافق، والصواب ما قاله الجنيد. . » ا. هـ.



المبحث الرابع

منهجه في إيراد عباراتهم والحكم عليها

تمهيد:

المتأمل في كلام الصوفية عامّة، ومشايخهم خاصة، يجد لهم عبارات يوحي ظاهرها بالكفر والضلال، لذا يسارع كثير من الناظرين في هذه العبارات إلىٰ تكفير قائلها والحكم بضلاله وزندقته، أما الشيخ فقد كان له منهج متميز بالعدل وإحسان الظن في النظر إلىٰ هذه العبارات والحكم عليها.

ويمكن بيان منهج الشيخ في النقاط التالية:

أولاً: اعتذار الشيخ ـ إجمالاً ـ عن بعض عباراتهم، وتقريره أن الشيوخ الصالحين لا يؤخذ عليهم كغيرهم، ومن ذلك: قوله أثناء كلامه عن الحلولية: «لكن شيوخ أهل العلم الذين لهم لسان صدق، وإن وقع في كلام بعضهم ما هو خطأ منكر، فأصل الإيمان باللَّه ورسوله إذا كان ثابتاً غُفر لأحدهم خطأه الذي أخطأه بعد اجتهاده» ا. هـ.

ثانياً: عند نظر الشيخ في العبارة، ينظر إلىٰ حال قائلها وقت تكلّمه بها، ومدىٰ اتباعه للسنة عموماً، ثم يحكم علىٰ عبارته: ومن ذلك:

قال الشيخ أثناء كلامه عن غلوّ فريق من المتصوفة في المحبّة: «وكثير من السالكين سلكوا في دعوىٰ حب اللَّه أنواعاً من أمور الجهل بالدين، . . ويقول بعضهم: إذا كان يوم القيامة نصبت خيمتي علىٰ جهنم حتىٰ لا يدخلها أحد، . . ومثل هذا قد يصدر في حال سُكر

يسقط فيها تمييز الإنسان، أو يضعف حتىٰ لا يدري ما قال، والسُكْر هو لذة مع عدم تمييز، ولهذا كان بين هؤلاء من إذا صحا استغفر من ذلك الكلام» ا.هـ.

ثالثاً: اجتهاد الشيخ في توجيه عباراتهم، وتخريجها علىٰ مقاصد حسنة.

ومن ذلك:

ـ ما ذكره أثناء كلامه عن مذهب الصوفية في الأسماء والصفات: «قال[١]: ورأيت بخط الأستاذ أبي علي[٢] أنه قيل لصوفي: أين اللَّه؟ فقال: أسحقك اللَّه، تطلب مع العين أثراً؟ قلت: هذا كلام مجمل، قد يعني به الصدّيق معنىً صحيحاً، ويعني به الزنديق معنىً فاسداً، . . فيحتمل أن الصوفي كان عارفاً باللَّه، وقد عاين السائل من حاله ما عرف به صدقه . .» ا.هـ.

رابعاً: تشكيك الشيخ في ثبوت بعض الأقوال والعبارات المبتدعة، عن المشايخ المنسوبة إليهم.

ومن ذلك: قوله أثناء كلامه عن الاتحادية، وما نُقل عن بعض المشايخ من عبارات يوهم ظاهرها القول بالاتحاد والحلول: «وأما أن يكون الخلق جزءاً من الخالق تعالىٰ، فهذا كفر صريح، . . وإن

---

(١) يعني: أبا القاسم القشيري، وقد ذكر هذا الكلام في: الرسالة القشيرية (٤١/١).

(٢) هو الحسن بن علي الدقاق النيسابوري، أبو علي، الأستاذ، كان يعظ الناس ويتكلم علىٰ الأحوال والمعرفة، وهو شيخ أبي القاسم القشيري ـ صاحب الرسالة ـ، له كلام حسن منه قوله: من تواضع لأحد لأجل دنياه ذهب ثلثا دينه، لأنه خضع له بلسانه وأركانه، فإن اعتقد تعظيمه بقلبه أو خضع له به ذهب دينه كله، توفي سنة: ٤١٢ . .

سُمع شيء من ذلك منقول عن بعض أكابر الشيوخ، فكثير منه مكذوب، اختلقه الأفّاكون من الاتحادية المباحية، الذين أضلهم الشيطان وألحقهم بالطائفة النصرانية..» ا.هـ.

وبهذا العرض المفصل يتضح لنا ما كنا قررناه سابقاً من عدل الشيخ، وسلامة صدره في التعامل مع أقوال الخصوم وآرائهم، بل ومحاولة الاعتذار عنهم فيما يقولون، فتجده مرة يعتذر بأن القائل تلفظ بالعبارة المبتدعة وهو في غيبة عقله، أو كان مغلوباً علىٰ عقله، أو هذه العبارة مكذوبة عليه، أو تجد أحياناً أن الشيخ يسوق عبارات أخرىٰ لهذا القائل تخالف ما ذكر عنه ليلتمس له العذر، ونحو ذلك.

فأين هذا المنهج من مناهج المتعاملين مع آراء الشيخ من خصومه!! كم ألفوا من الردود عليه!! وكم كفروه وبدّعوه!! وكم سعوا في قتله وسجنه وإخراجه!! حتىٰ مات في السجن، ومع ذلك نجد أن الشيخ يلتزم منهج الكتاب والسنة لا يحيد عنه.

وسيتبين لنا فيما يأتي من مباحث ما ذكرناه هنا بصورة أوضح.



الباب الثالث

عرض آراء الصوفية في الاعتقاد، ومناقشتها عند شيخ الإسلام

* وفيه سبعة فصول:

الفصل الأول: توحيد الربوبية، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: حقيقة الذات الإلهية عندهم

المبحث الثاني: الحلول والاتحاد

الفصل الثاني: توحيد الألوهية

المبحث الأول: الغلو في الأشخاص

المبحث الثاني: تقديس القبور والأضرحة

المبحث الثالث: الدعاء والاستغاثة بغير اللَّه

الفصل الثالث: توحيد الأسماء والصفات

المبحث الأول: اختلافهم في أسماء اللَّه تعالىٰ

المبحث الثاني: قولهم في القرآن وكلام اللَّه عمومًا

المبحث الثالث: قولهم في رؤية اللَّه

المبحث الرابع: موقفهم من بقية الصفات

الفصل الرابع: النبوة والولاية وخوارق العادة

المبحث الأول: موقفهم من النبوة

المبحث الثاني: المعجزات

المبحث الثالث: موقفهم من الولاية

المبحث الرابع: الكرامات

الفصل الأول: توحيد الربوبية

تمهيد

قبل الشروع في الكلام عن آراء الصوفية في الاعتقاد، أُمهد بإيراد ما ذكره الشيخ من أن الصوفية الأوائل، عموماً، كالجنيد والسري السقطي(١) ونحوهما، يوافقون مذهب أهل السنة في كثير من أبواب الاعتقاد، في الجملة.

قال الشيخ: «.. **والجنيد**: تكلم بكلام الأئمة العارفين، .. **والشيوخ الأكابر** الذين ذكرهم أبو عبد الرحمن السُّلَمي في: «طبقات الصوفية»، وأبو القاسم القشيري في: الرسالة، كانوا علىٰ مذهب أهل السنة والجماعة، ومذهب أهل الحديث، كالفُضَيل بن عياض(٢)، والجُنيد بن محمد، وسهل بن عبد اللَّه التستري، وعمرو بن عثمان المكي، وأبي عبد اللَّه محمد بن خفيف الشيرازي، وغيرهم، وكلامهم موجود في السنة، وصنفوا فيها الكتب، لكن بعض المتأخرين: كان علىٰ طريقة بعض أهل الكلام في بعض فروع العقائد، ولم يكن فيهم أحد علىٰ مذهب الفلاسفة، وإنما ظهر التفلسف في المتصوفة

---

(١) هو السري بن المفلس السقَطي، كنيته: أبو الحسن، يقال إنه خال الجنيد وأستاذه، صحِب معروفاً الكرخي، وهو أول مَن تكلم ببغداد في الحقائق والأحوال، وهو إمام البغداديين وشيخهم في وقته، توفي سنة: ٢٥١.

(٢) هو الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمي، من كبار المشايخ وصالحيهم، وأحد العلماء الأعلام، وُلد بسمرقند، وارتحل لطلب العلم، فأخذ عن الليث وعطاء وغيرهما، وأخذ عنه الشافعي وابن مهدي وغيرهما، توفي سنة: ١٨٧.

المتأخرين، فصارت المتصوفة:
١ ـ تارة علىٰ طريقة صوفية أهل الحديث، وهم خيارهم وأعلامهم.
٢ ـ وتارة علىٰ اعتقاد صوفية **أهل الكلام**، فهؤلاء دونهم.
٣ ـ وتارة علىٰ اعتقاد صوفية **الفلاسفة**، كهؤلاء الملاحدة.. ولهذا كان هؤلاء كابن سبعين ونحوه يعكسون دين الإسلام فيجعلون أفضل الخلق: المحقق عندهم، وهو القائل بوحدة الوجود..» ا.هـ.

وقال الشيخ: «والثابت الصحيح عن أكابر المشايخ يوافق ما كان عليه السلف: وهذا هو الذي كان يجب أن يُذكر، فإن في الصحيح المحفوظ عن أكابر المشايخ مثل الفضيل بن عياض، وأبي سليمان الداراني(١)، ويوسف بن أسباط(٢)، وحذيفة المرعشي(٣)، ومعروف الكرخي(٤)، إلىٰ الجنيد بن محمد، وسهل بن عبد اللَّه التستري، وأمثال هؤلاء ما يبين حقيقة مقالات المشايخ..» ا.هـ.

وبعد هذا التمهيد الموجز، أفصل في المباحث القادمة آراء الصوفية في أنواع التوحيد الثلاثة، وبقية أبواب الاعتقاد، وأسوق كلام شيخ الإسلام في حكايته لمذاهب المتصوفة مع الردّ عليهم وتفنيد حججهم.



---

(١) هو عبد الرحمن بن أحمد العنسي، أبو سليمان الداراني، الإمام الزاهد، ولد سنة: ١٤٠ تقريباً، روىٰ عن سفيان الثوري وجماعة، توفي سنة: ٢١٥.
(٢) هو يوسف بن أسباط، الزاهد، من سادات المشايخ، له مواعظ وحكم، روىٰ عن سفيان الثوري وغيره، لم أجد له تاريخ وفاة.
(٣) هو حذيفة بن قتادة المرعشي، من كبار الصوفية، صحِب الثوري وروىٰ عنه، لم أجد له تاريخ وفاة.
(٤) هو معروف بن فيروز الكرخي، أبو محفوظ، وُلِد من أبوين نصرانيين، وأسلم وصحِب داود الطائي، توفي ببغداد سنة: ٢٠٠.

المبحث الأول
حقيقة الذات الإلهية عندهم

تمهيد:

من أكبر الثوابت التي تدل عليها نصوص الكتاب والسنة، وإجماع المسلمين أن سلامة الإنسان يوم القيامة وربحه أو خسارته متعلقة بتوحيده أو شِرْكه، واللَّه لا يغفر أن يُشرَكَ به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ومن نظر في أحوال الصوفية، من جهة معتقدهم في ذات اللَّه وجد عند بعضهم من الخلل والانحراف ما يخرج به عن دائرة الإسلام.

وقد عرض الشيخ في مواضع من كتبه حقيقة معتقد الصوفية في التوحيد، وما يتعلق بذات اللَّه تعالىٰ، وبين ما فيها من خلل، وردّ علىٰ ما ذكروه من شبهات.

ويمكن بيان ما ذكره عن التوحيد، وحقيقة الذات الإلهية عند الصوفية، فيما يلي:

أولاً ـ توحيد الربوبية(١) هو غاية السالكين عند الصوفية:

---

(١) معنىٰ توحيد الربوبية: في اللغة: الرب ـ في أصل معناه اللغوي ـ هو المربي، ويطلق أيضاً علىٰ السيد والمالك والمدبر، ولا يطلق من غير إضافة إلا علىٰ اللَّه تعالىٰ، وإذا أطلق علىٰ غيره أُضيف فيقال: رب كذا، توحيد الربوبية بمعناه الاصطلاحي: هو الإقرار بأن اللَّه تعالىٰ رب كل شيء، ومالكه وخالقه ورازقه، وأنه المحيي المميت، النافع الضار، المتفرد بإجابة الدعاء عند الاضطرار، الذي له الأمر كله، وبيده الخير كله، القادر علىٰ ما يشاء، ليس له في ذلك شريك..

قال أثناء كلامه عن الصوفية: «ويعدُّون نهاية العارفين الفناء في توحيد الربوبية، وشهود القيومية، والاصطلام[١] في شهود القدر الجاري، . . وهؤلاء غاية تحقيقهم: شهود التوحيد، الذي أقرَّ به عُباد الأصنام العرب، كانوا يُقرون بأن اللَّه خالق كلّ شيء وربُّه ومليكه، كما أخبر اللَّه عنهم في القرآن في غير موضع: . . وقال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]. . فمَن كان غاية توحيده شهود القيومية والربوبية العامة، كان قد شهِد ما أقرَّ به المشركون، ولم يكن قد شهِد أنه لا إله إلا اللَّه، وأن محمداً رسول اللَّه. . » ا. هـ.

وقال وهو يبين أن إقرارهم بتوحيد الربوبية لم ينفعهم: «وهؤلاء ينتقلون من القول بتوحيد الربوبية إلىٰ القول بالحلول والاتحاد، وهذا عين الضلال والإلحاد» ا. هـ.

✍ ثانياً: وبعضهم يجعل التوحيد ثلاثة أوجه: للعامة، وللخاصة، ولخاصة الخاصة:

وقد نقل الشيخُ ذلك عن أبي إسماعيل الهروي، وردّ عليه: قال: «أبو إسماعيل الهروي[٢]: والتوحيد علىٰ ثلاثة أوجه الأول:

توحيد العامة: الذي يصح بالشواهد.

والثاني: توحيد الخاصة، وهو الذي يثبت بالحقائق.

---

(١) معنىٰ الاصطلام: في عُرف الصوفية: وَلَهٌ غالب علىٰ القلب، سلطانه قوي فيسكن من قام به تحته، وهو قريب من الهيمان، وقيل هو غَلَبات الحق الذي يجعل كلِّيَّة العبد مغلوبة له بامتحان اللطف في نفي إرادته. .

(٢) منازل السائرين، للهروي (ص: ١١١).

والوجه الثالث: توحيد قائم بالقِدَم، وهو توحيد خاصة الخاصة.

فأما التوحيد الأول: فهو شهادة أن لا إله إلا اللَّه، وحده لا شريك له الأحد الصمد،.. **هذا توحيد العامة:** الذي يصح بالشواهد، والشواهد هي: الرسالة والصنائع،..

وأما التوحيد الثاني: الذي يثبت بالحقائق فهو: توحيد الخاصة، وهو: إسقاط الأسباب الظاهرة.. وهو أن لا يشهد في التوحيد دليلاً، ولا في التوكل سبباً،.. هذا توحيد الخاصة: الذي يصح بعلم الفناء، ويصفو في علم الجمع، ويجذب إلىٰ توحيد أرباب الجمع.

وأما التوحيد الثالث: فهو توحيد اختصه الحق لنفسه، واستحقه بقَدَره، وألاح منه لائحاً إلىٰ أسرار طائفة من صفوته، وأخرسهم عن نعته، وأعجزهم عن بثه، والذي يشار به إليه علىٰ ألسن المشيرين، أنه إسقاط الحدَث، وإثبات القِدَم، علىٰ أن هذا الرمز في ذلك التوحيد علةٌ لا يصح ذلك التوحيد إلا بإسقاطها، **هذا قطب الإشارة إليه علىٰ ألسن علماء أهل هذا الطريق**» ا. هـ.

ثم بين الشيخ الرد علىٰ هذا التقسيم المُحدث، فقال: «**قلت:** وقد بسطت الكلام علىٰ هذا وأمثاله في غير هذا الموضع، لكن ننبه هنا علىٰ ما يليق بهذا الموضع، فنقول:

أما التوحيد الأول الذي ذكره: فهو التوحيد الذي جاءت به الرسل ونزلت به الكتب وبه بعث اللَّه الأولين والآخرين من الرسل،.. وقد أخبر اللَّه تعالىٰ عن كلٍ من الرسل مثل نوح وهود وصالح وشعيب، وغيرهم، أنهم قالوا لقومهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وهذا أول دعوة الرسل وآخرها،.. وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح أيضاً: (**من مات وهو يعلم أن لا إله إلا اللَّه دخل**

الجنة)[1]. .

وأما التوحيد الثاني الذي ذكره: وسماه: **توحيد الخاصة**، فهو: الفناء في توحيد الربوبية، وهو: أن يشهد ربوبية الرب لكل ما سواه وأنه وحده رب كل شيء ومليكه، والفناء إذا كان في توحيد الألوهية: وهو أن يستولي علىٰ القلب شهودُ معبودِه وذكرُه ومحبتُه، حتىٰ لا يحس بشيء آخر، مع العلم بثبوت ما أثبته الحق من الأسباب والحكم، وعبادتُه وحده لا شريك له بالأمر والنهي، ولكن غلب علىٰ القلب شهود الواحد، . . فصاحب هذا الفناء إذا غُلب في ذلك، فهو معذور لعجزه عند غلبة ذكر الرب علىٰ قلبه، عن شعوره بشيء آخر، كما يعذر من سمع الحق فمات، أو غشي عليه، وكما عذر موسىٰ ﷺ لما صعق حين تجلىٰ ربه للجبل» ا.هـ.

واما التوحيد الثالث فذكره في الفقرة التالية:

✍ ثالثاً ـ معنى التوحيد عند القائلين بالحلول والاتحاد من الصوفية:

بين الشيخ أن القائلين بالحلول والاتحاد وقعوا في غلو وزندقة في توحيد اللَّه تعالىٰ، حتىٰ قالوا بحلول الخالق في المخلوق فقال: «وكذلك قوله[2]: التوحيد لا يكون إلا من عبد لرب، ولو أنصف الناس ما رأوا عابداً ولا معبوداً: كلا المقدمتين باطل: **فإن التوحيد يكون من اللَّه لنفسه**: فإنه يوحد نفسه بنفسه، كما قال تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨]، . . **وأما المقدمة الثانية: فقوله**: إن الناس لو أنصفوا ما رأوا عابداً ولا معبوداً، مع أنه غاية

(١) رواه مسلم عن عثمان بن عفان رضي الله عنه.
(٢) هذا من كلام ابن عربي، وقد ذكر مثل هذا الضلال وأعظم منه في الفصوص (ص: ٣٦٨).

في الكفر والإلحاد، متناقض، فإنه إذا لم يكن ثَمَّ عابد ولا معبود بل الكل واحد: فمَن هم الذين لا ينصفون؟ إن كانوا هم اللَّه؟ فيكون اللَّه هو الذي لا ينصف، وإن كانوا غير اللَّه فقد ثبت الغير.

ثم إذا فسروه علىٰ كفرهم وقالوا: إن اللَّه هو الذي لا ينصف، وهو الذي يأكل ويشرب ويكفر، كما يقول ذلك كثير منهم، مثل ما قال بعضهم لشيخه: الفقير[1] إذا صحَّ أكل باللَّه، فقال له الآخر: الفقير إذا صح أكل اللَّه.. **وإن قال**: بل هو هو، عومل معاملة السوفسطائية[2]؛ فإن هذا القول من أقبح السفسطة» ا.هـ.

✍ رابعاً: حقيقة الرب عند ابن عربي وشيعته: وجودٌ مجرد لا اسم له ولا صفة.

قال الشيخ: «وكان كثير من أهل التصوف والسلوك، والطالبين لطريق التحقيق والعرفان، مع أنهم يظنون أنهم متابعون للرسل وأنهم متقون للبدع المخالفة له، يقولون هذا الكلام ويعظمونه، ويعظمون ابن عربي لقوله مثل هذا، ولا يعلمون أن هذا الكلام بناه علىٰ أصله الفاسد في الإلحاد الذي يجمع بين التعطيل والاتحاد.

فإن حقيقة الرب عنده: وجودٌ مجرد لا اسم له ولا صفة، ولا يمكن أن يرىٰ في الدنيا ولا في الآخرة، ولا له كلام قائم به، ولا علم ولا غير ذلك، ولكن يرىٰ ظاهراً في المخلوقات.. **وهذا الكلام: له وقع عند من لم يفهمه ويتدبره، فإذا فهم حقيقته تبين له أنه بكلام المجانين أشبه منه بكلام العقلاء**» ا.هـ.

---

(١) الفقير: نسبة إلىٰ الفقر، وهي مرتبة من مراتب التصوف.
(٢) السوفسطائية: هم قوم كانوا قبل دولة الإسلام في القرن الخامس قبل الميلاد، يقولون بنفي الحقائق.

والمتأمل فيما سبق مما نقله شيخ الإسلام عن المتصوفة في اعتقادهم في رب العالمين ﷻ، يجد أنهم في الحقيقة لا يعبدون إلهاً واحداً وإنما يعبدون آلهة شتىٰ، فمن أفرد اللَّه تعالىٰ بالعبادة فهو عندهم الضّالّ الزنديق.

وفريق آخر منهم يرون أن مجرد اعترافك بوجود اللَّه تعالىٰ فأنت بذلك تعتبر مؤمناً كامل الإيمان!!، وهذا ما أوقع كثيراً من المتصوفة في أنواع الشرك من دعاء غير اللَّه، والاستغاثة بالأولياء، وصرف أنواع كثيرة من العبادة لغير اللَّه تعالىٰ.



المبحث الثاني

الحلول والاتحاد

✍ **تمهيد:**

المستقرئ لما كتبه الشيخ عن الاتحادية، سواء في بيان مذهبهم أو الرد عليهم، يلحظ بوضوح سعة علم الشيخ وإحاطته بمذهبهم.

كما قال: «وقد رأيت منهم، ومن كتبهم، وسمعت منهم، وممن يخبر عنهم من ذلك ما شاء اللَّه، وكلهم علىٰ هذه الأحوال ضالون عن معبودهم وإلههم وخالقهم، ثم رأيت كلام السلف والأئمة كلهم يصفونهم بمثل ذلك، فمنَّ اللَّه علينا بإتباع سبيل المؤمنين وآمنا باللَّه وبرسوله، وكل هؤلاء يجد نفسه مضطربة في هذا الاعتقاد لتناقضه في نفسه، وإنما يسكِّن بعضَ اضطرابه نوعُ تقليد لمُعَظم عنده، أو خوفه من مخالفة أصحابه، أو زعمه أن هذا من حكم الوهم والخيال، دون العقل» ا. هـ.

وبين أن أهل الحلول والاتحاد مضطربون بين الإثبات والنفي، ولا يثبت أحدهم علىٰ قول، بل إذا غلب علىٰ أحدهم رقة القلب والوجد، أثبت، وإذا زالت رقة قلبه نفىٰ.

وقال: «وإنما يفترقون فيما يثبتونه، ويُكرِهون فطرهم وعقولهم علىٰ قبول المحال المتناقض، فيقولون:

هو في العالم، وليس هو فيه، أو: هو العالم، ليس إياه، أو يغلبون الإثبات فيقولون: بل هو نفس الوجود، أو النفي فيقولون: ليس في العالم، ولا خارجاً عنه، أو يدينون بالإثبات في حال، وبالنفي في حال، إذا غلب علىٰ أحدهم عقله غلَّب النفي وهو: أنه

ليس في العالم، وإذا غلب عليه الوجود والعبادة رجح الإثبات وهو: أنه في هذا الوجود، أو هو هو، لا تجد جهمياً إلا علىٰ أحد هذه الوجوه الأربعة، وإن تنوعوا فيما يثبتونه ـ كما ذكرته لك ـ فهم مشتركون في التعطيل» ا. هـ.

أما تفصيل ما ذكره عن القائلين بالحلول والاتحاد، فيمكن بيانه فيما يلي:

أولاً: تاريخ ظهور مذهبهم:

قال الشيخ: «وهذا القول، أعنىٰ قول من يقول: إن المعدوم شيء ثابت في نفسه خارج عن علم اللَّه تعالىٰ، وإن كان باطلاً ودلالته واضحة لكنه قد **ابتدع في الإسلام من نحو أربعمائة سنة**، وابن عربي وافق أصحابه وهو أحد أصلَيْ مذهبه الذي في الفصوص» ا. هـ.

ثانياً: سبب رَدّه عليهم:

باستقراء ما كتبه عن أهل الحلول والاتحاد، يمكن أن نستنتج أن الأسباب التي جعلته يناظرهم، ويفرد بعض مصنفاته في الرد عليهم[١]، ما يلي:

أ ـ انتشار مذهبهم وانخداع الناس بهم.

فقال: «**ولولا أن أصحاب هذا القول كثروا وظهروا وانتشروا، وهم عند كثير من الناس سادات الأنام ومشايخ الإسلام وأهل التوحيد والتحقيق، وأفضل أهل الطريق، حتىٰ فضلوهم علىٰ الأنبياء والمرسلين**

---

(١) صنف شيخ الإسلام في الرد علىٰ الحلولية والاتحادية كتاب «بغية المرتاد في الرد علىٰ المتفلسفة والقرامطة والباطنية أهل الإلحاد من القائلين بالحلول والاتحاد»، وكتاب: الرد علىٰ فصوص الحكم «وغيرهما من المتفرقات في كتبه.

وأكابر مشايخ الدين، لم يكن بنا حاجة إلىٰ بيان فساد هذه الأقوال وإيضاح هذا الضلال» ا.هـ.

ب ـ تظاهرهم بلباس الصوفية وتلبيسهم علىٰ الناس.

لأجل انخداع فريق من الناس بأهل الحلول والاتحاد، انقسموا إلىٰ قسمين: عوامهم الذين يغلب عليهم الزهد والتعبد، ولا يعلمون حقيقة ما هم عليه، وعُرافهم العالمون بحقيقة قولهم، وقد يظهرونه، وقد يكتمونه.

قال الشيخ: **«وفيهم جماعات لهم عبادة وزهد وصدق فيما هم فيه:** وهم يحسبون أنه حق، **وعامتهم الذين يقرون ظاهراً وباطناً بأن محمداً رسول اللَّه،** وأنه أفضل الخلق أفضل من جميع الأنبياء والأولياء لا يفهمون حقيقة قولهم، بل يحسبون أنه تحقيق ما جاء به الرسول ﷺ، وأنه من جنس كلام أهل المعرفة الذين يتكلمون في حقائق الأيمان والدين، وهم من خواص أولياء اللَّه فيحسبون هؤلاء من جنس أولئك، من جنس الفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم وأبىٰ سليمان الداراني والسَّرِي السقطي، والجنيد بن محمد وسهل بن عبد اللَّه، وأمثال هؤلاء» ا.هـ.

✍ ثالثاً: الاتحادية لا يعتبرون أنفسهم عباداً للّٰه:

قال الشيخ: «بل قد آل الأمر بهؤلاء إلىٰ أن سوَّوا اللَّه بكل موجود، وجعلوا ما يستحقه من العبادة والطاعة حقاً لكل موجود، إذ جعلوه هو وجود المخلوقات، وهذا من أعظم الكفر والإلحاد برب العباد.

وهؤلاء يصل بهم الكفر إلىٰ أنهم لا يشهدون أنهم عبادٌ، لا بمعنىٰ أنهم معبدون، ولا بمعنىٰ أنهم عابدون، إذ يشهدون أنفسهم هي الحق، كما صرح بذلك طواغيتهم كابن عربي صاحب الفصوص، وأمثاله

من الملحدين المفترين، كابن سبعين وأمثاله، ويشهدون أنهم هم العابدون والمعبودون» ا.هـ.

✍ **رابعاً: الاتحادية أكفر من اليهود والنصارى:**

قال الشيخ: «فهؤلاء الذين يقولون بالحلول والاتحاد المطلق في المخلوقات جميعها من الجهمية، قولهم ذلك شر من مقالة النصارىٰ في الاتحاد، فإن قولهم من جنس قول المشركين والمعطلين.

وهم شرُّ حالٍ من النصارىٰ وذلك من وجهين:

أحدهما: أن النصارىٰ قالوا بالاتحاد والحلول في شخص واحد، وهؤلاء قالوا إنه في العالم كله، حتىٰ ذكروا عن صاحب الفصوص أنه قال: «النصارىٰ ما كفروا إلا لأنهم خصصوا»[(١)]، وقال ذلك التلمساني وغيره من شيوخهم، وقد صرح في غير موضع بأن المشركين عباد الأوثان إنما أخطئوا من حيث عبادة بعض الأشياء دون البعض، والمحقق عندهم من يعبد كل شيء، ويرىٰ كل شيء عابداً للحق ومعبوداً له، وكل من عبد شيئاً غير اللَّه عنده فما عبد إلا اللَّه[(٢)].

الوجه الثاني: أن النصارىٰ يقولون بأن الاتحاد والحلول فعل

---

(١) فصوص الحكم (ص: ٢٣٢).

(٢) يرىٰ ابن عربي وحزبه: أن جميع أهل الملل علىٰ حق، حتىٰ المجوس الذين يعبدون النار، والمشركين عباد الأوثان والأصنام، لأنهم لما عبدوها ما عبدوا في الحقيقة إلا اللَّه، فإنه يتجلىٰ في هذه المظاهر، كما قال ابن عربي:

كنار موسىٰ رآها عين حاجته … وهي الإله ولكن ليس يدريه

انظر: فصوص الحكم (٤١٩).

من أفعال الرب، وأن اللاهوت اتحد بالناسوت[١] مرة وانفصل عنه أخرىٰ، وهؤلاء عندهم ما يُتَصور أن يتميز وجود الحق عن المخلوقات، ولا يباينها ولا ينفصل عنها، وهؤلاء الاتحادية» ا.هـ.

✍ خامساً: خطرهم على الأمة:

قال الشيخ أثناء رده علىٰ الاتحادية: «هؤلاء يسقون الناس شراب الكفر والإلحاد في آنية أنبياء اللَّه وأوليائه، ويلبسون ثياب المجاهدين في سبيل اللَّه وهم في الباطن من المحاربين للَّه ورسوله، ويظهرون كلام الكفار والمنافقين في قوالب ألفاظ أولياء اللَّه المحققين، فيدخل الرجل معهم علىٰ أن يصير مؤمناً ولياً للَّه، فيصير منافقاً عدواً للَّه» ا.هـ.

✍ سادساً: معنى الحلول[٢] والاتحاد[٣]:

الحلول والاتحاد له معنيان:

أحدهما: شرعي، دلّ علىٰ معناه الكتاب والسنة.

والآخر: غير شرعي، بل هو كفر وضلال، وهو الذي يريده أهل الوحدة من الاتحادية والحلولية.

---

(١) اللاهوت: لفظٌ مشتقٌ من الإله، ويعني به النصارىٰ العلم الذي يبحث في وجود اللَّه وذاته وصفاته، وهو الجزء الإلهي من المسيح، والناسوت: لفظٌ مشتقٌ من الناس، ويعني به النصارىٰ الجزء البشري من المسيح، فالنصارىٰ يزعمون أن اللاهوت حلّ في الناسوت كحلول الماء في الإناء.

(٢) الحلول في اللغة: حلّ الرجل في المكان إذا نزل فيه، أو دخله وسكنه، فهو حالّ فيه ويحلُّ حِلاً وحلولاً.

(٣) معنىٰ الاتحاد في اللغة: امتزاج الشيء بالشيء واختلاطه به، حتىٰ لا تكاد تفرق أحدهما عن الآخر، كاتحاد اللبن بالماء، فالاتحاد يصيّر الذاتين ذاتاً واحدة.

وسأوضح فيما يلي المراد بكل واحد من هذين القسمين تفصيلاً:

□ **القسم الأول: الحلول الشرعي:**

هو حلول الهدىٰ والإيمان في قلوب المؤمنين، لا حلول ذات الخالق، تعالىٰ وتقدس عن ذلك، وقد بين الشيخ هذا المعنىٰ، بقوله أثناء رده علىٰ الحلولية: «وأما المؤمنون، فإن الإيمان باللَّه ومعرفته ومحبته ونوره وهداه يحل في قلوبهم، وهو المثل الأعلىٰ والمثال العلمي.. قال اللَّه تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ﴾ الآية [النور: ٣٥]، قال أُبيُّ بن كعب رضي الله عنه: مثل نوره في قلب المؤمن، فهذه هي الأنوار التي تحصل في قلوب المؤمنين» ا. هـ.

وبين الشيخ معنىٰ ما يمكن أن يسمىٰ بالاتحاد الشرعي، فقال: «**وأما ما يشبه الاتحاد**: فإن الذاتين المتميزتين لا تتحد عين إحداهما بعين الأخرىٰ، ولا عين صفتها بعين صفتها إلا إذا استحالتا بعد الاتحاد إلىٰ ذات ثالثة، كاتحاد الماء واللبن فإنهما بعد الاتحاد شيء ثالث وليس ماءً محضاً ولا لبناً محضاً، وأما اتحادهما وبقاؤهما بعد الاتحاد علىٰ ما كانا عليه فمحال.

ومن هنا يعلم أن اللَّه لا يمكن أن يتحد بخلقه فاستحالته محال، وإنما تتحد الأسباب والأحكام في العين وتتحد الأسماء والصفات في النوع مثل المتحابَّين المتخالَّين الَّذَين صار أحدهما يحب عين ما يحبه الآخر، ويبغض ما يبغضه، ويتنعم بما يتنعم به، ويتألم بما يتألم به، وهذا فيه مراتب ودرجات لا تنضبط، فأسماؤهما وصفاتهما صارتا من نوع واحد.

فهذا في اتحاد الناس بعضهم ببعض وهي الأخوة والخلة الإيمانية التي قال فيها النبي ﷺ: **(مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكىٰ منه عضو تداعىٰ له سائر**

الجسد بالحمىٰ والسهر)[(١)]. . فالعبد المؤمن إذا أناب إلىٰ ربه وعبَدَه ووافقه حتىٰ صار يحب ما يحب ربه ويكره ما يكره ربه ويأمر بما يأمر به ربه وينهىٰ عما ينهىٰ عنه ربه ويرضىٰ بما يرضىٰ ربه ويغضب لما يغضب له ربه ويعطىٰ من أعطاه ربه ويمنع مَن منَع ربه، . . **وفي مثل هذا جاءت نصوص الكتاب والسنة**: قال اللّه تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]» ا. هـ.

▫ القسم الثاني: الحلول البدعي:

وهو ما يعتقده الاتحادية والحلولية، وهو المقصود عند إطلاق لفظ الحلول، سواء في كلام الشيخ أو في كلام غيره، وهم يقولون إن الخالق يتحد بالمخلوق ويحلّ فيه، وقد تقدم في النصوص السابقة التي سقناها أثناء الكلام علىٰ الحلول الشرعي.

✍ سابعاً: الحلولية يفرون من لفظ الحلول لأنه يقتضي حالاً ومحلاً، ويفرون من لفظ الاتحاد لأنه يقتضي وجود شيئين اتحد أحدهما بالآخر.

قال الشيخ: «وهؤلاء يفرون من لفظ (الحلول) لأنه يقتضي حالاً ومحلاً ومن لفظ (الاتحاد) لأنه يقتضي شيئين اتحد أحدهما بالآخر وعندهم الوجود واحد، ويقولون: النصارىٰ إنما كفروا لما خصصوا المسيح بأنه هو اللّه ولو عمموا لما كفروا» ا. هـ

✍ ثامناً: الحلول البدعي نوعان:

ينقسم الحلولية إلىٰ قسمين، بيَّنهما الشيخ بقوله:

«. . وهؤلاء قد يسمون الحلولية والاتحادية وهم صنفان: قوم: يخصُّونه بالحلول أو الاتحاد في بعض الأشياء: كما يقوله النصارىٰ في المسيح عليه السلام، والغالية في علي رضي الله عنه ونحوه، وقوم في أنواع من

(١) رواه البخاري، ومسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

المشائخ، وقوم في بعض الملوك، وقوم في بعض الصور الجميلة، إلىٰ غير ذلك من الأقوال، التي هي شرّ من مقالة النصارىٰ.

وصنفٌ يعمّون فيقولون بحلوله أو اتحاده في جميع الموجودات: حتىٰ الكلاب والخنازير والنجاسات، وغيرها، كما يقول ذلك قوم من الجهمية، ومن تبعهم من الاتحادية، كأصحاب ابن عربي وابن سبعين وابن الفارض والتلمساني والبلياني، وغيرهم» ا.هـ.

تاسعاً: الأصلان اللذان يقوم عليهما مذهب الاتحادية:

قال الشيخ: «وكلامهم كله يدور علىٰ هذين القطبين:

- إما أن يجعلوا الحق لا وجود له ولا حقيقة في الخارج أصلاً، وإنما هو أمر مطلق في الأذهان.

- وإما أن يجعلوه عين وجود المخلوقات، فلا يكون للمخلوقات خالق غيرها أصلاً، ولا يكون رب كل شيء ولا مليكه. وهذا حقيقة قول القوم وإن كان بعضهم لا يشعر بذلك» ا.هـ.

عاشرًا: أسباب ضلال الاتحادية:

يمكن باستقراء ما ذكره الشيخ من أحوال أهل الحلول والاتحاد أن نستنتج أن الأسباب التي أوقعتهم في هذه البدعة المهلكة، هي:

□ **السبب الأول: مشاركتهم للفلاسفة وتلقيهم عنهم:**

قال الشيخ في رده عليهم: «**وهؤلاء كان من أعظم أسباب ضلالهم: مشاركتهم للفلاسفة وتلقيهم عنهم، فإن أولئك القوم من أبعد الناس عن الاستدلال بما جاء به الرسول**» ا.هـ.

□ **السبب الثاني: خطؤهم في تصور محبة الله تعالى، وفي معنى التقرب إلى الله حتى وقعوا في القول بالحلول والاتحاد:**

قال الشيخ: «ولقوة الاتصال: زعم بعض الناس أن العالم والعرف يتحد بالمعلوم المعروف، وآخرون يرون أن المحب قد يتحد بالمحبوب، وهذا إما غلط وإما توسع في العبارة» ا.هـ.

وقال: «**فإنهم لما توجهوا بقلوبهم إلىٰ اللَّه وذكره وأحبوه شهدت قلوبهم الوجود العام بالمخلوقات الصادر عن الحق الذي خلق السماوات والأرض، فاعتقدوا أن هذا هو الحق المخلوق**» ا.هـ.

▫ السبب الثالث: شقَّ عليهم فهمُ كلام الرسل، فجعلوا له ظاهرًا وباطنًا:

قال الشيخ: «وقوّىٰ ضلالهم أمور منها: اعتقادهم أن لما جاءت به الرسل باطناً وظاهراً، ومن أسباب ذلك ما حصل لهم من الحيرة والاضطراب في فهم ما جاءت به الرسل» ا.هـ.

▫ السبب الرابع: اشتبه عليهم الواحد بالنوع، بالواحد بالعين:

قال الشيخ: «هؤلاء اشتبه عليهم الواحد بالنوع بالواحد بالعين، فإنه يقال: الوجود واحد، كما يقال: الإنسانية واحدة، والحيوانية واحدة، أي يعني واحد كلِّي، وهذا الكلي لا يكون كلياً إلا في الذهن لا في الخارج فظنوا هذا الكلي ثابتاً في الخارج، ثم ظنوه هو اللَّه» ا.هـ.

▫ السبب الخامس: يفجؤ قلوبهم ما يعجزون عن معرفته فيظنونه ذات الحق سبحانه:

قال الشيخ: «والاتحاد والحلول الخاص وقع فيه كثير من العباد والصوفية وأهل الأحوال، فإنه يفجؤهم ما يعجزون عن معرفته وتضعف عقولهم عن تمييزه فيظنونه ذات الحق، . . أن كثيراً من السالكين يَرِد عليه من الأحوال ما يصطلمه حتىٰ يظن أنه هو الحق،

وأن الحق فيه، أو أن الحق يتكلم علىٰ لسانه، أو أنه يرىٰ الحق، أو نحو ذلك وإنما يكون الذي يشاهدونه ويخاطبونه هو الشيطان» ا.هـ.

▫ **السبب السادس: قِلة العلم والإيمان:**

قال الشيخ: «وهؤلاء الاتحادية وأمثالهم إنما أُتوا من قلة العلم والإيمان بصفات اللَّه التي يتميز بها عن المخلوقات، وقلة اتباع السنة وطريقة السلف في ذلك، .. ويسمع من بعض الناس ذكر ذلك مثل أن يفهم من قولهم: ليس في جهة ولا له مكان ولا هو في السماء: أنه ليس في جوف السماوات، وهذا معنىٰ صحيح وإيمانه بذلك حق، ولكن يظن أن الذين قالوا هذا النفي اقتصروا علىٰ ذلك، وليس كذلك.. وهذا هو الذي أوقع الاتحادية في قولهم: هو نفس الموجودات، إذ لم تجد قلوبهم موجوداً إلا هذه الموجودات» ا.هـ.

▫ **السبب السابع: تلاعب الشياطين بهم:**

قال الشيخ أثناء بيانه لضلال هؤلاء الاتحادية: «وهؤلاء تأتيهم أرواح تخاطبهم وتتمثل لهم وهي جن وشياطين فيظنونها ملائكة، كالأرواح التي تخاطب من يعبد الكواكب والأصنام.. وهذه الأرواح الشيطانية هي الروح الذي يزعم صاحب الفتوحات أنه ألقَىٰ إليه ذلك الكتاب، ولهذا يذكر أنواعاً من الخلوات بطعام معين وشيء معين، وهذه مما تفتح لصاحبها اتصالاً بالجن والشياطين فيظنون ذلك من كرامات الأولياء، وإنما هو من الأحوال الشيطانية، وأعرف من هؤلاء عدداً، ومنهم من كان يُحمل في الهواء إلىٰ مكان بعيد ويعود، ومنهم من كان يؤتىٰ بمال مسروق تسرقه الشياطين وتأتيه به، ومنهم من كانت تدله علىٰ السرقات بجُعل يحصل له من الناس، أو بعطاء يعطونه إذا دلهم علىٰ سرقاتهم ونحو ذلك» ا.هـ.

□ **السبب الثامن: تقليدهم لمشايخهم، واستكبارهم عن قبول الحق:**

قال الشيخ أثناء كلامه عن مشابهة أهل الحلول والاتحاد للنصارىٰ: «وعامة هؤلاء إذا خوطبوا ببيان فساد قولهم، قالوا من جنس قول النصارىٰ: هذا أمر فوق العقل، ويقول بعضهم ما كان يقوله التلمساني لشيخ أهل الوحدة، يقول: ثبت عندنا في الكشف ما يناقض صريح النقل، ويقولون لمن أراد أن يسلك سبيلهم: دع العقل والنقل، أو اخرج من العقل والنقل.. **وهؤلاء مقلدون لمشايخهم متّبعون لهم فيما يخرجون به عن شريعة الرسول**،.. وإذا اعتُرِض علىٰ أحد منهم يقولون: الشيخ يسلّم له حاله، ولا يُعترض عليه» ا.هـ.

✍ حادي عشر: حقيقة مذهب الاتحادية:

الاتحادية وإن بطّنوا مذهبهم بما يظهر تعظيمهم للدين، إلا أن حقيقة مذهبهم الكفر بعينه، ومن تأمل مذهبهم عرف حقيقته وما يفضي إليه، وفيما يلي بيان ذلك:

أ ـ كفروا بالأصول الثلاثة العُظمىٰ التي دعت إليها الرسل:

قال الشيخ: «.. فآل الأمر بهم إلىٰ أن ألحدوا في الأصول الثلاثة التي اتفقت عليها الملل، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة]، فأفضىٰ الأمر بمن سلك سبيل هؤلاء إلىٰ الإلحاد في الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، وسرىٰ ذلك في كثير من الخائضين في الحقائق من أهل النظر والتأله من أهل الكلام والتصوف، حتىٰ آل الأمر بملاحدة المتصوفة كابن عربي صاحب فصوص الحكم وأمثاله، إلىٰ أن جعلوا الوجود

واحداً، وجعلوا وجود الخالق هو وجود المخلوق، وهذا تعطيل للخالق» ا. هـ.

ب ـ قولهم بصحة جميع العقائد:

قال الشيخ: «**حقيقة مذهب الاتحادية كصاحب الفصوص ونحوه الذي يؤول إليه كلامهم ويصرحون به في مواضع: أن الحقائق تتبع العقائد، وهذا أحد أقوال السوفسطائية، فكل من قال شيئاً أو اعتقده فهو حق في نفس هذا القائل المعتقد**» ا. هـ.

ج ـ عندهم أنه لا فرق بين أن يكون الرجل يهودياً أو نصرانياً أو مسلماً!!

قال الشيخ: «ولهذا كان هؤلاء كابن سبعين ونحوه، يعكسون دين الإسلام، فيجعلون أفضل الخلق المحقق عندهم، وهو القائل بالوحدة، وإذا وصل إلىٰ هذا فلا يضره عندهم أن يكون يهودياً أو نصرانياً، بل كان ابن سبعين وابن هود والتلمساني وغيرهم، يسوغون للرجل أن يتمسك باليهودية والنصرانية كما يتمسك بالإسلام، ويجعلون هذه طرقاً إلىٰ اللَّه، بمنزلة مذاهب المسلمين، ويقولون لمن يختص بهم من اليهود والنصارىٰ: إذا عرفتم التحقيق، فلن يضركم بقاؤكم علىٰ ملتكم، بل يقولون مثل هذا للمشركين عباد الأوثان» ا. هـ.

د ـ قولهم: إن النصارىٰ كفروا لأنهم خصوا الحلول بشخص واحد، ولو عمموا ما كفروا:

وذلك أنهم: لما قالوا بصحة جميع العقائد، وأن كل من عبد شيئاً فقد عبد اللَّه!! أُورد عليهم: أن النصارىٰ كفار، فقالوا: سبب كفرهم أنهم خصُّوا الحلول بعيسىٰ ولو عمموه ما كفروا!!

قال الشيخ أثناء كلامه عن ابن عربي وشيعته: «وغلاة هؤلاء يقولون: إنه عين الموجودات، والوجود واحد، . . وهؤلاء يقولون:

إن النصارىٰ إنما كفروا لأنهم خصوا ذلك بالمسيح[(١)]» ا.هـ.

ثاني عشر: دليلهم على صحة جميع العقائد:

استدلوا بقوله تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، **وجه استدلالهم: قالوا: إن قوله تعالىٰ:** ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾، بمعنىٰ: قدَّر، وان اللَّه سبحانه ما قضىٰ بشيء إلا وقع، فلما قضىٰ أن يُعبد علمنا أنه لم يُعبد إلا هو!!.

الرد عليهم:

قال الشيخ: «وأما القضاء: فكوني، وديني، فقال في الكوني: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢]، وقال في الديني: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي: أمر، وليس المراد به: قدر ذلك» ا.هـ.

ثالث عشر: إسقاطهم للحلال والحرام:

قال الشيخ في بيانه لقسمين من أهل الضلال: «من يشاهد ربوبية اللَّه تعالىٰ لعباده التي عمت جميع البرايا، ويظن أن دين اللَّه الموافقة للقدر سواء كان في ذلك عبادة اللَّه وحده لا شريك له، أو كان فيه عبادة الأوثان واتخاذ الشركاء والشفعاء من دونه، وسواء كان فيه الإيمان بكتبه ورسله، أو الإعراض عنهم والكفر بهم، وهؤلاء يسوون بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات وبين المفسدين في الأرض، وبين المتقين والفجار، ويجعلون المسلمين كالمجرمين» ا.هـ.

رابع عشر: قولهم: إن القرآن كله شرك، والتوحيد في كلامنا:

قال الشيخ: «وحدثني الثقة أنه قرأ عليه فصوص الحكم لابن

---

(١) فصوص الحكم (ص: ٢٣٢).

عربي وكان يظنه من كلام أولياء اللَّه العارفين فلما قرأه رآه يخالف القرآن قال: فقلت له: هذا الكلام يخالف القرآن فقال: القرآن كله شرك وإنما التوحيد في كلامنا وكان يقول: ثبت عندنا في الكشف ما يخالف صريح المعقول» ا.هـ.

خامس عشر: قولهم: إن الخالق مفتقر في وجوده إلى المخلوق:

قال الشيخ: «وقد ضرب أهل الإلحاد القائلون بوحدة الوجود، وأن وجود الخالق هو وجود المخلوق، للَّه أمثالاً باطلة شر من أقوال النصارىٰ،.. **ومنها**: أن الشعاع عَرَض مفتقر إلىٰ الزجاج، فهو مفتقر إليه افتقار العَرَض إلىٰ محلّه، فيلزم إذا مثّلوا به الرب أن يكون الرب مفتقراً إلىٰ كل ما سواه، مع غنىٰ كل ما سواه عنه، وهذا قلب كل حقيقة، وأعظم كفر بالخالق تعالىٰ، فإنه سبحانه الغني عن كل ما سواه، وكل ما سواه مفتقر إليه» ا.هـ.

سادس عشر: حقيقة قولهم هو قول فرعون:

قال: «وفرعون هو إمام النفاة ولهذا صرح محققو النفاة بأنهم علىٰ قوله كما يصرح به الاتحادية(١) من الجهمية النفاة» ا.هـ.

وقال: «.. حتىٰ حدثني الثقة: عن بعض طواغيتهم أنه قال: نحن

---

(١) قال ابن عربي: «(لما كان فرعون في منصب التحكم صاحب السيف، وإنْ جار في العرف الناموسي كذلك قال: أنا ربكم الأعلىٰ ـ أي: وإن كان الكل أرباباً بنسبةٍ ما فأنا الأعلىٰ منكم بما أُعطيته في الظاهر من الحكم فيكم)، وقال: (ولما علمت السحرة صدق فرعون فيما قاله أقروا له بذلك وقالوا: (اقض ما أنت قاض إنما تقضىٰ هذه الحياة الدنيا)، قالوا: فصح قول فرعون: أنا ربكم الأعلىٰ، وكان فرعون عين الحق) ا.هـ. فصوص الحِكم (ص: ٤١٣ ـ ٤١٤).

علىٰ قول فرعون، ولهذا يعظمون فرعون في كتبهم تعظيماً كثيراً» ا. هـ.

✍ **سابع عشر: قولهم يشبه قول الدجال، بل هم أتباعه:**

قال الشيخ: «وهؤلاء من جنس أتباع الدجال الذي يدعىٰ الإلهية ليُتبع مع أن الدجال يقول للسماء: أمطري فتمطر، وللأرض: أنبتي فتنبت، وللخربة: أخرجي كنوزك، فتخرج معه كنوز الذهب والفضة، ويقتل رجلاً مؤمناً ثم يأمر به فيقوم ومع، هذا فهو الأعور الكذاب الدجال، فمن ادعىٰ الإلهية بدون هذه الخوارق: كان دون هذا الدجال» ا. هـ.

✍ **ثامن عشر: قولهم: إن عُبّاد الأصنام على صواب، لأنهم ما عبدوا في الحقيقة إلا الله:**

يقول الاتحادية: إن عُبّاد الأصنام أخطئوا لما عبدوا بعض المظاهر دون بعض، ولو أنهم عبدوا كل شيء لكان أوفق لهم.

قال الشيخ: «وكذلك يقولون في عُباد الأصنام: إنما أخطئوا لما عبدوا بعض المظاهر دون بعض، فلو عبدوا الجميع لما أخطئوا عندهم، والعارف المحقق عندهم لا يضره عبادة الأصنام، وهذا مع ما فيه من الكفر العظيم ففيه ما يلزمهم دائماً من التناقض، لأنه يقال لهم: فمن المُخطئ؟ لكنهم يقولون: إن الرب هو الموصوف بجميع النقائص التي يوصف بها المخلوق، ويقولون: إن المخلوقات توصف بجميع الكمالات التي يوصف بها الخالق» ا. هـ.

✍ **تاسع عشر: قولهم: إن بني إسرائيل في عبادة العجل كانوا على حق وصواب، لأنهم في الحقيقة ما عبدوا إلا الله:**

قال الشيخ: «ومدح عباد العجل وتنقص هارون، وافترىٰ علىٰ موسىٰ فقال: «وكان موسىٰ أعلم بالأمر من هارون لأنه عَلِم ما عبده

أصحاب العجل، لعلمه بأن اللَّه قد قضىٰ أن لا يعبد إلا إياه، وما قضىٰ اللَّه بشيء إلا وقع، فكان عتب موسىٰ أخاه هارون لما وقع الأمر في إنكاره وعدم اتساعه، فإن العارف من يرىٰ الحق في كل شيء بل يراه عينَ كلِّ شيء»[١]، . . **قلت لبعض هؤلاء**: هذا الكلام الذي ذكره هذا عن موسىٰ وهارون يوافق القرآن أو يخالفه؟ **فقال**: لا، بل يخالفه! **قلت**: فاختر لنفسك: إما القرآن، وإما كلام ابن عربي؟» ا.هـ.

عشرون: ردّ الشيخ ـ رداً عاماً ـ على تصويب ابن عربي وشيعته عبادة الأصنام، وعبادة بني إسرائيل للعِجل.

فقال: «.. وهذا من أظهر الفرية علىٰ اللَّه وعلىٰ كتابه وعلىٰ دينه وعلىٰ أهل الأرض، فإن اللَّه في غير موضع أخبر: أن المشركين عبدوا غير اللَّه بل يعبدون الشيطان، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس]. . وهؤلاء الملحدون يقولون: ما عبدنا غير اللَّه في كل معبود، . . فإن القائلين بأن وجود الخالق هو وجود المخلوق هم أعظم افتراءً ممن يقول إنه يحل فيه، وهؤلاء يُجهِّلون من يقول بالحلول أو يقول بالاتحاد وهو أن الخالق اتحد مع المخلوق، فإن هذا إنما يكون إذا كان شيئان متباينان ثم اتحد أحدهما بالآخر. . فإنهم يقولون: ما ثَمَّ غيرٌ ولا سِوىٰ» ا.هـ.

حادي وعشرون: أما الأدلة التي استدل بها الاتحادية على مذهبهم في الحلول والاتحاد، فيمكن بالاستقراء حصرها فيما يأتي:

---

(١) هذا نص كلام ابن عربي في كتابه: فصوص الحِكم، (ص: ٣٦٠ ـ ٣٦١).

الدليل الأول: قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]:

وجه استدلالهم: قال الشيخ: «وأما قول القائل: إن قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.. فهذا بناء علىٰ قول أهل الوحدة والاتحاد، وجعل معنىٰ قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾: أن فعلك هو فعل اللَّه لعدم المغايرة» ا.هـ.

ثم بين الرد عليهم بقوله: «وهذا ضلال عظيم من وجوه:

أحدها: أن قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، نزل في سياق قوله: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [آل عمران]، وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ: كان يدعو علىٰ قوم من الكفار أو يلعنهم في القنوت فلما أنزل اللَّه هذه الآية: تَرَك ذلك[1]، **فعُلِم أن معناها:** إفراد الرب تعالىٰ بالأمر وأنه ليس لغيره أمر، بل إن شاء اللَّه تعالىٰ قطع طرفاً من الكفار وإن شاء كبتهم فانقلبوا بالخسارة، وإن شاء تاب عليهم، وإن شاء عذبهم» ا.هـ.

الدليل الثاني: آيات المعية والقرب:

كقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]. قال الشيخ أثناء كلامه عن علوّ اللَّه تعالىٰ:

«والمقصود: **أنه تعالىٰ وصف نفسه أيضاً بالمعية والقرب**، والمعية معيتان: عامة وخاصة:

فالأولىٰ: كقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾. والثانية: كقوله:

---

(١) رواه البخاري من حديث: سالم بن عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهم، ومسلم من حديث: أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل]. . وأما (القرب) فهو كقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ [الواقعة: ٨٥]. . وكثير من الجهمية عبادهم وصوفيتهم وعوامهم يقولون: إنه عين وجود المخلوقات كما يقوله أهل الوحدة، القائلون بأن الوجود واحد، ومن يكون قوله مركباً من الحلول والاتحاد، وهم يحتجون بنصوص المعية والقرب ويتأولون نصوص العلو والاستواء، وكل نص يحتجون به حجة عليهم، فإن المعية أكثرها خاصة بأنبيائه وأوليائه، وعندهم أنه في كل مكان وفي النصوص ما يبين نقيض قولهم، . . والمعية لا تدل علىٰ الممازجة والمخالطة، وكذلك لفظ القرب فإن عند الحلولية أنه في حبل الوريد كما هو عندهم في سائر الأعيان، وكل هذا كفر وجهل بالقرآن» ا. هـ.

الدليل الثالث: قوله تعالىٰ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]:

وجه استدلالهم: بيّنه الشيخ بقوله «وقالوا: قوله: ألا كل شيء ما خلا اللَّه باطل، والباطل: هو المعدوم، فكل ما سوىٰ اللَّه معدوم، والموجود ليس بمعدوم، فالموجود ليس فيه سِوَىٰ، وإنما السِّوَىٰ هو العدم» ا. هـ

الرد عليهم:

قال الشيخ رادّاً عليهم: «وهذا يبين بوجوه بعضها يشير إلىٰ الرجحان، وبعضها يشير إلىٰ البطلان:

الأول: أنه لم يقل: كل شيء هالك إلا من جهته، إلا من وجهه، ولكن قال: ﴿إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾، وهذا يقتضي أن ثَمَّ أشياء تهلك إلا وجهه، فإن أريد بوجهه: وجوده اقتضىٰ أن كل ما سوىٰ وجوده هالك، فيقتضي: أن تكون المخلوقات هالكة، . .

الوجه الثاني: وهو أنه إذا قيل المراد بالهالك: الممكن الذي لا

وجود له من جهته، فيكون المعنىٰ: كل شيء ليس وجوده من نفسه، إلا هو، قيل استعمال لفظ الهالك في الشيء الموجود المخلوق لأجل أن وجوده من ربه لا من نفسه: لا يعرف في اللغة لا حقيقة ولا مجازاً والقرآن قد فرَّق في اسم الهلاك بين شيء وشيء..

الوجه الثالث: أن يقال: علىٰ هذا التقدير يكون المعنىٰ: أن كل ما سواه ممكن قابل للعدم ليس وجوده من نفسه، وهذا المعنىٰ ليس هو الذي يقصدونه وإنما مقصودهم أن كل ما سواه فوجوده منه، وبين المعنيين فرق واضح، فإن الخبر عن الشيء بأنه ممكن قابل العدم ليس وجوده من نفسه، غير الخبر عنه بأنه موجود وإن وجوده من اللَّه.

الوجه الرابع: أن يقال: إذا كان المراد: أن كل ما سواه ممكن، والضمير عائد إلىٰ واجب الوجود ـ إلىٰ اللَّه الذي خلق الكائنات ـ كان هذا من باب إيضاح الواضح، فإنه من المعلوم أن كل ما سوىٰ واجب الوجود: فهو ممكن، وأن كل ما هو مخلوق له فهو ممكن» ا.هـ.

الدليل الرابع: قول النبي ﷺ: (أصدق كلمة قالها الشاعر: كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا اللَّه باطل)(١).

وجه استدلالهم: قال الشيخ مبيناً وجه استدلالهم: «وقد غلط طائفة من الناس من الاتحادية وغيرهم كابن عربي، فرأوا أن الحق هو الموجود فكل موجود حق، فقالوا: ما في العالم باطل إذ ليس في العالم عدم، قالوا: والكفر إنما هو عدم وجود الشريك مثلاً وإنما أُتوا من جهة اللفظ المجمل» ا.هـ.

الرد عليهم: قال الشيخ: «حقيقة قول النبي ﷺ: **(أصدق كلمة**

---

(١) رواه البخاري، ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قالها الشاعر: كلمة لبيد:

ألا كل شيء ما خلا اللَّه باطل)(١) فإن الباطل ضد الحق، واللَّه هو الحق المبين، **والحق له معينان: أحدهما**: الوجود الثابت، **والثاني**: المقصود النافع، كقول النبي ﷺ: **(الوتر حق)**(٢).

والباطل نوعان أيضاً:

أحدهما: المعدوم وإذا كان معدوماً كان اعتقاد وجوده والخبر عن وجوده باطلاً، لأن الاعتقاد والخبر تابع للمعتقد المخبر عنه، يصح بصحته، ويبطل ببطلانه، فإذا كان المعتقد المخبر عنه باطلاً، كان الاعتقاد والخبر كذلك، وهو الكذب.

الثاني: ما ليس بنافع ولا مفيد، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص: ٢٧]، . . وما لا منفعة فيه: فالأمر به باطل، وقصده وعمله باطل، إذ العمل به والقصد إليه والأمر به باطل» ا. هـ

الدليل الخامس: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠].

وجه استدلالهم: أن فعل المبايعة صدر أصلاً من النبي ﷺ، ومع ذلك ظاهر الآية يدل علىٰ أنه صدر من اللَّه تعالىٰ في الحقيقة.

الرد عليهم:

قال الشيخ: «قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ لم يرد به أنك أنت اللَّه وإنما أراد أنك أنت رسول اللَّه ومبلغ أمره ونهيه، فمن بايعك فقد بايع اللَّه كما أن من أطاعك فقد أطاع اللَّه، ولم يرد بذلك أن الرسول هو اللَّه، ولكن الرسول أمر بما أمر اللَّه

---

(١) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه أبو داود عن بريدة رضي الله عنه، والنسائي عن أبي أيوب رضي الله عنه.

به، فمن أطاعه فقد أطاع اللَّه، كما قال النبي ﷺ: (**من أطاعني فقد أطاع اللَّه ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصاني فقد عصىٰ اللَّه ومن عصىٰ أميري فقد عصاني**)[١] ومعلوم أن أميره ليس هو إياه.

ومن ظن في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ أن المراد به أن فعلك هو فعل اللَّه، أو المراد أن اللَّه حالٌ فيك، ونحو ذلك فهو ـ مع جهله وضلاله، بل كفره وإلحاده ـ قد سلب الرسول خاصيته..

ومعلوم: أن يد النبي ﷺ كانت مع أيديهم كانوا يصافحونه ويصفقون علىٰ يده في البيعة، فعلم أن يد اللَّه فوق أيديهم ليست هي يد النبي ﷺ ولكن الرسول عبدُ اللَّه ورسوله فبايعهم عن اللَّه، وعاهدهم وعاقدهم عن اللَّه، فالذين بايعوه بايعوا اللَّه الذي أرسله وأمره ببيعتهم، ألا ترىٰ أن كلَّ من وكَّل شخصاً يعقد مع الوكيل: كان ذلك عقداً مع الموكِّل، ومن وكَّل نائباً له في معاهدة قوم فعاهدهم عن مستنيبه: كانوا معاهدين لمستنيبه» ا.هـ.

الدليل السادس: قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

وجه استدلالهم: أن فعل الرمي صدر أصلاً من النبي ﷺ، ومع ذلك ظاهر الآية يدل علىٰ أنه صدر من اللَّه تعالىٰ في الحقيقة.

الرد عليهم: قال الشيخ: «قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ لم يرد به أن فعل العبد هو فعل اللَّه تعالىٰ، كما تظنه طائفة من الغالطين، فإن ذلك لو كان صحيحاً:

لكان ينبغي أن يقال لكل أحد، حتىٰ يقال للماشي: ما مشيت

---

(١) رواه البخاري، ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

إذ مشيت ولكن اللَّه مشىٰ. . وطرد ذلك يستلزم أن يقال للكافر: ما كفرت إذ كفرت ولكن اللَّه كفر. . ومن قال مثل هذا: فهو كافر ملحد خارج عن العقل والدين.

ولكن معنىٰ الآية: أن النبي ﷺ يوم بدر رماهم ولم يكن في قدرته أن يوصل الرمي إلىٰ جميعهم فإنه إذ رماهم بالتراب، وقال: (شاهت الوجوه)[١] لم يكن في قدرته أن يوصل ذلك إليهم كلهم، فاللَّه تعالىٰ أوصل ذلك الرمي إليهم كلهم بقدرته، يقول: وما أوصلت إذ حذفت ولكن اللَّه أوصل» ا.هـ.

الدليل السابع: قوله ﷺ: (إن اللَّه يتجلىٰ لهم يوم القياة، ثم يأتيهم في صورة غير الصورة التي رأوه فيها أول مرة. .):

قال الشيخ: «وكذلك قد يحتجون بما في الحديث الصحيح: **(إن اللَّه يتجلىٰ لهم يوم القيامة، ثم يأتيهم في صورة غير الصورة التي رأوه فيها أول مرة، فيقول: أنا ربكم فيقولون: نعوذ باللَّه منك، هذا مكاننا حتىٰ يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه، ثم يأتيهم في الصورة التي رأوه فيها في أول مرة، فيقول: أنا ربكم فيقولون: أنت ربنا)**[٢]» ا.هـ.

وجه استدلالهم: قالوا: ما دام أن اللَّه تعالىٰ يأتي يوم القيامة في غير صورته الحقيقية، فلا يمنع ذلك أن يتجلىٰ في الدنيا ويظهر بصُوَر متنوعة ـ تعالىٰ اللَّه وتقدس عما يقولون ـ.

قال الشيخ: «فيجعلون هذا حجة لقولهم: إنه يُرىٰ في الدنيا في كل صورة بل هو كل صورة» ا.هـ.

---

(١) رواه مسلم، عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه.
(٢) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الرد عليهم: قال الشيخ: «وهذا الحديث حجة عليهم في هذا أيضاً، فإنه لا فرق عندهم بين الدنيا والآخرة، وهو عندهم، في الآخرة، المنكرون الذين قالوا نعوذ باللَّه منك هذا مكاننا حتىٰ يأتينا ربنا.

وهؤلاء الملاحدة يقولون: إن العارف يعرفه في كل صورة، فإن الذين أنكروه يوم القيامة في بعض الصور كان لقصور معرفتهم، **وهذا جهل منهم:** فإن الذين أنكروه يوم القيامة ثم عرفوه لما تجلىٰ لهم في الصورة التي رأوه فيها أول مرة، هم الأنبياء والمؤمنون وكان إنكارهم مما حمدهم، سبحانه وتعالى، عليه فإنه امتحنهم بذلك حتىٰ لا يتبعوا غير الرب الذي عبدوه، فلهذا قال في الحديث: **(وهو يسألهم ويثبتهم وقد نادىٰ المنادىٰ: ليتبع كل قوم ما كانوا يعبدون)**[1]» ا.هـ.

✍ ثاني وعشرون: حكم الاتحادية عموماً:

بيَّن الشيخ أن معتدلي الصوفية يكفرون القائلين بالحلول والاتحاد، ونقل تكفير أبي عبد اللَّه محمد بن خفيف لهم.

فقال أثناء سياقه لمعتقد ابن خفيف الذي وافق فيه أهل السنة: «ومن زعم أنه قد خرج عن رق العبودية إلىٰ فضاء الحرية بإسقاط العبودية، والخروج إلىٰ أحكام الأحدية المسدية بعلائق الآخرية: فهو كافر لا محالة» ا.هـ.

✍ ثالث وعشرون: توبة من تاب من الاتحادية، هل تقبل؟

أجاب الشيخ عن ذلك بقوله: «وأما توبة من قالها وموته علىٰ الإسلام: . . والكفر وإن غلظ وجَسُم فإن التوبة تمحوْ ذلك كلَّه، واللَّه سبحانه لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لمن تاب، بل يغفر الشرك

---

(١) رواه البخاري عن أبي سعيد رضي الله عنه.

وغيره للتائبين، . . وأما قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] فإنها مقيدة خاصة، لأنها في حق غير التائبين لا يغفر لهم الشرك، وما دون الشرك معلق بمشيئة اللّٰه تعالىٰ» ا. هـ.

أما حكم الشيخ علىٰ رؤوس الاتحادية: فقال: «وهكذا هؤلاء الاتحادية: فرؤوسهم هم أئمة كفر يجب قتلهم، ولا تقبل توبة أحد منهم إذا أُخذ قبل التوبة، فإنه من أعظم الزنادقة، الذين يظهرون الإسلام ويبطنون أعظم الكفر» ا. هـ.

وقال الشيخ أثناء ذمه للملاحدة الاتحادية: «. . وهؤلاء المنافقون المرتدون الزنادقة، ومن وقع في بعض ضلالاتهم من الغالطين. . » ا. هـ.

ونخلص مما سبق من كلام شيخ الإسلام أن القول بالحلول والاتحاد بين الخالق والمخلوق قولٌ محدَثٌ، بل بدعة تخرج صاحبها من ملة الإسلام، وقد أُدخلت إلىٰ الإسلام من دين النصارىٰ واليهود، ولا يقبل العقل أبداً أن يحل الإله العظيم في المخلوق الضعيف، فكيف لو قيل بالاتحاد معه؟!، بل الرب ﷻ مستوٍ علىٰ عرشه، بائن من خلقه، ولا يمكن أن يقع بينه وبين المخلوق مماسة أو اختلاط أو اتحاد.

وقد ردَّ شيخ الإسلام علىٰ الشبهات العقلية والنقلية التي تمسك بها القائلون بالحلول والاتحاد، وقد بان الصبح لذي عينين.



الفصل الثاني: توحيد الألوهية

المبحث الأول

الغلو في الأشخاص

تمهيد:

توحيد الألوهية: هو إفراد الخالق تعالىٰ بالعبادة وإخلاص الدين له وحده، وهو النوع الثاني من أنواع التوحيد، وهو الذي بعث اللّٰه لأجله الرسل وأنزل الكتب، وما وقع شرك قريش وغيرهم إلا فيه، وتوحيد الألوهية مشتق من لفظ «الإله» والإله هو المعبود مطلقاً بحق أو بغير حق، فهو يُطلق علىٰ اللّٰه تعالىٰ كما يُطلق علىٰ غيره من المعبودات الباطلة وإن كانت باطلة.

ومن أكبر القوادح في توحيد الألوهية: تعظيم الأشخاص والغلوّ فيهم، والصوفية وقع أكثرهم في صور متعددة من هذا الغلوّ، مما جرّهم إلىٰ الشرك، وصرف أنواع من العبادة لغير اللّٰه تعالىٰ، وقد بيَّن الشيخ غلو المتصوفة في مشايخهم، وردّ عليهم بما يدمغ باطلهم، ويطفئ نارهم.

والغُلُوُّ - بضم الغين واللام - هو: مجاوزة الحدّ، يقال غلا في الشيء إذا أفرط فيه وجاوز فيه الحدّ، والخروج عن الحد الشرعي بالإفراط في محبة شخص ما، أو تعظيمه، وإنزاله فوق منزلته التي جعلها اللّٰه تعالىٰ له: يسمىٰ: غُلواً، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٢١].

وفيما يلي بيان ما ذكره الشيخ في ذلك:

أولاً: الصوفية ـ عموماً ـ يُفرِطون في تعظيم مشايخهم[١]:

قال الشيخ مبيناً ذلك: «.. وبعض المتصوفة: المريد يعتقد أن شيخه أكمل شيخ علىٰ وجه الأرض، وطريقته أفضل الطرق وكلاهما انحراف» ا.هـ.

ثانياً: أشار الشيخ إلى رغبة أكثر الناس من المشايخ وغيرهم في العلوّ في الأرض، والارتفاع على الأقران، وأن هذا يقع من كثير من الملوك والمشايخ:

فقال: «.. وهذه حال فرعون، والواحد من هؤلاء يريد أن يطاع أمره بحسب إمكانه، لكنه لا يتمكن مما تمكن منه فرعون من دعوىٰ الإلهية وجحود الصانع، وهؤلاء وإن أقروا بالصانع فإذا جاءهم من يدعوهم إلىٰ عبادة اللَّه المتضمنة ترك طاعتهم عادوه كما عادىٰ فرعون موسىٰ عليه السلام، وكثير من الناس عنده عقل وإيمان لا يطلب هذا الحد، بل تطلب نفسه ما هو عنده، فإذا كان مطاعاً مسلماً طلب أن يطاع في أغراضه وإن كان فيها ما هو ذنب ومعصية للَّه، ويكون من أطاعه أحب إليه وأعز عنده ممن أطاع اللَّه وخالف هواه، وهذه شعبة من حال فرعون، وسائر المكذبين للرسل وإن كان عالماً أو شيخاً أحب من يعظمه دون من يعظم نظيره، وربما أبغض نظيره حسداً وبغياً» ا.هـ.

---

(١) الصوفية يعرفون الشيخ تعريفاً يوحي بالغلو فيه والتسليم له فيما يقول ويفعل، ومن هذه التعريفات ما ذكره الكاشاني بقوله: «الشيخ هو الإنسان الكامل في علوم الشريعة والطريقة والحقيقة، البالغ إلىٰ حدّ التكميل فيها؛ لعلمه بآفات النفوس وأمراضها وأدواتها، ومعرفته بذواتها، وقدرته علىٰ شفائها، والقيام بهداها، إن استعدت ووُفّقت لاهتدائها» ا.هـ.

✍ ثالثاً: بيَّن الشيخ أن بعض المشايخ لفرط اغتراره بنفسه يدعي أنه المهدي المنتظر، وأن له تصرفاً في الكون:

فقال: «وكان شيخ آخر معظم عند أتباعه يدعي هذه المنزلة، ويقول: إنه المهدي الذي بشر به النبي ﷺ، وأنه يزوج عيسىٰ ﷺ بابنته، وأن نواصي الملوك والأولياء بيده، يولِّي من يشاء، ويعزل من يشاء، وأن الرب يناجيه دائماً، وأنه هو الذي يمد حملة العرش وحيتان البحر، وقد عزَّرته تعزيراً بليغاً في يوم مشهود، بحضرة من أهل المسجد الجامع يوم الجمعة بالقاهرة، وانكسر بسببه أشباهه من الدجاجلة» ا. هـ.

✍ رابعاً: أكثر المشايخ الذين يدعون القدرة والتمكن، وقد يدعون شيئاً من الإلهية، يتشبعون بما لم يُعطوا، فيدعي أحدهم القدرة على العظائم ثم يقعد شحاذاً في الطريق!:

قال الشيخ: «فهكذا شيوخ الدعاوىٰ والشطح، يدعي أحدهم الإلهية وما هو أعظم من النبوة ويعزل الرب عن ربوبيته، والنبي عن رسالته، ثم آخرته شحاذ يطلب ما يقيته، أو خائف يستعين بظالم علىٰ دفع مظلمته، فيفتقر إلىٰ لقمة ويخاف من كلمة، فأين هذا الفقر والذل من دعوىٰ الربوبية المتضمنة للغنىٰ والعز؟!» ا. هـ.

✍ خامساً: بين الشيخ أن بعض أتباع المشايخ الضلال، لشدة افتتانهم بهؤلاء المشايخ قد يحلف المريد بالله تعالى كاذباً، ولا يحلف بشيخه كاذباً، فصارت عظمة الشيخ في نفسه أكبر من عظمة الله:

قال الشيخ: «ومن هؤلاء من يحلف باللَّه ويكذب، ويحلف بشيخه وإمامه فيصدق ولا يكذب، فيكون شيخه عنده أعظم في صدره من اللَّه، وقد قال شعيب: ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [هود: ٩٢]» ا. هـ.

✍ سادساً: حكم شيخ الإسلام بالكفر على كل من غلا في أحد من المشايخ، أو أوصله إلى حدّ الألوهية:

فقال: «فصلٌ: وكذلك الغلو في بعض المشايخ.. وجعل فيه نوعاً من الإلهية مثل أن يقول: كل رزق لا يرزقنيه الشيخ فلان ما أريده، أو يقول إذا ذبح شاة باسم سيدي، أو يعبده بالسجود له أو لغيره، أو يدعوه من دون اللّه تعالىٰ مثل أن يقول: يا سيدي فلان.. أغثني، أو: أجرني،.. أو نحو هذه الأقوال والأفعال، التي هي من خصائص الربوبية التي لا تصلح إلا للّه تعالىٰ، فكل هذا شرك وضلال» ا.هـ.

✍ سابعاً: لا يجوز أن يُنصِّبَ الشخصُ أحداً يوالي من أجله ويُعادي، ويجعل كلامه حجة على غيره، يحكم على كلام الناس به تخطِئةً وتصويباً:

قال الشيخ: «فلا يجوز لأحد أن يجعل الأصل في الدين لشخص إلا لرسول اللّه ﷺ، ولا لقول إلا لكتاب اللّه ﷻ، ومن نصب شخصاً كائنا من كان فوالىٰ وعادىٰ علىٰ موافقته في القول والفعل فهو ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾الآية [الأنعام: ١٥٩]» ا.هـ.

✍ ثامناً: أكثر المتصوفة لشدة غلوّهم في مشايخهم يقلدونهم في كل شيء، حقاً كان أو باطلاً:

قال الشيخ أثناء كلامه عن ضلال الاتحادية: «وكل هؤلاء يجد نفسه مضطربة في هذا الاعتقاد لتناقضه في نفسه، وإنما يسكن بعض اضطرابه نوع تقليد لمعظم عنده، أو خوفه من مخالفة أصحابه، أو زعمه أن هذا من حكم الوهم والخيال دون العقل» ا.هـ.

ومما سبق يتبين لنا أن هذا الغلوّ الذي وقع فيه المتصوفة في مشايخهم ومعَظِّميهم، جرّهم إلىٰ شركيات أخرجت فريقاً منهم غير

قليل من دائرة الإسلام، وهذا الغلو الذي وقعوا فيه ظهر في صور متنوعة مختلفة، وقد بين الشيخ عدداً من هذه المظاهر والصور عند الصوفية.

ويمكن بيان ما ذكره الشيخ فيما يلي: **مظاهر تقديس الصوفية لمشايخهم:**

أولاً: تقسيمهم المشايخ إلى درجات وطبقات (القطب، الغوث،..):

قال الشيخ: «أما الأسماء الدائرة علىٰ ألسنة كثير من النساك والعامة مثل: (الغوث) الذي بمكة، و(الأوتاد الأربعة) و(الأقطاب السبعة) و(الأبدال الأربعين) و(النجباء الثلاثمائة): فهذه أسماء ليست موجودة في كتاب اللَّه تعالىٰ، ولا هي أيضاً مأثورة عن النبي ﷺ بإسناد صحيح ولا ضعيف، يحمل (عليه) ألفاظ الأبدال، فقد روي فيهم حديث شامي منقطع الإسناد عن علىٰ بن أبىٰ طالب مرفوعاً إلىٰ النبي ﷺ أنه قال: (**إن فيهم ـ يعنىٰ أهل الشام ـ الأبدال الأربعين رجلاً، كلما مات رجل أَبدلَ اللَّه تعالىٰ مكانه رجلاً**)[1].. **فأما لفظ: الغوث والغياث:** فلا يستحقه إلا اللَّه، فهو غياث المستغيثين، فلا يجوز لأحد الاستغاثة بغيره، ولا بِمَلَك مقرب ولا نبي مرسل» ا.هـ.

وقال الشيخ: «وأما سؤال السائل عن: القطب الغوث الفرد الجامع[2] ....

(١) الحديث: أخرجه الإمام أحمد والأزدي، وفيه: ذُكر أهل الشام عند علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو بالعراق فقالوا: العنهم يا أمير المؤمنين! قال: لا؛ إني سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: الأبدال يكونون بالشام وهم أربعون رجلاً كلما مات رجل أبدل اللَّه مكانه رجلاً يسقىٰ بهم الغيث وينتصر بهم علىٰ الأعداء ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب.

(٢) القطب الغوث الفرد الجامع: القطب في اللغة: ما عليه مدار الشيء =

النجباء[١]. . النقباء[٢]، . . الإبدال[٣]. . الأوتاد[٤]، . . وهذا كله باطل لا أصل له في كتاب اللّٰه ولا سنة رسوله، ولا قاله أحد من سلف الأمة ولا أئمتها، ولا من المشايخ الكبار المتقدمين الذين يصلحون للاقتداء بهم، ومعلوم أن سيدنا رسول رب العالمين وأبا بكر وعمر وعثمان وعلياً ﷺ كانوا خير الخلق في زمنهم، وكانوا بالمدينة ولم يكونوا بمكة» ا.هـ.

= وملاكه، ومنه قطب الرحىٰ، وعرَّفه الصوفية: بأنه عبارة عن رجل واحد هو موضع نظر اللّٰه تعالىٰ من العالم في كل زمان، يُسمىٰ غوثاً أيضاً باعتبار التجاء الملهوف إليه، وهو خلق علىٰ قلب محمد ﷺ، ويُسمىٰ بقطب الأقطاب، وقطب العالم، والقطب الأكبر، وقطب الإرشاد، وقطب المدار. ا.هـ.

(١) النجباء في اصطلاح الصوفية: هم الأربعون، وهم القائمون بإصلاح أمور الناس، وحمل أثقال الخلق، وذلك لاختصاصهم بوفور الشفقة والرحمة الفطرية، فلا يتصرفون إلا في حق الخلق لا غير.

(٢) النقباء في اصطلاح الصوفية: هم الذين تحققوا باسم الباطن، فأشرفوا علىٰ بواطن الناس، واستخرجوا خفايا الضمائر لانكشاف الستائر لهم عن وجود السرائر، وهم ثلاثمائة.

(٣) والأبدال في اصطلاح الصوفية: هم سبعة رجال يسافر أحدهم عن موضع ويترك جسداً علىٰ صورته، بحيث لا يعرف أحد أنه فقد، وهم علىٰ قلب إبراهيم عليه السلام، قال ابن عربي: إن ثمَّ رجالاً سبعة يقال لهم الأبدال، يحفظ اللّٰه بهم الأقاليم السبعة، لكل بدل إقليم، وإليهم تنظر روحانيات السماوات والأرض. ا. هـ.

(٤) الأوتاد في اصطلاح الصوفية: عرفهم ابن عربي بقوله: الأوتاد عبارة عن أربعة رجال، منازلهم علىٰ منازل أربعة أركان من العالم: شرق وغرب وشمال وجنوب، مع كل واحد منهم مقام تلك الجهة. ا.هـ.

وهؤلاء الأوتاد ـ في زعم الصوفية ـ بهم يحفظ اللّٰه تعالىٰ تلك الجهات الأربع لكونهم محالّ نظر اللّٰه تعالىٰ!.

المظهر الثاني: السجود للمشايخ، وتقبيل الأرض بيَّن أيديهم:

قال الشيخ: «وأما وضع الرأس عند الكبراء من الشيوخ وغيرهم، أو تقبيل الأرض ونحو ذلك، فإنه مما لا نزاع فيه بيَّن الأئمة في النهي عنه، بل مجرد الانحناء بالظهر لغير اللَّه ﷻ منهي عنه، ففي المسند وغيره: (**أن معاذ بن جبل ﷺلما رجع من الشام سجد للنبي ﷺ فقال ما هذا يا معاذ؟ فقال: يا رسول اللَّه! رأيتهم في الشام يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم، ويذكرون ذلك عن أنبيائهم، فقال: كذبوا يا معاذ، لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها، من عظم حقه عليها، يا معاذ! أرأيت إن مررت بقبري أكنت ساجداً؟ قال: لا قال: لا تفعل هذا**)(١)، أو كما قال رسول اللَّه ﷺ، **وبالجملة:** فالقيام والقعود والركوع والسجود حق للواحد المعبود، خالق السماوات والأرض، وما كان حقاً خالصاً للَّه لم يكن لغيره فيه نصيب، مثل الحلف بغير اللَّه ﷻ» ا.هـ.

المظهر الثالث: قولهم: إن المشايخ يُخلِّصون من سوء الحساب يوم القيامة:

قال الشيخ: «من ادّعىٰ أن شيخاً من المشايخ يخلص مريديه يوم القيامة من العذاب: فقد ادعىٰ أن شيخه أفضل من محمد بن عبد اللَّه ﷺ، ومن قال هذا فإنه يستتاب، فإن تاب وإلا قتل؛ . . وثبت عنه في الصحيح أنه قال: (**لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة وعلىٰ رقبته بعير له رُغاء، فيقول: يا رسول اللَّه أغثني! فأقول: لا أغني عنك من اللَّه شيئاً قد بلّغتك**)(٢) . . وقد قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار]» ا.هـ.

---

(١) رواه أحمد في المسند، وأبو داود عن ابن أبي أوفىٰ ﷺ.
(٢) رواه البخاري، ومسلم عن أبي هريرة ﷺ.

المظهر الرابع: اعتقادهم أن المشايخ معصومون:

قال الشيخ: «ومن سالكي طريق الإرادة والعبادة والفقر والتصوف من يجعل شيخه كذلك، بل قد يجعله كالمعصوم! ولا يتلقىٰ سلوكه إلا عنه، ولا يتلقىٰ عن الرسول ﷺ سلوكه، مع أن تلقي السلوك عن الرسول ﷺ أسهل من تلقي الفروع المتنازع فيها» ا.هـ.

المظهر الخامس: اعتقادهم أن المشايخ يعلمون الغيب:

بيَّن الشيخ أن بعض الغالين في المشايخ، يدعي أنهم يعلمون الغيب، كما أن بعض ضلال المشايخ يستعملون الجن في الإخبار بالمغيبات، لتزداد فتنة الناس بهم، فكثير من كلامهم في الغائبات هو من خبر الجن.

قال: «وإذا سئل الشيخ المخدوم عن أمر غائب: إما سرقة، . . فإن الجني قد يمثل ذلك فيريه صورة المسروق، فيقول الشيخ: ذهب لكم كذا وكذا، ثم إن كان صاحب المال معظماً وأراد أن يدله علىٰ سرقته مثل له الشيخُ الذي أخذه، أو المكان الذي فيه المال، فيذهبون إليه فيجدونه كما قال» ا.هـ.

المظهر السادس: اعتقاد سقوط التكاليف عن المشايخ:

قال الشيخ أثناء كلامه عن الصلاة، والرد علىٰ من زعم أنها تسقط عن بعض الناس:

«ومن اعتقد أنها تسقط عن بعض الشيوخ العارفين والمكاشفين والواصلين، أو أن للَّه خواصاً لا تجب عليهم الصلاة، بل قد سقطت عنهم لوصولهم إلىٰ حضرة القدس، أو لاستغنائهم عنها بما هو أهم منها، أو أولىٰ، أو أن المقصود حضور القلب مع الرب. . فمن اعتقد أن هؤلاء أولياء اللَّه فهو كافر مرتد عن الإسلام باتفاق أئمة الإسلام،

ولو كان في نفسه زاهداً عابداً، فالرهبان أزهد وأعبد وقد آمنوا بكثير مما جاء به الرسول ﷺ، وجمهورهم يعظمون الرسول ويعظمون أتباعه، ولكنهم لم يؤمنوا بجميع ما جاء به، بل آمنوا ببعض وكفروا ببعض فصاروا بذلك كافرين، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾﴾ [النساء]» ا. هـ.

المظهر السابع: قولهم: إن بعض المشايخ يسعه الخروج عن الشريعة، كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى ﷺ:

قال الشيخ: «ومَن فَضَّل أحداً من المشايخ علىٰ النبي ﷺ، أو اعتقد أن أحداً يستغني عن طاعة رسول اللّه ﷺ، استُتيب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه، وكذلك من اعتقد أن أحداً من أولياء اللّه يكون مع محمد ﷺ كما كان الخضر مع موسىٰ عليه السلام، فإنه يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه، لأن الخضر لم يكن من أمة موسىٰ عليه السلام، ولا كان يجب عليه طاعته، بل قال له: **(إني علىٰ علم من علم اللّه علمنيه اللّه لا تعلمه، وأنت علىٰ علم من علم اللّه علّمكه اللّه لا أعلمه)**[1]، وكان مبعوثاً إلىٰ بني إسرائيل، كما قال نبينا ﷺ: **(وكان النبي يبعث إلىٰ قومه خاصة وبعثت إلىٰ الناس عامة)**[2]، ومحمد ﷺ مبعوث إلىٰ

---

(١) رواه البخاري ومسلم عن أبي بن كعب رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري، ومسلم عن جابر رضي الله عنه.

جميع الثقلين: إنسهم وجنهم فمن اعتقد أنه يسوغ لأحد الخروج عن شريعته وطاعته فهو كافر يجب قتله» ا.هـ.

المظهر الثامن: اعتقادهم أن الشيخ ينصر ويرزق ويهدي، وقد يُعطى قول: «كُن»؛ فيكون:

قال الشيخ: «ومن قال إن أحداً من أولياء اللَّه يقول للشيء: «كن» فيكون، فإنه يُستتاب، فإن تاب وإلا قُتل، فإنه لا يقدر على ذلك أحد إلا اللَّه ﷻ، وليس كل ما يريده ابن آدم يحصل له، ولو كان مَن كان» ا.هـ.

ومما سبق يتبين لنا أن المتصوفة أو أكثرهم بالغوا في تعظيم المخلوقين، وأنزلوا مشايخهم في منازل الأنبياء، بل في منازل الألوهية أحياناً، وإذا تأملت في نظرتهم القدسية للولي والقطب والشيخ.. الخ، تجد أنهم لم يتركوا شيئاً مما يصرف للَّه تعالى من عبادات إلا صرفوه لهؤلاء، كالدعاء، والاستغاثة، ومعرفة ما في القلوب، وجلب النفع والضرّ، وغير ذلك، وما قولهم بالحلول والاتحاد إلا نتيجة لهذا الغلو الذي وقعوا فيه.

وسيأتي في مبحث «الكرامات» بيان المزيد حول ذلك ـ إن شاء اللَّه ـ.



المبحث الثاني
تقديس القبور والأضرحة

تمهيد:

التقديس لغة: من القُدُس، وهو الطُّهر، والتقديس هو: التنزيه والتعظيم والتمجيد، وتقديس القبور، وإقامة المشاهد عليها، والغلوّ في أصحابها، سنة قديمة سنها إبليس، وفتن بها فريقاً من الخلق، وصرفهم عن التوحيد، واستدرجهم بذلك إلىٰ عبادة غير اللَّه تعالىٰ، فأصبح فريق من الناس يتعلقون دعاء وتقرباً، بأصحاب القبور من الأنبياء والأولياء، أو بمن يُظن أنه من الصالحين، وقد بيَّن الشيخ ضلال فريق من المتصوفة في هذا الباب ووقوعهم في الشرك وعبادة غير اللَّه، بسبب تقديس القبور وتعظيمها.

ويمكن عرض ما ذكره الشيخ عن المتصوفة في هذا الباب، فيما يلي:

أولاً: تلاعب الشياطين بالمقدِّسين للقبور والأضرحة:

قال الشيخ: «ومثل المقابر لا سيما قبر من يحسن به الظن ومثل المواضع التي يقال: إن بها أثر نبي، أو رجل صالح، ولهذا يحصل لهم في هذه المواضع أحوال شيطانية يظنون أنها كرامات رحمانية! فمنهم: من يرىٰ أن صاحب القبر قد جاء إليه، وقد مات من سنين كثيرة، ويقول: أنا فلان، وربما قال له: نحن إذا وُضِعنا في القبر خرجنا!.. والشياطين كثيراً ما يتصورون بصورة الإنس في اليقظة والمنام، وقد تأتىٰ لمن لا يعرف، فتقول: أنا الشيخ فلان» ا.هـ.

وقال الشيخ: «والمؤمن العظيم يعلم أنه شيطان، ويتبين ذلك بأمور:

أحدها: أن يقرأ آية الكرسي بصدق.. **ومنها**: أن يستعيذ بالله من الشياطين.. **ومنها**: أن يستعيذ بالعِوَذ الشرعية؛.. **ومنها**: أن يدعو الرائي بذلك ربه ﷻ ليبين له الحال، **ومنها**: أن يقول لذلك الشخص: أأنت فلان؟، ويقسم عليه بالأقسام المعظمة، ويقرأ عليه قوارعَ القرآن، إلىٰ غير ذلك من الأسباب التي تضر الشياطين» ا.هـ.

✍ ثانياً: تعظيمهم لقبور المشايخ، بل يجعلونها أعظم من قبر الرسول ﷺ:

قال الشيخ: «ومنهم من يجعل قبر شيخه أعظم من قبر الرسول ﷺ، ومنهم من يجعل قبر الرسول ﷺ أعظم ولكن يعظم أصحاب القبور من جهة أنه يعبدهم ليقربوه إلىٰ اللَّه زلفىٰ، لا يعظم الرسول ﷺ من جهة أنه رسول اللَّه» ا.هـ.

✍ ثالثاً: الصلاة عند القبر، أو استقباله عند الصلاة:

قال الشيخ أثناء رده علىٰ الغلاة في القبور من المتصوفة: «ومنهم من يجعل استقبالها في الصلاة، أولىٰ من استقبال الكعبة؛ ويقول: هذه قبلة الخاصة، والكعبة قبلة العامة» ا.هـ.

✍ رابعاً: الطواف بالقبر:

قال الشيخ: «فإن الطواف لا يشرع إلا بالبيت العتيق باتفاق المسلمين، ولهذا اتفقوا علىٰ تضليل من يطوف بغير ذلك،.. أو بقبر بعض المشايخ أو بعض أهل البيت كما يفعله كثير من جهال المسلمين فإن الطواف بغير البيت العتيق لا يجوز، باتفاق المسلمين» ا.هـ.

✍ خامساً: التمرغ على القبر:

قال الشيخ: «وأما التمسح بالقبر، أيّ قبر كان، وتقبيله، وتمريغ الخد عليه، فمنهي عنه، باتفاق المسلمين، ولو كان ذلك من قبور الأنبياء، ولم يفعل هذا أحد من سلف الأئمة وأئمتها، بل هذا من الشرك» ا.هـ.

✍ سادساً: النذر للقبور:

قال الشيخ: «وكذلك النذر للقبور، أو لأحد من أهل القبور، .. نذر معصية لا يجب الوفاء به باتفاق أئمة الدين، قال ﷺ: **(من نذر أن يطيع اللّه فليطِعه ومن نذر أن يعصي اللّه فلا يعصه)**[١].. فمن نذر زيتاً.. أو غير ذلك، لِيُجعل عند قبر.. فهو نذر معصية لا يجوز الوفاء به» ا.هـ.

✍ سابعاً: الدعاء عند القبر:

قال الشيخ: «ومنهم من يأتي قبر الميت: الرجل أو المرأة ـ الذي يحسن به الظن لنفسه ـ، فيقول: اغفر لي وارحمني، ولا توقعني علىٰ زلّة، ولا توقفني علىٰ خطيئتي» ا.هـ.

✍ ثامناً: تعظيم القبر أكثر من الكعبة:

قال الشيخ: «ومنهم من يستقبل القبر ويصلي إليه مستدبراً الكعبة، ويقول: القبر قبلة الخاصة، والكعبة قبلة العامة!.. وجمهور هؤلاء المشركين بالقبور يجدون عند عبادة القبور من الرقة والخشوع والدعاء وحضور القلب، ما لا يجده أحدهم في مساجد اللّه» ا.هـ.

ونخلص مما سبق إلىٰ أن الفتنة بالقبور كثيراً ما تدعو صاحبها

---

(١) رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها.

إلىٰ الشرك ودعاء الموتىٰ، والاستغاثة بهم، وطلب الحوائج منهم، واعتقاد أن الصلاة عند قبورهم أفضل منها في المساجد، وغير ذلك مما هو محادة ظاهرة للَّه ورسوله.

وقد فتن الشيطان فئاماً من المتصوفة بالقبور، وغرهم الشيطان؛ فقال: دعاؤكم وصلاتكم عندها والطواف عليها، ليس شركاً! بل هذا تعظيم لقبور المشايخ والصالحين، وكلما كنتم أشد لها تعظيماً، وأشد فيهم غلواً، كنتم بقربهم أسعد، ومن أعدائهم أبعد، ولقد بلغ تعظيم المخلوقين عند بعض الناس أن فضلوا بعض الزهاد ومن ظنوا فيهم الصلاح علىٰ الأنبياء، بل فضل بعضهم بعض المخلوقين علىٰ الخالق ﷻ كما قال أحدهم لآخر: هل رأيت أبا يزيد؟ قال: لا، قال: لئن ترىٰ أبا يزيد مرة خير لك من أن ترىٰ اللَّه سبعين مرة!! **ولعمرُ اللَّه، من هذا الباب بعينه دخل الشيطان علىٰ عُباد يغوث ويعوق ونسر، ومنه دخل علىٰ عباد الأصنام منذ كانوا إلىٰ يوم القيامة.**



المبحث الثالث

الدعاء والاستغاثة بغير الله

تمهيد:

الدعاء من أجلِّ العبادات وأعظمها، وهو أكثر عبادات الرسل ﷺ، بل أخبر النبي ﷺ أن العبادة إنما تقوم على الدعاء، فقال ﷺ: **(الدعاء هو العبادة)**(١)، والاستغاثة باللَّه كذلك هي من أعظم العبادات، ولا يجوز صرف شيء من ذلك وإن قلَّ لغير اللَّه تعالىٰ، وسأتحدث في هذا المبحث عن مذهب الصوفية في الدعاء والاستغاثة.

أ ـ الدعاء: الدعاء لغة: مصدر الفعل دعا، يقال: دعا الرجلَ دعواً، ودعاءً: ناداه، والاسم الدعوة، ودعوت فلاناً: أي صحت به واستدعيته.

أما الدعاء في الشرع فهو: استدعاءُ العبدِ ربَّه ﷻ العنايةَ، واستمداده إياه المعونة.

وحقيقته: إظهار الافتقار إليه، والتبرؤ من الحول والقوة، وهو سمة العبودية، واستشعار الذلة البشرية، وفيه معنىٰ الثناء علىٰ اللَّه ﷻ، وإضافة الجود والكرم إليه(٢).

والمتأمل في سلوك الصوفية، يجد عندهم خللاً كبيراً في باب الدعاء، كدعاء غير اللَّه أو ترك الدعاء قنوعاً بالتوكل أو غير ذلك، وقد عرض الشيخ مذهبهم في ذلك وردّ عليهم، وفنّد أقوالهم.

---

(١) رواه أبو داود، والترمذي عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.
(٢) شأن الدعاء للخطابي (ص: ٤).

ويمكن بيان ما ذكره الشيخ من مذهب الصوفية في الدعاء فيما يلي:

✍ **أولاً: بعضهم يترك الدعاء، لأن الله أعلم بالحال:**

قال الشيخ: «وسؤال العبد لربه حاجته من أفضل العبادات، . . ومن هؤلاء من يحتج بما يُروَىٰ عن الخليل ﷺ أنه لما ألقي في النار قال له جبرائيل: هل لك من حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، قال: سل، قال: حسبي من سؤالي علمه بحالي(١)، وأول هذا الحديث معروف وهو قوله: أما إليك فلا، وقد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: حسبنا اللّٰه ونعم الوكيل، أنه قالها إبراهيم ﷺ حين أُلقي في النار. . (٢)، **وأما قوله: حسبي من سؤالي علمه بحالي، فكلام باطل**، خلاف ما ذكره اللّٰه عن إبراهيم الخليل ﷺ وغيره من الأنبياء، من دعائهم للّٰه ومسألتهم إياه» ا. هـ.

✍ **ثانياً: بعض الصوفية يترك الدعاء، لأنه شهد القدر:**

قال الشيخ: «ومن هؤلاء طائفةٌ. . يغلطون في ترك ما أمروا به من الأسباب التي هي عبادة، ظانين أن العارف إذا شهد القدر أعرض عن ذلك، **مثل من يجعل التوكل منهم أو الدعاء، ونحو ذلك من مقامات العامة دون الخاصة**. . فما أمر اللّٰه به عبادَهُ من الأسباب فهو عبادةٌ» ا. هـ.

---

(١) الأثر: تفسير البغوي (١/٣٢٦، تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٨])، تفسير القرطبي (١١/٢٦٥، تفسير قوله تعالىٰ: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٨]).

(٢) رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه.

ثالثاً: بعض الصوفية يترك الدعاء، لأن تركه من تمام الرضا:

قال الشيخ: «قول القائل: الرضا أن لا تسأل اللَّه الجنة، ولا تستعيذه من النار.. **دخل عليهم الضلال من وجهين:**

أحدهما: ظنهم أن الرضا بكل ما يكون أمر يحبه اللَّه ويرضاه،.. فضلوا ضلالاً مبيناً، والطريق إلىٰ اللَّه إنما هي أن ترضيه، بأن تفعل ما يحبه ويرضاه، ليس أن ترضىٰ بكل ما يحدث ويكون، فإنه هو لم يأمرك بذلك..

الوجه الثاني: أنهم لا يفرقون بين الدعاء الذي أُمروا به أمر إيجاب وأمر استحباب وبين الدعاء الذي نُهوا عنه، أو لم يؤمروا به ولم ينهوا عنه..» ا.هـ.

رابعاً: بعض الصوفية يترك الدعاء، لأن الدعاء هو من حظوظ النفس الدنيوية، والمتنسك المتعبد لا بد أن يربي نفسه على ترك حظوظها:

قال الشيخ: «ثم إنه لما أوقع هؤلاء في هذا الغلط: أنهم وجدوا كثيراً من الناس لا يسألون اللَّه جلب المنافع ودفع المضار،.. فرأوا أن من الطريق ترك ما تختاره النفس وتريده وأن لا يكون لأحدهم إرادة أصلاً، بل يكون مطلوبه الجريان تحت القدر كائناً ما كان» ا.هـ.

خامساً: اعتداء فريق منهم في الدعاء، بأن يدعوا بأدعية مبتدعة، غير ثابتة عن السلف الصالح:

تكلم الشيخ عن محبة اللَّه تعالىٰ، وغلط فريقين من الناس فيها، وذكر الفريق الأول وهم: المتجهمة من المعتزلة، ثم قال: «والضرب الثاني: طوائف من المتصوفة والمتفقرة والمتبتلة، وافقوا هؤلاء علىٰ أن الجنة ليست إلا هذه الأمور التي يتنعم بها المخلوق، ولكن

وافقوا السلف والأئمة علىٰ إثبات رؤية اللَّه والتنعم بالنظر إليه، وأصابوا في ذلك، وجعلوا يطلبون هذا النعيم وتسمو إليه همتهم، ويخافون فوتَه، وصار أحدهم يقول: ما عبدتك شوقاً إلىٰ جنتك، أو خوفاً من نارك، ولكن لأنظر إليك، وإجلالاً لك، وأمثال هذه الكلمات[١]، مقصودهم بذلك هو أعلىٰ من الأكل والشرب والتمتع بالمخلوق، لكن غلطوا في إخراج ذلك من الجنة، وقد يغلطون أيضاً في ظنهم أنهم يعبدون اللَّه بلا حظّ ولا إرادة، وأن كلَّ ما يطلب منه فهو حظ النفس، وتوهموا أن البشر يعمل بلا إرادة، ولا مطلوب ولا محبوب، وهو سوء معرفة بحقيقة الإيمان والدين والآخرة» ا.هـ.

سادساً: دعاء غير الله تعالى: وله عند المتصوفة صور، منها:

أ ـ دعاء المشايخ الموتىٰ:

قال الشيخ: «وكثيرٌ من طوائف متعددة ترىٰ أحدهم يرىٰ أن استغاثته بالشيخ: إما عند قبره أو غير قبره، أنفع له من أن يدعو اللَّه في المسجد عند السَّحَر! ويستهزئ بمن يعدل عن طريقته إلىٰ التوحيد.. والذين يجعلون دعاء الموتىٰ أفضل من دعاء اللَّه: منهم من يحكي أن بعض المريدين استغاث باللَّه فلم يغِثْه، واستغاث بشيخه فأغاثه!» ا.هـ.

ب ـ دعاء المشايخِ الأحياءِ، من دون اللَّه:

قال الشيخ: «وأما الرجل إذا أصابته نائبةٌ أو خاف شيئاً فاستغاث بشيخه طلبَ تثبيت قلبه من ذلك الواقع: فهذا من الشرك،.. وقال

---

(١) ينسب هذا الكلام إلىٰ رابعة العدوية، ومن أقوالها، أنها مرضت يوماً فقيل لها: «ما سبب علتك؟ فقالت: نظرت بقلبي إلىٰ الجنة، فأدبني ربي فله العتبىٰ، لا أعود» ا. هـ الرسالة القشيرية (ص: ٢٥٨).

تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ [الإسراء]» ا. هـ.

ب ـ **الاستغاثة: الاستغاثة**: هي طلب الغوث، وهو التخليص من الشدة والنقمة، والعون على الفكاك من الشدائد، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٩].

وعرّف الشيخ الاستغاثة، بقوله: «الاستغاثة: طلب الإغاثة، والتخلص من الكربة والشدة.

وإن الإغاثة تضاف إلىٰ المخلوق كما يُضاف إليه الإطعام، والاستعانة والإعانة، والهداية والتعليم، وهذا صحيح، وليس فيه أن الميت يُستغاث به، كما أنه ليس فيه أن يُستطعم ويُستسقىٰ، ويُستهدىٰ ويُستنصر، ويُستغاث به» ا. هـ.

والاستغاثة لا تجوز إلا باللَّه تعالىٰ، ولا تجوز بالمخلوق أبداً:

قال الشيخ مبيناً تحريم الاستغاثة بالمخلوق: «وأما ما حُكي عن بعض المشايخ من قوله: إذا نزل بك حادث أو أمر تخافه: فاستوحني فيكشف ما بك من الشدة حياً كنت أو ميتاً، فهذا الكلام ونحوه إما أن يكون كذباً من الناقل، أو خطأ من القائل؛ فإنه نقل لا يُعرف صدقُه عن قائل غير معصوم، ومن ترك النقل المصدق عن القائل المعصوم واتبع نقلاً غير مصدق عن قائل غير معصوم؛ فقد ضل ضلالاً بعيداً.. وهذا رسول اللَّه ﷺ لم يقل لأحد من أصحابه: إذا نزل بك حادث فاستوحني بل قال لابن عمه عبد اللَّه بن عباس رضي الله عنه وهو يوصيه: **(احفظ اللَّه يحفظك، احفظ اللَّه تجده أمامك، تعرف إلىٰ اللَّه في الرخاء؛ يعرفك في الشدة، إذا سألت: فاسأل اللَّه، وإذا استعنت: فاستعن باللَّه)**[1]» ا. هـ.

---

(١) الحديث: رواه الترمذي عن عبد اللَّه بن عباس رضي الله عنه.

ونقل الشيخ عن معتدلي الصوفية الإنكار علىٰ من يستغيث بمخلوق، فقال أثناء رده علىٰ المستغيثين بغير اللَّه: «إذا ظهر أن العبد وكل مخلوق فقير إلىٰ اللَّه محتاج إليه ليس فقيراً إلىٰ سواه، فليس هو مستغنياً بنفسه ولا بغير ربه؛ فإن ذلك الغير فقير أيضاً محتاج إلىٰ اللَّه، ومن المأثور عن أبي يزيد أنه قال: استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق» ا.هـ.

وبيَّن الشيخ أن المتصوفة، كثيراً ما يستغيثون بمشايخهم عند الكربات، فتجيبهم الجن والشياطين، فيزدادون فتنة، ويظنون أن المشايخ المُستغاث بهم، هم الذين أجابوا نداءهم وكشفوا كربتهم.

قال: «يتمثل الجني في صورة الإنسي، فإذا استغاث به بعض أتباعه أتاه فظن أنه الشيخ نفسه.

وتارة: يكون التابع قد نادىٰ شيخه وهتف به: يا سيدي فلان، فينقل الجني ذلك الكلام إلىٰ الشيخ بمثل صوت الإنسي؛ حتىٰ يظن الشيخ أنه صوت الإنسي بعينه، ثم إن الشيخ يقول: نعم ويشير إشارة يدفع ذلك المكروه، فيأتي الجني بمثل ذلك الصوت والفعل فيظن ذلك الشخص أنه شيخه نفسه، . . وإنما كان عنده ما مثَّله الجنيُّ وخيَّله» ا.هـ.

وبما سبق يتبين لنا مقدار الضلال الذي وقع فيه المتصوفة بصرفهم عبادة من أعظم العبادات إلىٰ غير اللَّه تعالىٰ، فوقعوا في الشرك والخروج من الإسلام بسبب ذلك، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَافِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف]، وقال ﷻ: ﴿وَلَا تَدْعُ

مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس]، وكل من دعا غير اللَّه تعالىٰ فقد وضع العبادة في غير موضعها فصار من الظالمين.



الفصل الثالث: توحيد الأسماء والصفات

تمهيد

تقدم في الفصلين السابقين الكلام عن مذهب الصوفية في توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وفي هذا الفصل أعرض مذهب الصوفية في توحيد الأسماء والصفات.

وتوحيد الأسماء والصفات هو: الإقرار بأن اللَّه بكل شيء عليم، وعلىٰ كل شيء قدير، وأنه الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، له المشيئة النافذة، والحكمة البالغة، وأنه سميع بصير، رؤوف رحيم، علىٰ العرش استوىٰ، وعلىٰ الملك احتوىٰ، وأنه الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان اللَّه عما يشركون، إلىٰ غير ذلك من الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ.

وهذا التوحيد لا يكفي في حصول الاسلام، بل لا بد مع ذلك من الإتيان بلازمه من توحيد الربوبية والإلهية، والكفار يقرون بجنس هذا النوع وإن كان بعضهم قد ينكر بعض ذلك، إما: جهلاً، وإما: عناداً، كما قالوا: لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة!![1] فأنزل اللَّه فيهم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠][2].

ومن تأمل مذهب الصوفية في هذا التوحيد وجد أنه قد وقع عند طائفة منهم خلل فيه؛ إما تأثراً بمذهب أحد من المبتدعة، أو ابتداعاً جديداً استحدثه بعضهم، وقد بين الشيخ مذهب المتصوفة في باب

(١) انظر: زاد المعاد (٣/٢٥٧)، مختصر سيرة الرسول ﷺ (١/١٣٥).
(٢) تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد (ص: ٣٤).

الأسماء والصفات، وفنّد الأقوال، وأجاب عن الشبهات.

ويمكن بيان ما ذكره فيما يلي:

أولاً: أصول الصوفية تجعلهم أبعد الناس عن الاعتزال في الصفات والقدر:

قال الشيخ: «وهذا الذي ذكره الشيخ أبو علي[١] من أن الصوفية يخالفون المعتزلة، فأمر متفق عليه؛ فإن أصول الصوفية لا تلائم نفي الصفات بل هم أبعد الناس عن الاعتزال في الصفات والقدر» ا.هـ.

ثانياً: معتدلو الصوفية يثبتون أسماء الله تعالى وصفاته، على مراد الله ورسوله:

نقل الشيخ ذلك عن الإمام أبي عبد اللَّه بن خفيف في كتابه: اعتقاد التوحيد بإثبات الأسماء والصفات، فقال: «قال الإمام أبو عبد اللَّه بن خفيف: فأول ما نبتدئ به ما أوردنا هذه المسألة من أجلها ذكرُ أسماء اللَّه ﷻ في كتابه، وما بين ﷺ من صفاته في سنته، وما وصف به ﷻ مما سنذكر قول القائلين بذلك، مما لا يجوز لنا في ذلك أن نرده إلىٰ أحكام عقولنا، بطلب الكيفية بذلك ومما قد أمرنا بالاستسلام له» ا.هـ.

ونصّ علىٰ أن معتدلي الصوفية وافقوا السلف في إثبات الصفات علىٰ مراد اللَّه ورسوله ﷺ، وذكر الشيخ ذلك عن جمع من أئمة الصوفية، ثم نقل كلام الحافظ أبي نعيم الأصبهاني ـ صاحب حلية

---

(١) يعني أبا علي الكاتب، حيث قال: «المعتزلة نزّهوا اللَّه من حيث العقل فأخطؤوا، والصوفية نزّهوه من حيث العلم فأصابوا» ا.هـ الاستقامة (٩٤/١)، والقشيرية (١٥٨/١).

الأولياء ـ في إثبات الصفات، فقال: «. . متفقون علىٰ أن اللَّه فوق عرشه بذاته، وأن علمه بكل مكان. . وقال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني صاحب «حلية الأولياء» وغير ذلك من المصنفات المشهورة، في الاعتقاد الذي جمعه: طريقنا طريق السلف المتبعين الكتاب والسنة وإجماع الأمة» ا.هـ.

ونقل الشيخ إثبات الصفات عن معمر بن أحمد ـ شيخ الصوفية في عصره ـ:

فقال: «وقال الشيخ العارف: معمر بن أحمد، شيخ الصوفية في هذا العصر: وأن اللَّه استوىٰ علىٰ عرشه بلا كيف ولا تأويل، والاستواء معلوم والكيف مجهول، . . وأنه ﷻ سميع بصير عليم خبير، يتكلم ويرضىٰ ويسخط ويضحك ويعجب، ويتجلىٰ لعباده يوم القيامة ضاحكاً، وينزل كل ليلة إلىٰ سماء الدنيا كيف شاء بلا كيف ولا تأويل، ومن أنكر النزول أو تأول فهو مبتدع ضال» ا.هـ.

ثالثاً: معتدلو الصوفية وافقوا أهل السنة في قيام الأفعال باللَّه تعالىٰ:

قال الشيخ: «. . والقول الثاني: أنه تقوم به الأفعال، وهذا قول السلف وجمهور مثبتة الصفات، ذكر البخاري في كتاب: خلق أفعال العباد: أن هذا إجماع العلماء: خالقٌ، وخلقٌ، ومخلوقٌ. . وذكره أبو نصر محمد بن إسحاق الكلاباذي في كتاب: التعرف بمذاهب التصوف[1]: أنه قول الصوفية» ا.هـ.

---

(١) قال أبو بكر الكلاباذي (توفي سنة: ٣٨٠): في كتابه: التعرف لمذهب التصوف (ص: ٤٤): «أجمعوا أن اللَّه تعالىٰ خالق لأفعال العباد كلها، كما أنه خالق لأعيانهم، وأن كل ما يفعلونه من خير وشر، فبقضاء اللَّه وقدره». ثم قال (ص: ٤٧): «وأجمعوا أن لهم أفعالاً واكتساباً =

✍ رابعاً: كثير من الصوفية في باب المعتقد وافقوا الجهم بن صفوان، من وجه دون وجه:

وقد بين ذلك الشيخ بقوله: «.. وجَهْم لا يثبت شيئاً من الصفات، لا الإرادة ولا غيرها، فإذا قال: إن اللّٰه يحب الطاعات، ويبغض المعاصي، فمعناه الثواب والعقاب، وشاع هذا القول في كثير من الصوفية؛ فوافقوا جهماً في مسائل الأفعال والقدر وخالفوه في الصفات، كأبي إسماعيل الأنصاري ـ صاحب ذم الكلام ـ فإنه من المبالغين في ذم الجهمية في نفي الصفات، وله كتاب في تكفير الجهمية، ويبالغ في ذم الأشعرية مع أنهم من أقرب هذه الطوائف إلىٰ السنة، وربما كان يلعنهم» ا.هـ.

وبين الشيخ أن الاتحادية: جهمية في الصفات فقال: «وكلام ابن سبعين، وابن رشد الحفيد، وابن التومرت(١)، وابن عربي الطائي، وأمثالهم من الجهمية ـ نفاة الصفات ـ: يدور علىٰ هذا الأصل، كما قد بسط في موضعه ويوجد ما يقارب هذا الاتحاد في كلام كثير من أهل الكلام والتصوف، الذين دخل عليهم بعض شعب الاتحاد، ولم يعلموا ما فيها من الفساد» ا.هـ.

= علىٰ الحقيقة، هم بها مثابون، وعليها معاقبون، ولذلك جاء الأمر والنهي، وورد الوعد والوعيد» ا. هـ.

(١) هو محمد بن عبد اللّٰه بن تومرت، المصمودي البربري، ادعىٰ أنه علوي وأنه المهدي، ورحل إلىٰ المشرق وحصل من العلم والأصول والكلام، وألف كتاباً في التوحيد وعقيدة تسمىٰ المرشدة، قال ابن كثير: «و قد رأيت لبعضهم في سيرة ابن تومرت هذا مجلداً في أحكامه وإمامته، وما كان في أيامه، وكيف تملك ببلاد المغرب، وما كان يتعاطاه من الأشياء التي توهم أنها أحوال برة، وهي محالات لا تصدر إلا عن فجرة، وما قتل من الناس وأزهق من الأنفس» ا.هـ، توفي سنة: ٥٢٤.

✍ خامساً: حقيقة الرب عند الاتحادية ومن وافقهم: وجود مجرد لا اسم له ولا صفة:

قال الشيخ أثناء ذكره لمعتقد ابن عربي: «وكان كثير من أهل التصوف والسلوك والطالبين لطريق التحقيق والعرفان ـ مع أنهم يظنون أنهم متابعون للرسل، وأنهم متقون للبدع المخالفة له ـ يقولون هذا الكلام ويعظمونه، ويعظمون ابن عربي لقوله مثل هذا، ولا يعلمون أن هذا الكلام بناه علىٰ أصله الفاسد في الإلحاد، الذي يجمع بين التعطيل والاتحاد، فإن حقيقة الرب عندَه وجودٌ مجردٌ لا اسم له ولا صفة، ولا يمكن أن يُرَىٰ في الدنيا ولا في الآخرة، ولا له كلام قائم به، ولا علم، ولا غير ذلك، ولكن يُرىٰ ظاهراً في المخلوقات متجلياً في المصنوعات» ا.هـ.

✍ سادساً: الاتحادية لما نفوا صفات الله تعالى، وقالوا بعدم مباينته للعالم، صاروا بين أمرين: التعطيل، أو الحلول:

قال الشيخ: «فإنهم لا يقرون بأن الخالق مباين للمخلوق.. بل تارة يجعلونه حالاً بذاته في كل مكان، وتارة يجعلون وجوده عين وجود المخلوقات.. فهم بين أمرين: إما أن يصفوه بما يقتضي عدمه وتعطيله فينكرونه.. وإما أن يصفوه بما يقتضي أنه عين المخلوقات» ا.هـ.

وبعد هذا التمهيد الذي ذكر فيه الشيخ أصولاً عامة حول توحيد الأسماء والصفات عند الصوفية، أذكر فيما يأتي من مباحث تفصيل ما ذكره من مذهب المتصوفة في الأسماء والصفات.



المبحث الأول
اختلافهم في أسماء الله تعالى

تمهيد:

أسماء اللّٰه تعالىٰ وصفاته توقيفية، فلا يجوز إطلاق اسم أو صفة علىٰ اللّٰه تعالىٰ إثباتاً أو نفياً إلا بنصٍّ من الكتاب أو السنة، كما أن أسماء اللّٰه تعالىٰ وصفاته لا تماثل شيئاً من أسماء أو صفات المخلوقين، وقد وافق الصوفية أهل السنة في هذا الباب في مواضع، وخالفوهم في أخرىٰ، وبين الشيخ كثيراً من هذه المواضع، وما وافق المتصوفة فيها الحق وما خالفوا.

ويمكن إجمال ما ذكره الشيخ عن مذهب الصوفية في باب أسماء اللّٰه تعالىٰ، فيما يلي:

أسماء الله عند الاتحادية حقيقتها أمور عدمية:

قال الشيخ أثناء كلامه عن ابن عربي: «أسماء الحق عنده هي النسب والإضافات، التي بين الأعيان وبين وجود الحق، وأحكام الأسماء هي الأعيان الثابتة في العدم، وظهور هذه الأحكام بتجلي الحق في الأعيان، والأعيان التي هي حقيقة العيان: هي مرآة الحق التي بها يرىٰ أسماءه وظهورَ أحكامها، فإنه إذا ظهر في الأعيان: حصلت النسبة التي بين الوجود والأعيان ـ وهي الأسماء ـ وظهرت أحكامُها ـ وهي الأعيان ـ ووجود هذه الأعيان هو الحق، فلهذا قال: وليست سوىٰ عينه، فاختلط الأمر وانْبَهَمَ[1]»، فتدبر هذا من كلامه، وما يناسبه، لتعلم ما يعتقده من ذات الحق وأسمائه، وأن ذات الحق

---

(١) كلام ابن عربي، في فصوص الحكم (ص: ٤٥).

عنده هي نفس وجود المخلوقات، وأسماءه: هي النسب التي بين الوجود والأعيان، وأحكامها: هي الأعيان، لِتعلم كيف اشتمل كلامه علىٰ الجحود للَّه، ولأسمائه ولِصفاته، وخلقه وأمره وعلىٰ الإلحاد في أسماء اللَّه وآياته، فإن هذا الذي ذكره غاية الإلحاد في أسماء اللَّه وآياته ـ الآيات المخلوقة والآيات المتلوّة ـ فإنه لم يثبت له اسماً ولا آيةً، إذ ليس إلا وجوداً واحداً، وذاك ليس هو اسماً ولا آيةً، والأعيان الثابتة ليست هي أسماءه ولا آياته، ولما أثبت شيئين فرّق بينهما بالوجود والثبوت ـ وليس بينهما فرق ـ اختلط الأمر عليه وانبهم، وهذا حقيقة قوله... وفيه من أنواع الكفر والضلال ما يطول عدها، ومنها: الكفر بأسماء اللَّه، فإنها ليست عنده إلا أمورٌ عدمية، فإذا قلنا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الفاتحة]؛ فليس الرب عنده إلا نسبة إلىٰ الثبوت» ا.هـ.

ونخلص مما سبق إلىٰ أن أكثر الصوفية قد وافقوا أهل السنة والجماعة في إثبات أسماء اللَّه تعالىٰ، وإنما وقع الخلل الكبير عند غلاة المتصوفة من القائلين بالحلول والاتحاد، كابن عربي وابن سبعين ومن وافقهما.

وقد تقدم في التمهيد السابق سياق ما نقله شيخ الإسلام عن صالحي المتصوفة كابن خفيف ومعمر وغيرهما في إثبات الأسماء والصفات.



المبحث الثاني

قولهم في القرآن، وكلامِ الله عمومًا

تمهيد:

قبل أن أشرع في بيان مذهب الصوفية في كلام اللَّه تعالىٰ، أمهد بذكر جملة **اعتقاد أهل السنة في كلام اللَّه إجمالاً**: يعتقد أهل السنة أن للَّه تعالىٰ صفة الكلام، وهي صفة قائمة به غير بائنة عنه، لا ابتداء لاتصافه بها ولا انتهاء، يتكلم بها سبحانه بمشيئته واختياره، بحرف وصوت مسموع، وكلامه سبحانه أحسن الكلام، ولا يشبه كلام المخلوقين، ويكلِّم به من شاء من خلقه، من ملائكته، ورسله، وسائر عباده، بواسطة وبغير واسطة، ويعتقد أهل السنة أن القرآن والتوراة والإنجيل كلها كلام اللَّه تعالىٰ علىٰ الحقيقة، وأصوات العباد وحركاتهم بالقرآن، وورق المصحف، ومداد الكتابة، كل ذلك مخلوق مصنوع، أما الكلام المقروء فهو كلام اللَّه تعالىٰ، فالصوت صوت القارئ والكلام كلام البارئ، هذا مجمل اعتقاد أهل السنة في كلام اللَّه تعالىٰ.

وتعتبر صفة الكلام للَّه تعالىٰ من أكبر المسائل التي وقع فيها الاختلاف بين أهل السنة والفرق المخالفة، أو المبتدعة، سواء من الصوفية أو غيرهم.

ويمكن إجمال ما ذكره الشيخ عن مذهب الصوفية في كلام اللَّه تعالىٰ، فيما يلي:

أولاً: نقل الشيخ عن أبي عبد اللَّه بن خفيف قول معتدلي الصوفية في كلام اللَّه تعالىٰ.

فقال: «قال[١]: ثم كان الاختلاف في القرآن مخلوقاً وغير مخلوق، فقولنا وقول أئمتنا: إن القرآن كلام اللَّه؛ غير مخلوق، وأنه صفة اللَّه منه بدأ قولاً واليه يعود حكماً[٢]» ا.هـ.

ثانياً: ونقل الشيخ عن شيخ الصوفية في عصره، معمر بن أحمد قوله في إثبات أن اللَّه تعالىٰ يتكلم علىٰ الوجه اللائق به سبحانه: **فقال:** «وقال الشيخ العارف معمر بن أحمد ـ شيخ الصوفية في هذا العصر ـ: أحببتُ أن أوصي أصحابي بوصية من السنة.. وأنه ﷻ سميع بصير، عليم خبير، يتكلم ويرضىٰ، ويسخط ويضحك ويعجب، ويتجلىٰ لعباده يوم القيامة ضاحكاً» ا.هـ.

ثالثاً: وبين الشيخ مسألة الأحرف هل هي مخلوقة أم لا؟، وذكر ما أورده القشيري من نقول عن الصوفية في ذلك، وردّ عليه بما يناسبه: فقال: «قال أبو القاسم[٣]: وقال ابن عطاء: لما خلق اللَّه الأحرف جعلها سراً، فلما خلق آدم بث ذلك السر فيه، ولم يبث ذلك السر في أحد من الملائكة فجَرَتْ الأحرف علىٰ لسان آدم بفنون الجريان وفنون المعارف، فجعلها اللَّه صوراً لها، قال أبو القاسم: صرح ابن

---

(١) أي ابن خفيف في كتابه في الاعتقاد.

(٢) معنىٰ قوله: منه بدأ قولاً وإليه يعود حكماً: منه بدأ: أي هو المتكلم به، ولم يبتدأ من غيره كما يزعم الجهمية والمعتزلة أنه خلق في الهواء، أو بدأ من غيره، وكذا الأشاعرة حيث زعموا أن القرآن مبدؤه من اللوح المحفوظ وأن جبريل أخذه من اللوح المحفوظ، وإليه يعود: أي: يرفع ويُسرىٰ به في آخر الزمان من المصاحف والصدور، فلا يبقىٰ في المصاحف ولا الصدور منه آية، قال عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه: (ليُسْرين علىٰ القرآن ذات ليلة ولا يترك آية في مصحف ولا في قلب أحد إلا رفعت) رواه الدارمي، وابن ماجة بلفظ قريب منه مرفوعاً.

(٣) القشيرية (١/٤٢).

عطاء، بأن الحروف مخلوقة، قلت: لم يذكر لهذه الحكاية إسناداً؛ ومثل هذا لا تقوم به حجة،.. **وكذلك**: أن اللَّه لم يخص آدم بالأحرف، وإنما خصه بتعليم الأسماء كلها، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ [البقرة: ٣١].. **وأيضاً**: فإن هذه الحكاية من قائلها الأول مرسلة لا إسناد لها..

وجاء في لفظ: لما خلق اللَّه الحروف، فاحتج بهذا من يقول من الجهمية: إن القرآن أو حروفه مخلوقة، فقال أحمد: هذا كفر، لأن فيه القول بخلق ما هو من القرآن، وذلك الأثر لا يعرف له إسناد؛ ولا يعرف قائله ولا ناقله ولا يؤثر عن صاحب ولا تابع، ولعله من الإسرائيليات فرد الاحتجاج به أسهل الأمور.. ثم إن هذه الحكاية المعروفة عن السري لما بلغت الإمام أحمد أنكرها غاية الإنكار.. أن سرياً قال: لما خلق اللَّه الحروف سجدت إلا الألف؛ فإنه قال: لا أسجد حتىٰ أؤمر فقال: هذا الكفر» ا.هـ.

رابعاً: وبين الشيخ أن أكثر من ضلّ في باب الكلام من المنتسبين إلىٰ التصوف هم القائلون بالحلول والاتحاد، ورد عليهم من وجوه:

فقال: «ولكن هؤلاء يقولون: إذا خلق كلاماً في غيره صار هو المتكلم به، وذلك باطل وضلال من وجوه كثيرة:

أحدها: أن اللَّه سبحانه أنطق الأشياء كلّها نطقاً معتاداً، ونطقاً خارجاً عن المعتاد،.. وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ [ص].. وأمثال ذلك من إنطاق الجمادات، فلو كان إذا خلق كلاماً في غيره كان هو المتكلم به، كان هذا كله كلام اللَّه تعالىٰ،.. فلو كان متكلماً بما خلقه من الكلام لكان كل كلام في الوجود كلامه، حتىٰ كلام إبليس والكفار وغيرهم! وهذا تقوله غلاة الجهمية كابن عربي وأمثاله،..

الوجه الثاني: أن يقال لهؤلاء الضالين: ما خلقه اللَّه في غيره من

الكلام وسائر الصفات فإن ما يعود حكمُه علىٰ ذلك المحل لا علىٰ غيره؛ . . فكذلك لا يكون كلامُه ما خلقَه في غيره من الكلام، ولا يكون متكلماً بذلك الكلام.

الوجه الثالث: أن الاسم المشتق من معنىٰ، لا يتحقق بدون ذلك المعنىٰ، . . فإذا قيل: تكلم فلان، أو كلَّم فلانٌ فلاناً ففلان هو المتكلم والمكلِّم، فقوله تعالىٰ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ١٦٤﴾ [النساء]» ا. هـ

خامساً: ومن المتصوفة من يقول: إن كلام اللَّه تعالىٰ فيضٌ يفيض علىٰ القلوب:

وقد بين الشيخ ذلك فقال: «طائفة من الناس يسلكون طريق الرياضة والتصفية، ويظنون أنهم بذلك يصلون إلىٰ أن يخاطبهم اللَّه كما خاطب موسىٰ بن عمران، **وهؤلاء ثلاثة أصناف:** صنف: يزعمون أنهم يخاطَبون بأعظم مما خوطب به موسىٰ بن عمران، كما يقول ذلك من يقوله من أهل الوحدة والاتحاد، القائلين بأن الوجود واحد، . . **والنوع الثاني:** من يقول: إن اللَّه يكلمه مثل كلام موسىٰ بن عمران، كما يقول ذلك من يقوله من المتفلسفة والمتصوفة، . . **والنوع الثالث:** الذين يقولون: إن موسىٰ أفضل لكن صاحب الرياضة قد يسمع الخطاب الذي سمعه موسىٰ» ا. هـ.

وبما سبق يتبين لنا ضلال فئام من المتصوفة في مسألة كلام اللَّه تعالىٰ، وما وقع فيه فريق من غلاتهم من القول بإمكان سماع كلام اللَّه لآحاد الناس، وقد ردَّ عليهم الشيخ وبيَّن أن ما يسمعونه من أصوات وكلام هو من تلاعب الشياطين بهم، وتبين لنا ـ أيضاً ـ من كلام الشيخ أن الصوفية يتفاوتون في اعتقادهم في كلام اللَّه تعالىٰ، فمنهم من وافق أهل السنة والجماعة، ومنهم من غلا وضلَّ عن سواء السبيل.

المبحث الثالث

قولهم في رؤية الله ﷻ

تمهيد:

الرؤية لغة: النظر بالعين أو القلب، ومادة نظر يدلّ علىٰ نظر وإبصار بعين أو بصيرة، والمقصود برؤية اللَّه تعالىٰ: هي رؤيته ﷻ في الآخرة، وأهل السنة والجماعة مجمعون علىٰ إمكان رؤية اللَّه تعالىٰ في الآخرة، رؤية حقيقية، كما قال سبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة]، وصحت بذلك الأخبار عن رسول اللَّه ﷺ، كما في حديث جرير بن عبد اللَّه البجلي رضي الله عنه أنهم كانوا جلوساً عند رسول اللَّه ﷺ فنظر إلىٰ القمر ليلة البدر فقال: (**إنكم راؤون ربكم ﷻ كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم ألا تُغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها فافعلوا**). ثم تلا رسول اللَّه ﷺ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠](١).

أما ما ذكره الشيخ من آراء الصوفية في رؤية اللَّه تعالىٰ، فيمكن إجماله فيما يلي:

✍ أولاً: يرى بعض المتصوفة أن الله تعالى تمكن رؤيته في الدنيا:

قال الشيخ: «أما قول القائل:

ما غبت عن القلب ولا عن عيني

مـا بينكـم وبيـنـنـا مـن بَـيْـنِ

فهذا قول مبنيٌ علىٰ قول هؤلاء، وهو باطل متناقض، فإن مبناه

---

(١) رواه البخاري، ومسلم عن جرير بن عبد اللَّه رضي الله عنه.

علىٰ أنه يرىٰ اللَّه بعينه، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (واعلموا أن أحداً منكم لن يرىٰ ربه حتىٰ يموت)[(١)].

وقد اتفق أئمة المسلمين علىٰ أن أحداً من المؤمنين لا يرىٰ اللَّه بعينه في الدنيا، . . فمن قال: إن أحداً من الناس يراه: فقد زعم أنه أعظم من موسىٰ بن عمران ﷺ، ودعواه أعظم من دعوىٰ من ادعىٰ أن اللَّه أنزل عليه كتاباً من السماء[(٢)]» ا. هـ.

إلا أن الشيخ نقل عن ابن خفيف قوله: إن القول بإمكان رؤية اللَّه في الدنيا، ليس قول الصوفية عامة، وإنما هو قول أهل الغباوة منهم: فقال حاكياً كلام ابن خفيف: «وقال الإمام أبو عبد اللَّه بن خفيف. . وقرأت لمحمد بن جرير الطبري. . عن طائفة إثبات الرؤية في الدنيا والآخرة، ونسب هذه المقالة إلىٰ الصوفية قاطبة، لم يخصَّ طائفةً، فتبين أن ذلك علىٰ جَهالةٍ منه بأقوال المخلصين منهم، . . ثم قال[(٣)]: وأنه تعالىٰ يرىٰ في الآخرة كما أخبر في كتابه وذكره رسوله ﷺ، هذا قولُنا وقولُ أئمتنا، دون الجهال من أهل الغباوة فينا» ا. هـ.

ثانياً: بيَّن الشيخ أن الذي جرّ بعض الصوفية إلى القول بإمكان رؤية الله تعالى في الدنيا، مبالغة بعضهم في ترقيق القلب، حتى يصل إلى حدّ يظن فيه بأنه يرى الله تعالى:

فقال: «وكثير من هؤلاء العباد الذي يشهد قلبُه الصورة المثالية

---

(١) رواه مسلم عن ابن عمر رضي الله عنه.
(٢) هذا حقيقة مذهب ابن عربي، فهو لما قال إن اللَّه تعالىٰ قد حلّ في المخلوقات وظهر فيها، صار يُرىٰ ـ سبحانه ـ في كل شيء، لأن كل شيء فهو اللَّه.
(٣) لا يزال الكلام لابن خفيف.

ويفنىٰ فيما شهده يظن أنه رأىٰ اللَّه بعينه؛ . . كما يحكىٰ عن أبي يزيد أنه قال: ليس في الجبة إلا اللَّه، وكما قال الآخر: غبتُ بكَ عني فظننت أنكَ أَنِّي!» ا. هـ.

ثالثاً: نبه الشيخ أن بعض المتصوفة وإن قالوا برؤية الله تعالى في الآخرة، إلا أنهم يخالفون أهل السنة في حقيقة هذه الرؤية، فهم يقولون إن معنى رؤية الله في الآخرة هو زيادة العلم:

فقال: «والمنكرون لرؤيته من الجهمية والمعتزلة تنكر هذه اللذة، وقد يفسرها من يتأول الرؤية بمزيد العلم، علىٰ لذة العلم به كاللذة التي في الدنيا بذِكْره لكن تلك أكمل، وهذا قول متصوفة الفلاسفة والنفاة كالفارابي[(١)] وكأبي حامد وأمثاله؛ فإن ما في كتبه من الإحياء وغيره من لذة النظر إلىٰ وجهه هو بهذا المعنىٰ[(٢)]، والفلاسفة تثبت اللذة العقلية وأبو نصر الفارابي وأمثاله من المتفلسفة يثبت الرؤية للَّه ويفسرها بهذا المعنىٰ، وهذه اللذة أيضاً ثابتة بعد الموت لكنهم مقصرون في تحقيقها وإثبات غيرها من لذات الآخرة» ا. هـ.

---

(١) هو محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ التركي، أبو نصر الفارابي، الفيلسوف المنطقي، ولد سنة: ٢٥٧، يسمىٰ المعلم الثاني، وكان إرسطو المعلم الأول، قال الذهبي: «له تصانيف مشهورة من ابتغىٰ منها الهدىٰ ضلَّ وحار، منها تخرج ابن سينا» ا. هـ، من تصانيفه: رسالة في أغراض ما بعد الطبيعة، رسالة في إثبات المفارقات، توفي سنة: ٣٣٩.

(٢) قال الغزالي في الإحياء (٤/٢٧٠): «كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا: أما بعد: فإنّ المحبة للَّه هي الغاية القصوىٰ. . ونحن نذكر في هذا الكتاب: . . ثم بيان أنّ أعظم اللذات لذة النظر إلىٰ وجه اللَّه تعالىٰ، ثم بيان سبب زيادة النظر في الآخرة علىٰ المعرفة في الدنيا، ثم بيان الأسباب المقوّية لحب اللَّه تعالىٰ» ا. هـ.

ونخلص مما سبق إلىٰ أن رؤية اللَّه تعالىٰ في الآخرة أمر ثابت بالكتاب والسنة، ولا يتضمن إثبات هذه الرؤية أي نقص أو قدح في الباري ﷻ، بل هو سبحانه يراه المؤمنون يوم القيامة علىٰ الوجه اللائق به سبحانه، أما المتصوفة ففريق منهم توسعوا في إثبات الرؤية حتىٰ قالوا بإمكانها في الدنيا، وفريق آخر منهم أنكروها في الدنيا والآخرة، وقد بيَّن شيخ الإسلام هذين الفريقين وردَّ عليهما وبيَّن الحق في ذلك.



المبحث الرابع

موقفهم من بقية الصفات

تقدم في المباحث الثلاثة السابقة ذكر المعالم العامة للصوفية في باب الأسماء والصفات، وفي هذا المبحث سوف أتناول صفات اللَّه ﷻ، التي خصّها الشيخ بمزيد عناية وتفصيل عند كلامه عن مذهب الصوفية في صفات اللَّه تعالىٰ.

✍ الصفة الأولى: المحبة.

أولاً: بيَّن الشيخ أن عامة الصوفية يقولون: إن اللَّه تعالىٰ يُحِب ويُحَب، فقال: «والذي دل عليه الكتاب والسنة واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها وجميع مشايخ الطريق أن اللَّه يُحِبّ ويُحَبّ، ولهذا وافقهم علىٰ ذلك من تصوف من أهل الكلام كأبي القاسم القشيري وأبي حامد الغزالي وأمثالهما، ونصَر ذلك أبو حامد في الإحياء.. وقد قال اللَّه تعالىٰ: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]» ا.هـ.

ونقل الشيخ عن أبي عبد اللَّه بن خفيف إنكار صالحي الصوفية إطلاق لفظ العشق علىٰ اللَّه تعالىٰ، فقال: «قال الإمام أبو عبد اللَّه بن خفيف:.. وإن مما نعتقده ترك إطلاق تسمية» العشق» علىٰ اللَّه تعالىٰ وبين أن ذلك لا يجوز لاشتقاقه ولعدم ورود الشرع به، وقال: أدنىٰ ما فيه انه بدعة وضلالة وفيما نص اللَّه من ذكر المحبة كفاية» ا.هـ.

ثانياً: إلا أن الشيخ بيَّن خطأ كثير من المتصوفة في معنىٰ المحبة، ومن ذلك: انحراف بعض الصوفية عن معنىٰ المحبة الشرعية، إلىٰ

الغَيْرة المذمومة؛ فقال: «وكما ذَكَرَ[١] في باب المحبة فقال: «.. سمعت الشبلي يقول: المحبة أن تغار على المحبوب أن يحبه مثلك!! «وهذا أيضاً وجه فاسد جداً؛ وهو جهل بالله وبما يستحقه، وتشبيه له بالمحبوب من البشر» ا.هـ.

ثالثاً: أما مذهب أهل وحدة الوجود في محبة الله لعباده، ومحبة العباد لربهم، فقد بين الشيخ أنهم ينفون المحبة مطلقاً، لأنه ما ثَمَّ مُحِبٌ ولا مُحَبٌ، فقال أثناء رده على الاتحادية: «وكذلك قول القائل: وجدت المحبة غير المقصود؛ لأنها لا تكون إلا من غَير لِغَيْر، وغَيْرٌ ما ثَمَّ، ووجدت التوحيد غير المقصود؛ لأن التوحيد ما يكون إلا من عبد لرب، ولو أنصف الناس ما رأوا عبداً ولا معبوداً[٢]: هو كلام فيه من الكفر والإلحاد والتناقض مالا يخفي؛ فإن الكتاب والسنة وإجماع المسلمين: أثبتت محبة الله لعباده المؤمنين ومحبتهم له:.. وقوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].. **وقوله: المحبة ما تكون إلا من غَيْر لِغَيْر وغَيْر ما ثَمَّ:** كلامٌ باطلٌ من كل وجه» ا.هـ.

رابعاً: وذكر الشيخ: أن جمهور المتصوفة أثبتوا محبة العبد لله تعالى، ولكن لم يخلُ ذلك من خلل عند أكثرهم فقال: «وأما الصوفية فهم يثبتون المحبة، بل هذا أظهر عندهم من جميع الأمور، وأصل طريقتهم إنما هي الإرادة والمحبة،.. والنفوس قد تدعي محبة الله وتكون في نفس الأمر محبةَ شرك تحب ما تهواه وقد أشركته في الحب مع الله،.. فلما صار كثير من الصوفية النساك المتأخرين

---

(١) يعني أبا القاسم القشيري، وقد ذكر هذا الكلام في الرسالة القشيرية (ص: ٣٢٢).

(٢) هذا من كلام ابن عربي، وقد ذكر مثل هذا الضلال وأعظم منه في الفصوص (ص: ٣٦٨).

يدَّعون المحبة ولم يَزِنُوها بميزان العلم والكتاب والسنة؛ دخل فيها نوع من الشرك واتباع الأهواء، واللَّه تعالىٰ قد جعل محبته موجبة لاتباع رسوله فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]» ا. هـ.

خامساً: ثم بين الشيخ أن حقيقة محبة اللَّه تعالىٰ عند بعض الصوفية هي محبة كل ما خلق اللَّه من خير وشرّ، وعدم التفريق بين محبوب الرب تعالىٰ ومبغوضه، وأن هذا قادهم إلىٰ إسقاط التكاليف، وعدم لوم العُصاة، وغير ذلك من البدع:

قال الشيخ أثناء كلامه عن المتصوفة: «هؤلاء سلكوا طريقَ الإرادة والمحبة مجملاً من غير اعتصام بالكتاب والسنة، كما سلك أهل الكلام والرأي طريقَ النظر والبحث من غير اعتصام بالكتاب والسنة، فوقع هؤلاء في ضلالات وهؤلاء في ضلالات..

والذين ادّعوا المحبة من الصوفية وكان قولهم في القدر من جنس قول الجهمية المجبرة هم في آخر الأمر لا يشهدون للرب محبوباً إلا ما وقع وقُدِّر وكل ما وقع من كفر وفسوق وعصيان فهو محبوبه عندهم، فلا يبقىٰ في هذا الشهود فرقٌ بين موسىٰ وفرعون، ولا بين محمد وأبي جهل، ولا بين أولياء اللَّه وأعدائه، ولا بين عبادة اللَّه وحده وعبادة الأوثان، بل هذا كله عند الفاني في توحيد الربوبية سواء، ولا يفرق بين حادث وحادث إلا من جهة ما يهواه ويحبه، وهذا هو الذي اتخذ إلهه هواه» ا. هـ.

وقال الشيخ: «وكثيرٌ ممن يدعي المحبة يخرج عن شريعته وسنته، ويدعي من الخيالات ما لا يتسع هذا الموضع لذكره، حتىٰ قد يظن أحدهم سقوطَ الأمر وتحليلَ الحرام له وغير ذلك مما فيه مخالفة شريعة الرسول وسنته وطاعته» ا. هـ.

سادساً: وبسبب غلوّ فريق من المتصوفة في المحبة، وعدم انضباطهم بالضوابط الشرعية فيها، وقعوا في الاتحاد والحلول، قال الشيخ: «ولقوة الاتصال زعم بعض الناس أن العالِم والعارِف يتحد بالمعلوم المعروف، وآخرون يرون أن المحب قد يتحد بالمحبوب، وهذا إما غلط وإما توسع في العبارة؛ فإنه نوعُ اتحادٍ: هو اتحادٌ في عين المتعلقات من نوع اتحاد في المطلوب والمحبوب والمأمور به والمرضي والمسخوط، واتحاد في نوع الصفات من الإرادة والمحبة والأمر والنهي والرضا والسخط، بمنزلة اتحاد الشخصين المتحابين، وهذا له تفصيل نذكره في غير هذا الموضع» ا.هـ.

الصفة الثانية: المعية:

معية اللّه تعالىٰ لعباده ثابتة بالكتاب والسنة، قال الشيخ في بيان معنىٰ معية اللّه لخلقه: «إن اللّه معنا حقيقة، وهو فوق العرش حقيقة، كما جمع بينهما في قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد]، فأخبر أنه فوق العرش، يعلم كل شيء وهو معنا أينما كنا.. وذلك أن كلمة مع في اللغة إذا طلقت، فليس ظاهرها في اللغة إلا المقارنة المطلقة من غير وجوب مماسة أو محاذاة، عن يمين أو شمال، فإذا قيدت بمعنىٰ من المعاني دلت علىٰ المقارنة في ذلك المعنىٰ، فإنه يقال: ما زلنا نسير والقمر معنا، أو والنجم معنا، ويقال: هذا المتاع معي لمجامعته لك، وإن كان فوق رأسك، فاللّه مع خلقه حقيقة، وهو فوق عرشه حقيقة» ا.هـ.

أما مذهب الصوفية في المعية، فيمكن بيان ما ذكره الشيخ فيما يلي:

أولاً: نقل الشيخ عن الجنيد موافقته لأهل السنة والجماعة في المعية: فقال أثناء تعليقه على ما ذكره أبو القاسم القشيري في الرسالة: «قال[١]: وسأل ابنُ شاهين الجنيدَ عن معنى «مع»؟ فقال: على معنيين: مع الأنبياء بالنصرة والكلاءة، قال الله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه]، ومع العامة: بالعلم والإحاطة، قال الله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]، فقال ابنُ شاهين: مثلك يصلح أن يكون دالاً للأمة على الله، قلت: هذا كلام حسن متفق على صحة معناه بين أئمة الهدى، وكانوا يقولون مثل هذا الكلام رَداً على من يقول من الجهمية: إن الحق بذاته في كل مكان، ويمكن أن يقول فوق العرش، وقد وقع في ذلك طائفة من المتصوفة حتى جعلوه عين الموجودات ونفس المصنوعات كما يقوله أهل الاتحاد العام» ا. هـ.

ثانياً: الاتحادية لا معنى عندهم للمعية لقولهم باتحاد الله تعالى ومخالطة لمخلوقاته:

قال الشيخ أثناء كلامه عن اختلاف الناس في مسألة المعية والقرب: «يقولون: إنه بذاته في كل مكان، كما يقول ذلك النجارية وكثير من الجهمية، عُبادهم وصوفيتُهم وعوامُّهم، ويقولون: إنه عين وجود المخلوقات، كما يقوله أهل الوحدة القائلون بأن الوجود واحد، ومن يكون قوله مركباً من الحلول والاتحاد، وهم يحتجون بنصوص المعية والقرب ويتأولون نصوص العلو والاستواء، وكل نص يحتجون به حجة عليهم فإن المعية أكثرها خاصة بأنبيائه وأوليائه، وعندهم أنه في كل مكان، وفي نصوصهم ما يبين نقيضَ قولهم فإنه قال: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾ [الحديد]، فكل من في

(١) الرسالة القشيرية (١/٣٩ ـ ٤٠).

السماوات والأرض يسبح، والمسبِّح غيرُ المسبَّح.. ولهذا قال ابن عربي[١]: من أسمائه الحسنىٰ (العلي) علىٰ من يكون علياً؟ وما ثم إلا هو؟ وعن ماذا يكون علياً؟ وما هو إلا هو؟ فعلوه لنفسه، وهو من حيث الوجود عين الموجودات، فالمسمىٰ محدثات هي العلية هي لذاتها، وليست إلا هو» ا.هـ.

الصفة الثالثة: العلوُّ، والاستواء على العرش:

علو اللَّه تعالىٰ واستواؤه علىٰ العرش ثابت له سبحانه علىٰ الوجه اللائق به، بالكتاب والسنة، قال تعالىٰ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [المُلك: ١٦]، وقال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه]، والأدلة علىٰ علو اللَّه تعالىٰ علىٰ خلقه تزيد علىٰ ألف دليل[٢].

أما مذهب الصوفية في العلو والاستواء، فقد بينه الشيخ، وفصل أقوالهم وأحوالهم فيما يلي:

ذكر أن بعض مشايخ الصوفية يتكلم في مسائل العلو والاستواء بكلام مجمل يمكن أن يُحمل علىٰ محامل حقّة وباطلة؛ فقال: «ثم ذكر[٣] ما جاء في العلو فقال: سمعت.. قال لي أبو عثمان المغربي يوماً: يا محمد! لو قيل لك أين معبودك؟ إيش تقول؟ قلت: أقول: حيث لم يزل! قال: فإن قال: فأين كان في الأزل؟ إيش تقول؟ قلت: أقول: حيث هو الآن! قال: يعني أنه كان ولا مكان فهو الآن علىٰ ما عليه كان، فارتضىٰ مني ذلك ونزع قميصه وأعطانيه.. هذا الكلام

---

(١) انظر كلام ابن عربي في فصوص الحكم (ص: ٧٧).

(٢) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٢٩٢ ـ ٢٩٧).

(٣) يعني أبا القاسم القشيري، وقد ذكر هذا الكلام في الرسالة القشيرية (٣٣/١ ـ ٣٤).

الذي ذكره عن أبي عثمان كلامٌ مجملٌ ليس فيه دليل علىٰ أنه كان يقول: ليس فوق السماوات ربٌ، ولا هناك إلهٌ، ولكن جواب أبي عثمان يوافق قول أهل الإثبات، وهم أهل الفطرة العقلية السليمة من الأولين والآخرين، الذين يقولون: إنه فوق العالم؛ إذ العلم بذلك فطريٌ عقليٌ ضروريٌ لا يتوقف علىٰ سمع» ا. هـ.

وذكر شيخ الإسلام أن فريقاً من الصوفية يوافقون أهل السنة والجماعة في إثبات العلو والاستواء علىٰ الوجه اللائق بالله ﷻ فقال: **«وقال الإمام العارف معمر بن أحمد الأصبهاني ـ شيخ الصوفية في أواخر المائة الرابعة قبل القشيري ـ في رسالة له: أحببتُ أن أوصي أصحابي بوصية من السنة، وموعظة من الحكمة، وأجمع ما كان عليه أهل الحديث والأثر، وأهل المعرفة والتصوف، من المتقدمين والمتأخرين.. قال فيها: وأن الله استوىٰ علىٰ عرشه بلا كيف ولا تشبيه ولا تأويل، والاستواء معقول والكيف فيه مجهول، وأنه ﷻ مستوٍ علىٰ عرشه بائنٌ من خلقه، والخلقُ بائنون منه بلا حلول ولا ممازجة ولا اختلاط ولا ملاصقة؛ لأنه الفرد البائن من الخلق، الواحد الغنيّ عن الخلق، وأن الله سميعٌ بصيرٌ عليمٌ خبيرٌ، يتكلم ويرضىٰ ويسخط ويضحك ويعجب»** ا. هـ.

وخلاصة ما سبق من كلام شيخ الإسلام أن الصوفية ينقسمون في محبة الله تعالىٰ وإثبات علوّه إلىٰ:

ـ قسم: وافقوا أهل السنة والجماعة، فأثبتوا المحبة والعلوّ علىٰ الوجه الشرعي اللائق به سبحانه.

ـ وقسم: وافقوا أهل السنة في إثبات مسمىٰ المحبة ولكن خالفوهم في حقيقتها؛ فحقيقة محبة العبد لربه عندهم أن يعشقه!!.

- وقسم: هم من غلاة المتصوفة القائلين بالحلول والاتحاد، أو من تأثر بهم، وهؤلاء لا يثبتون المحبة ولا العلو أصلاً؛ لأنه ليس عندهم أصلاً مُحِبٌ ومُحَبٌ، ولا عالٍ ومعلْوٌّ.



الفصل الرابع: النبوة والولاية وخوارق العادات

المبحث الأول

موقفهم من النبوَّة

✍ **تمهيد:**

النبي في لغة العرب: مشتق من النبأ، وهو الخبر، قال تعالىٰ: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾﴾ [النبأ]، فالنبي مُخبرٌ عن اللَّه، وهو مُخبَرٌ من اللَّه، ﴿قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾ [التحريم]، وهو مخبر عن اللَّه تعالىٰ أمره ووحيه ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر]. والنبي هو الذي ينبؤه اللَّه، وهو ينبّئ بما أنبأه اللَّه به، وقيل: النبي مشتق من النَّبْوَة، وهي ما ارتفع من الأرض، وتطلق العرب لفظ النبي علىٰ عَلَمٍ من أعلام الأرض التي يُهتدىٰ بها، فالأنبياء هم الأعلام التي يهتديً بها الخلق.

وأنبياء اللَّه تعالىٰ هم صفوة الخلق، وأفضل البشر، قال تعالىٰ: ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، ولا سبيل إلىٰ معرفة الشرع إلا من طريقهم، ومن سلك غير سبيلهم ضلّ عن الصراط المستقيم.

أما ما حكاه الشيخ من مذهب المتصوفة في النبوة والأنبياء، فيمكن بيانه في النقاط التالية:

✍ **أولاً: يقول بعض المتصوفة: إن الأنبياء يخضعون للأولياء:**

قال الشيخُ: «فإنه يقول: النبوة خُتِمت لكن الولاية لم تختم! ويدَّعي من الولاية ما هو أعظم من النبوة، وما يكون للأنبياء

والمرسلين! وأن الأنبياء يستفيدون منها!.. ويقولون في النبوة إن الولاية أعظم منها؛ كما قال ابن عربي:

مـقـام الـنـبـوة في بـرزخٍ   فُوَيقَ الرسولِ ودون الولـي

وقال ابن عربي في الفصوص(١): وليس هذا العلم إلا لخاتم الرسل وخاتم الأنبياء، وما يراه أحدٌ من الأنبياء إلا من مشكاة خاتم الأنبياء، وما يراه أحدٌ من الأولياء إلا من مشكاة خاتم الأولياء، حتىٰ أن الرسل إذا رأوه لا يرونه إذا رأوه إلا من مشكاة خاتم الأولياء؛ فإن الرسالة والنبوة ـ أعني رسالةَ التشريع ونبوته ـ تنقطعان، وأما الولاية فلا تنقطع أبداً» ا.هـ.

ثانياً: بيَّن الشيخُ أن ملاحدة المتصوفة وغلاتهم هم على مذهب الفلاسفة في النبوة، وأنها مكتسبة، وأن النبي له ثلاث صفات من حَقَّقها أصبح نبياً!:

فقال: «ولكن هذا بناه ابن عربي وأمثاله من الملاحدة علىٰ أصول الفلاسفة الصابئة، وهؤلاء أخذوا كلام الفلاسفة أخرجوه في قالب المكاشفة والمشاهدة، والمَلَك عند هؤلاء ما يُتَخيَّل في نفس النبي من الصورة الخيالية وهم يقولون أن للنبي ثلاث خصائص: **إحداها**: أن يكون له قوةٌ قدسية ينال بها العلم بلا تعلم، **الثانية**: أن تكون له قوة نفسانية يؤثر بها في هيولىٰ(٢) العالم، **الثالثة**: أن يرىٰ ويسمع في نفسه بطريق التخيل ما يتمثل له من الحقائق، فيجعلون ما يراه

---

(١) فصوص الحكم (٦٢/١).

(٢) الهيولىٰ: في اللغة: لفظ يوناني بمعنىٰ: الأصل والمادة، وفي الاصطلاح: هي جوهر في الجسم قابل لما يعرض لذلك الجسم من الاتصال والانفصال، فالهيولىٰ محلٌّ للصورتين الجسمية والنوعية.

الأنبياء من الملائكة ويسمعونه منهم إنما وجوده في أنفسهم لا في الخارج، وخاتم الأولياء عندهم يأخذ المعقولات الصريحة التي لا تفتقر إلىٰ تخيل!.

ومن كان هذا قوله قال أنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه المَلَك الذي يوحي إلىٰ خاتم الأنبياء؛ فإن الملك عنده هو الخيال الذي في نفس النبي، وهو يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الخيال.

فهذا وأمثاله هو المكاشفة التي يرجع إليها من استغنىٰ عن تلقي الأمور من جهة السمع وهؤلاء هم الذين سلكوا ما أشار إليه صاحب الإحياء(١) وأمثاله، ممن جرىٰ في بعض الأمور علىٰ قانون الفلاسفة.

وطريق هؤلاء المتفلسفة شرٌ من طريق اليهود والنصارىٰ، وقد بسط الكلام علىٰ طريقهم في غير هذا الموضع» ا.هـ.

وقال: «فلما اعتقدوا في النبوة ما يعتقده هؤلاء المتفلسفة؛ صاروا يقولون: أن الولاية أعظم من النبوة، كما يقول كثيرٌ من الفلاسفة: إن الفيلسوف أعظم من النبي» ا.هـ.

ثالثاً: وبسبب اعتقاد هؤلاء المتصوفة أن الأولياء أفضل من الأنبياء، صاروا يتنقصونهم، ويصرحون بذمهم:

قال الشيخ أثناء ذمه للاتحادية: «.. وحدثني الثقة الذي كان منهم ثم رجع عنهم أن أبغض الناس إليهم محمد بن عبد اللَّه ﷺ.. ولهذا عاب ابنُ عربي نوحاً.. وعظَّم قومَه الكفارَ الذين عبدوا الأصنام وأنهم ما عبدوا إلا اللَّه وأن خطاياهم خَطَتْ بهم فغرِقوا في بحار العلم باللَّه، وهذا عادته ينتقص الأنبياء ويمدح الكفار، كما ذكر مثل ذلك في قصة نوح وإبراهيم، وموسىٰ وهارون، وغيرهم ومدح

---

(١) يعني الغزالي، وانظر كلامه في ذلك في الإحياء (٤/٢٤٥ ـ ٢٤٧).

عُبّاد العجل وتنقص هارون وافترىٰ علىٰ موسىٰ[(١)]» ا.هـ.

رابعاً: وبين الشيخ أن معتدلي الصوفية، بريئون من القول بتفضيل الأولياء على الأنبياء، ونقل ذلك عن أبي بكر الكلاباذي:

فقال: «.. وشيوخ الصوفية متفقون علىٰ تفضيل الأنبياء علىٰ الأولياء، كما اتفق سائر علماء المسلمين، وقد ذكر أبو بكر الكلاباذي في كتابه (اعتقاد الصوفية) إجماع الصوفية علىٰ ذلك[(٢)]» ا.هـ.

وقد رد الشيخ علىٰ من فضَّل الأولياءَ علىٰ الأنبياء، بقوله: «ومن كان رسولاً فقد اجتمعت فيه ثلاثة أصناف: الرسالة، والنبوة، والولاية، ومن كان نبياً فقد اجتمع فيه الصفتان، ومن كان ولياً فقط لم يكن فيه إلا صفة واحدة. ومن كان لكتاب اللَّه أتبع؛ فهو بولاية اللَّه أحق» ا.هـ.

---

(١) قال ابن عربي في فصوص الحكم: «فإن عبادة العجل فرقت بينهم، فكان منهم من عبده اتباعاً للسامري وتقليداً له، ومنهم من توقف عن عبادته حتىٰ يرجع موسىٰ إليهم فيسألونه في ذلك، فخشي هارون أن ينسب ذلك الفرقان بينهم إليه، فكان موسىٰ أعلم بالأمر من هارون؛ لأنه علِم ما عبده أصحاب العجل، لعلمه بأن اللَّه قد قضىٰ ألا يُعبد إلا إياه، وما حكم اللَّه بشيء إلا وقع، فكان عتب موسىٰ أخاه هارون لِما وقع الأمر في إنكاره وعدم اتساعه، فإن العارف يرىٰ الحق في كل شيء، بل يراه عين كل شيء» ا. هـ (ص: ٣٦٠ ـ ٣٦١).

(٢) قال أبو بكر الكلاباذي في كتابه: (التعرف لمذهب التصوف): «وأجمعوا جميعاً أن الأنبياء أفضل البشر، وليس في البشر من يوازي الأنبياء في الفضل، لا صِدّيق ولا وليّ ولا غيرهم، وإن جلّ قدره وعظم خطره» ا.هـ (ص: ٦٩).

خامسًا: قول بعضهم بإمكان الاستغناء عن الأنبياء في تلقي الدين:

قال الشيخ: «وكذلك كان بالشام ومصر طائفة مع تصوفهم وتألههم وتزهدهم: يشرب أحدهم الخمر في نهار رمضان، وتارة يصلون، وتارة لا يصلون، فإنهم لا يدينون بإيجاب واجبات الإسلام وتحريم محرماته عليهم؛ بل يقولون: هذا للعامة والأنبياء، وأما مثلنا فلا يحتاج إلىٰ الأنبياء» ا.هـ.

سادسًا: الوحي عند غلاتهم هو إلهامات تفيض على النفس:

قال الشيخ أثناء رده علىٰ من قال من المتصوفة: إن الأولياء لا يحتاجون إلىٰ التلقي عن الرسول: «ومن المعلوم أن اللَّه فضل بعض الرسل علىٰ بعض وفضل بعض النبيين علىٰ بعض، كما قال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥].

كما خص موسىٰ بالتكليم فلا يمكن عامة الأنبياء والرسل أن يسمع كلام اللَّه كما سمعه موسىٰ، ولا يمكن غير محمد ﷺ أن يدرك بنفسه ما أراه اللَّه محمداً ﷺ ليلة المعراج وغير ليلة المعراج، فإذا كان أدراك مثل ذلك لا يحصل للرسل والأنبياء فكيف يحصل لغيرهم، ولكن الذي قال هذا يظن أن تكليم اللَّه لموسىٰ من جنس الإلهامات التي تقع لآحاد الناس؛ ولهذا ادَّعوا أن الواحد من هؤلاء قد يسمع كلام اللَّه كما سمعه موسىٰ بن عمران» ا.هـ.

ومما سبق يتبين لنا أن فريقاً من المتصوفة قد انحرفوا انحرافاً كبيراً في النبوة والرسالة، غلواً أو جفاءً، فمنهم من رأىٰ أن النبوة يمكن أن تحصل في هذه الأمة لغير الرسول ﷺ، فسعوا لطلبها والحصول عليها، وبعضهم تنقص مقام النبوة حتىٰ صارت النبوة، غير معظَّمة عنده، وخير السبيل ما كان عليه السلف الصالح، نسأل اللَّه الهدىٰ والسداد.

المبحث الثاني

المعجزات

المعجزة في اللغة: اسم فاعل مأخوذ من العجز، الذي هو زوال القدرة عن الإتيان بالشيء، من عمل أو رأي أو تدبير، والمعجزة في الاصطلاح: ما خرق العادة من قول أو فعل، إذا وافق دعوىٰ الرسالة، وقارنها وطابقها، علىٰ جهة التحدي ابتداءً، بحيث لا يقدر أحد علىٰ مثلها، ولا علىٰ ما يقاربها.

ولم أقف للشيخ علىٰ كلام كثير حول مذهب الصوفية في المعجزات، إلا أنه تكلم عن بعض غلاة المتصوفة كالسهروردي وابن سبعين، وبيَّن أنهما كانا يتمنيان النبوة، ويتعاطيان السيمياء، ويزعمان أن معجزات الأنبياء هي من جنس السحر والسيمياء.

فقال: «فلهذا كانت النبوة عندهم مكتسبة وصار كل من سلك سبيلهم ـ كالسهروردي المقتول وابن سبعين المغربي وأمثالهما ـ يطلب النبوة ويطمع أن يقال له: قم فأنذر، هذا يقول: لا أموت حتىٰ يقال لي: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾! وهذا يجاور بمكة ويعمد إلىٰ غار حراء؛ ويطلب أن ينزل عليه فيه الوحي كما نزل علىٰ المُزَّمل والمُدَّثر مثله، وكل منهما ومن أمثالهما يسعىٰ بأنواع السيمياء التي هي من السحر؛ ويتوهم أن معجزات الأنبياء كانت من جنس السحر السيمائي» ا.هـ.



المبحث الثالث

موقفهم من الولاية

✍ **تمهيد:**

قال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٦٤﴾ [يونس]، الولاية هي المحبة والقرب، وهي ضد العداوة، ومن كان للَّه تقياً كان للَّه ولياً، وأفضل الأولياء هم الأنبياء، وولاية اللَّه تعالىٰ لعبده هدايته إلىٰ طاعته ومحبته ونصرة دينه، وولاية العبد للَّه تقتضي الإيمان به سبحانه والتقرب إليه بطاعته وترك مساخطه، وخشيته ومراقبته.

ويعرف الصوفية الولاية بأنها: «قيام العبد بالحق عند الفناء عن نفسه، وذلك بتولِّي الحق إياه حتىٰ يبلغ غاية مقام القرب والتمكين»، والوليّ عندهم: «من تولىٰ الحقُّ أمره، وحفِظه من العصيان، ولم يُخَلِّه ونفسه بالخذلان، حتىٰ يبلغه الكمال مبلغ الرجال، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٩٦﴾ [الأعراف].

وقبل أن أشرع في بيان ما ذكره الشيخ من مذهب الصوفية في الولاية، أُحبُّ أن أُقدم قبل ذلك بذِكر:

قواعد وضوابط عامة في الولاية والأولياء، عند الشيخ:

✍ **أولاً: الولاية نوعان: شرعية، وبدعية:**

تعريف الولاية الشرعية في اللغة: الولي هو القريب، قال الشيخ: «(الولي) مشتق من الولاء وهو القرب؛ كما أن العَدُوَّ من العَدْو وهو: البعد، فولي اللَّه من والاه بالموافقة له في محبوباته ومرضياته،

وتقرب إليه بما أمر به من طاعاته» ا.هـ.

تعريف الولاية الشرعية، في الشرع: قال الشيخ: «ولاية اللَّه: هي موافقته: بالمحبة لما يحب، والبغض لما يبغض، والرضا بما يرضىٰ، والسخط بما يسخط، والأمر بما يأمر به، والنهي عما ينهىٰ عنه، والموالاة لأوليائه، والمعاداة لأعدائه، كما في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **(يقول اللَّه تعالىٰ: من عادىٰ لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتىٰ أحبه؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشىٰ بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يسعىٰ، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن؛ يكره الموت وأكره مساءته، ولابد له منه)**[١]؛ فهذا أصح حديث رُوِي في الأولياء» ا.هـ.

✍ ثانياً: لا بدّ أن تكون الولاية مضبوطة بضوابط الكتاب والسنة:

قال الشيخ: «ولهذا كان الشيوخ العارفون المستقيمون من مشايخ التصوف وغيرهم، يأمرون أهل القلوب أرباب الزهد والعبادة، والمعرفة والمكاشفة بلزوم الكتاب والسنة، قال الجنيد بن محمد: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة.. وقال غيرُ واحد من الشيوخ والعلماء: لو رأيتم الرجلَ يطير في الهواء، ويمشي علىٰ الماء! فلا تغتروا به؛ حتىٰ تنظروا وقوفه عند الأمر والنهي.. وأفضل أولياء اللَّه عندهم أكملهم متابعة للأنبياء» ا.هـ.

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ثالثاً: أولياء الله تعالى على درجتين:

قال الشيخ: «وأولياء اللَّه علىٰ طبقتين: سابقون مقربون، وأصحاب يمين مقتصدون، . . ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الواقعة]، فهذا تقسيم الناس إذا قامت القيامة الكبرىٰ التي يجمع اللَّه فيها الأولين والآخرين، . . وأولياء اللَّه تعالىٰ علىٰ نوعين: مقربون وأصحاب يمين ـ كما تقدم ـ وقد ذكر النبي ﷺ عمل القسمين في حديث الأولياء، فقال: (**يقول اللَّه تعالىٰ: من عادىٰ لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، . .**)[(١)]، **فالأبرار أصحاب اليمين**: هم المتقربون إليه بالفرائض؛ يفعلون ما أوجب اللَّه عليهم ويتركون ما حرم اللَّه عليهم، ولا يكلفون أنفسهم بالمندوبات، ولا الكف عن فضول المباحات، **وأما السابقون المقربون**: فتقرَّبوا إليه بالنوافل بعد الفرائض؛ ففعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات، فلما تقربوا إليه بجميع ما يقدرون عليه من محبوباتهم؛ أحبهم الرب حباً تاماً، كما قال تعالىٰ: (**ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتىٰ أحبه**) يعنىٰ: الحبَّ المطلقَ» ا.هـ.

رابعاً: ليس للولاية طريق غير طريق النبوة:

قال الشيخ: «كل من بلغه رسالة محمد ﷺ لا يكون ولياً للَّه إلا باتباع محمد ﷺ، . . ومن ادعىٰ أن من الأولياء الذين بلغتهم رسالة محمد ﷺ من له طريق إلىٰ اللَّه لا يحتاج فيه إلىٰ محمد فهذا كافر ملحد» ا.هـ.

خامساً: أفضل أولياء الله هم الأنبياء عليهم السلام:

قال الشيخ: «وأفضل أولياء اللَّه هم أنبياؤه، وأفضل أنبيائه هم

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه.

المرسلون منهم، وأفضل المرسلين أولو العزم: نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ومحمد صلىٰ اللَّه عليه وعليهم وسلم،.. وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب]» ا. هـ.

سادساً: الأولياء نوعان: أولياء الرحمن، أولياء الشيطان، وبينهما فرق:

قال الشيخ: «وهذه الأمور الخارقة للعادة، وإن كان قد يكون صاحبها ولياً للَّه فقد، يكون عدواً للَّه، فإن هذه الخوارق تكون لكثير من الكفار والمشركين، وأهل الكتاب والمنافقين، وتكون لأهل البدع، وتكون من الشياطين، فلا يجوز أن يُظَن أن كل من كان له شيء من هذه الأمور أنه ولي للَّه؛ بل يعتبر أولياء اللَّه بصفاتهم وأفعالهم وأحوالهم التي دلَّ عليها الكتاب والسنة،.. **فإذا كان الشخص**: مباشراً للنجاسات والخبائث التي يحبها الشيطان.. ويؤثر سماع مزامير الشيطان علىٰ سماع كلام الرحمن. **فهذه علامات أولياء الشيطان لا علامات أولياء الرحمن**.. وكما أنه يجب الفرق بين النبي الصادق وبين المتنبئ الكذاب،.. وكذلك يفرَّق بين أولياء اللَّه المتقين، وأولياء الشيطان الضالين» ا. هـ

سابعاً: بعض الناس يستعمل الجن لإظهار ولايته:

قال الشيخ: «والمقصود هنا أن الجن مع الإنس علىٰ أحوال.. **وإن لم يكن تام العلم بالشريعة فاستعان بهم فيما يظن أنه من الكرامات**: مثل أن يستعين بهم علىٰ الحج، أو أن يطيروا به عند السماع البدعي، أو أن يحملوه إلىٰ عرفات ولا يحج الحج الشرعي الذي أمره اللَّه به ورسوله، وأن يحملوه من مدينة إلىٰ مدينة، ونحو ذلك فهذا مغرور قد مكروا به، وكثير من هؤلاء قد لا يعرف أن ذلك من الجن، بل قد سمع أن أولياء اللَّه لهم كرامات وخوارق للعادات وليس عنده

من حقائق الإيمان ومعرفة القرآن ما يفرق به بين الكرامات الرحمانية وبين التلبيسات الشيطانية، فيمكرون به بحسب اعتقاده» ا.هـ.

ثامناً: ليس من شرط الوليّ أن يكون متفرّغاً للعبادة، ولا مُنصرفاً عن أشغال الدنيا، بل قد يكون تاجراً، أو فلاحاً، أو نحو ذلك:

قال الشيخ: «وليس لأولياء اللّه شيء يتميزون به عن الناس في الظاهر، من الأمور المباحات، فلا يتميزون بلباس دون لباس إذا كان كلاهما مباحاً ولا بحلق شعر أو تقصيره أو ظفره، إذا كان مباحاً، كما قيل: كم من صِدِّيق في قِباء[1] وكم من زِنديق في عَباء[2]، بل يوجدون في جميع أصناف أمة محمد ﷺ إذا لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة والفجور، فيوجدون في أهل القرآن وأهل العلم، ويوجدون في أهل الجهاد والسيف، ويوجدون في التجار والصناع والزراع» ا.هـ.

وهذه الأصول والضوابط العامة ذكرها الشيخ في مواضع متفرقة من كتبه، وقد قدّمتها بين يدي الكلام عن الولاية عند المتصوفة، ليتضح لدينا منهج الشيخ في حكاية مذهب المتصوفة في الولاية والرد عليهم.

أما ما ذكره الشيخ من مذهب الصوفية في الولاية والأولياء، فيمكن بيانه فيما يلي:

أولاً: قول بعضهم: إن الأولياء معصومون:

وقد رد الشيخ على هذا القول، وبين أنه ليس من شرط الوليّ أن يكون معصوماً فقال:

---

(١) القباء: نوع من الثياب يُكتسىٰ به، فاخر غالي الثمن، والجمع: أقبية.

(٢) العباء: نوع من الثياب يُكتسىٰ به، رديء النوع، رخيص الثمن.

«وليس من شرط وليّ اللَّه أن يكون معصوماً لا يغلط ولا يخطئ، بل يجوز أن يخفىٰ عليه بعض علم الشريعة، ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين حتىٰ يحسب بعض الأمور مما أمر اللَّه به ومما نهىٰ اللَّه عنه، ويجوز أن يظن في بعض الخوارق أنها من كرامات أولياء اللَّه تعالىٰ، وتكون من الشيطان لبسها عليه لنقص درجته، ولا يعرف أنها من الشيطان، وإن لم يخرج بذلك عن ولاية اللَّه تعالىٰ، فإن اللَّه ﷻ تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه، . . أنه قال: (**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإن اخطأ فله أجر**)[1]، . . ولهذا لَما كان ولي اللَّه يجوز أن يغلط؛ لم يجب علىٰ الناس الإيمان بجميع ما يقوله من هو وليٌ للَّه؛ إلا أن يكون نبياً، بل ولا يجوز لولي اللَّه أن يعتمد علىٰ ما يُلقىٰ إليه في قلبه إلا أن يكون موافقاً للشرع، وعلىٰ ما يقع له مما يراه إلهاماً ومحادثة وخطاباً من الحق؛ بل يجب عليه أن يعرض ذلك جميعَه علىٰ ما جاء به محمد ﷺ» ا.هـ.

ثم بين الشيخ أن القول بعدم عصمة الأولياء هو من الفروق بين الأنبياء وغيرهم فقال:

«وهذا من الفروق بين الأنبياء وغيرهم؛ فإن الأنبياء صلوات اللَّه عليهم وسلامه يجب لهم الإيمان بجميع ما يخبرون به عن اللَّه ﷻ، وتجب طاعتهم فيما يأمرون به، بخلاف الأولياء؛ فإنهم لا تجب طاعتهم في كل ما يأمرون به، ولا الإيمان بجميع ما يخبرون به، بل يعرض أمرهم وخبرهم علىٰ الكتاب والسنة، فما وافق الكتاب والسنة وجب قبوله، وما خالف الكتاب والسنة كان مردوداً» ا.هـ.

---

(١) رواه البخاري، ومسلم عن عمرو بن العاص ﷺ.

ثانياً: قولهم: إن الوليّ يُعطى قول: كنْ.. فيكون!!:

قال الشيخ: «وقالوا أقوالاً منكرة، فقال بعضهم: إن الولي يُعطَىٰ قولَ «كن»! وقال بعضهم: إنه لا يمتنع علىٰ الوليّ فعلُ ممكن، كما لا يمتنع علىٰ اللَّه تعالىٰ فعلُ محال، . . وزاد ابن عربي: أن الولي لا يعزب عن قدرته شيء من الممكنات[(١)]، والذي لا يعزب عن قدرته شيء من الممكنات هو: اللَّه وحده، فهذا تصريح منهم: بأن الولي مثل اللَّه، أن لم يكن هو اللَّه، وصرح بعضهم: بأنه يعلم كل ما يعلمه اللَّه، ويقدر علىٰ كل ما يقدر اللَّه عليه» ا. هـ.

ثالثًا: قولهم: كما أن الأنبياء لهم خاتم هو أفضلهم، فكذلك الأولياء لهم خاتم هو أفضلهم، بل هو أفضل من خاتم الأنبياء:

وقد بين الشيخ أن أول من تكلم في خاتم الأولياء هو الحكيم الترمذي، قال الشيخ: «ولم يتكلم أحدٌ من المشايخ المتقدمين بخاتم الأولياء إلا محمد بن علي الحكيم الترمذي؛ فإنه صنف مصنفاً غلط فيه في مواضع، ثم صار طائفة من المتأخرين يزعم كل واحد منهم أنه خاتم الأولياء، ومنهم من يدعي أن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء، من جهة العلم باللَّه وأن الأنبياء يستفيدون العلم باللَّه من جهته» ا. هـ.

ورد الشيخ علىٰ قولهم في خاتم الأولياء وتفضيلهم إياه علىٰ الأنبياء بل علىٰ خاتم الأنبياء، بقوله:

«فأما الغلو في ولي غير النبي حتىٰ يفضل علىٰ النبي، سواء سُمِّي ولياً أو إماماً أو فيلسوفاً، فبطلانه ظاهر مما علم من نصوص الكتاب والسنة وما عليه إجماعُ الأمة؛ فإن اللَّه جعل الذين أنعم عليهم أربعة: النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، فغاية من بعد النبي

---

(١) فصوص الحكم (ص: ٤٩).

أن يكون صديقاً، كما كان خير هذه الأمة بعد نبيها صديقاً، ولهذا كانت غاية مريم ذلك في قوله: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥].. **وإنما الكلام هنا فيما يذكرونه من خاتم الأولياء: فنقول**: هذه تسمية باطلة ولا أصل لها في كتاب، ولا سنةٍ، ولا كلامٍ مأثور عمن هو مقبول عند الأمة قبولاً عاماً، لكن يُعلم من حيث الجملة أن آخر من بقي من المؤمنين المتقين في العالم فهو آخر أولياء اللّٰه» ا.هـ.

وبما سبق يتبين أن أهل السنة والجماعة يرون أن أولياء اللّٰه تعالىٰ هم خُلَّص المؤمنين الذين قربهم اللّٰه منه بسبب طاعتهم له وتركهم معصيته، وهم الذين يصدق عليهم قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس]، وتبين لنا أيضاً أن أهل السنة لا يقولون بعصمة الأولياء، ولا يرفعونهم فوق منزلتهم.

أما الصوفية فقد تبين لنا أن فريقاً غير قليل منهم وقعوا في غلوٍّ شديد في الأولياء، كالقول بعصمتهم، ووجوب طاعتهم، أو غير ذلك، وهم بهذا الغلو أوصلوهم إلىٰ مرتبة النبوة ـ أو أرفع ـ بل جعل بعض المتصوفة لأوليائهم بعض صفات الألوهية.

وخير الهدي هدي محمد ﷺ، ومن سلك سبيل السلف فاز وأنجح، ومن غلا عنه أو جفا خسر وخاب.



المبحث الرابع

الكرامات

✍ **تمهيد:**

الكرامات: جمع كرامة، وهي في اللغة: مشتقة من الكرم ضد اللؤم، وكرّمه: عظمه ونزّهه، ومعنىٰ **الكرامة في الاصطلاح:** أمرٌ خارق للعادة، غير مقرون بدعوىٰ النبوة، ولا هو مقدمة لظهورها، يظهر علىٰ يد عبدٍ ظاهرِ الصَّلاح، ملتزم لمتابعة نبي كُلِّفَ بشريعته، مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح، علم بها ذلك العبد الصالح أم لم يعلم.

وقبل أن أذكر ما حكاه الشيخ من مذهب الصوفية في الكرامة، وغلوّهم فيها:

أمهِّد بين يدي ذلك بذِكر أصول عامة للكرامات وخوارق العادة عند أهل السنة والجماعة، من كلام الشيخ، ثم أذكر ضوابط عامة للكرامة وخرق العادة، ثم أختم بعد ذلك بِذكر ما حكاه الشيخ من مذهب الصوفية في الكرامة وخرق العادة.

أصول عامة للكرامات وخوارق العادة عند أهل السنة والجماعة:

أولاً: الخوارق، عموماً، ثلاثة أقسام: قال الشيخ: «الخارق ثلاثة أقسام: محمود مع الدين، ومذموم في الدين، ومباح لا محمود ولا مذموم في الدين، فإن كان المباح فيه منفعة كان نعمة وإن لم يكن فيه منفعة، كان كسائر المباحات التي لا منفعة فيها كاللعب والعبث» ا.هـ.

أما من خُرقت لهم العادة، فهم ثلاثة أقسام: قال الشيخ أثناء

كلامه عن الخوارق: «**الناس في هذه الأمور علىٰ ثلاث أقسام**: قسم: ترتفع درجاتهم بخرق العادة إذا استعملوها في طاعة اللَّه، وقوم: يتعرضون بها لعذاب اللَّه إذا استعملوها في معصية اللَّه كبلعام[(١)] وغيره، وقوم: تكون في حقهم بمنزلة المباحات. والقسم الأول هم المؤمنون حقاً المتبعون لنبيهم سيد ولد آدم، الذي إنما كانت خوارقه لحُجةٍ يقيم بها دين اللَّه، أو لحاجة يستعين بها علىٰ طاعة اللَّه» ا.هـ.

ثانياً: الخوارق التي تقع للفُسَّاق؛ أحد نوعين: بين الشيخ أن الخوارق التي تقع للفساق لا تخرج عن أن تكون: إما حِيَلٌ طبيعية، أو أحوال شيطانية: فقال: «كرامات الأولياء لا تكون بما نهىٰ اللَّه عنه ورسوله من أكل الخبائث، كما لا تكون بترك الواجبات، وإنما هذه المخاريق التي يفعلها هؤلاء المبتدعون من الدخول في النار، وأخذ الحيات،.. وهي نوعان: **أحدهما**: أن يفعلوا ذلك بحيل طبعية، مثل أدهان معروفة.. **النوع الثاني**: وهم أعظم: عندهم أحوال شيطانية تعتريهم عند السماع الشيطاني؛ فتنزل الشياطين عليهم كما تدخل في بدن المصروع،.. وإنما يفعل ذلك الشيطان الذي دخل فيه، والجُهَّال لأجل هذه الأحوال الشيطانية والطبيعية يظنوهم أولياء اللَّه» ا.هـ.

ثالثاً: الناس تجاه ما يقع للمشايخ من خوارق، ثلاثة أقسام: مُفْرِط، ومُفَرّط، ومعتدل:

---

(١) هو بلعام بن باعور، كان رجلاً من قوم موسىٰ عليه السلام، وكان قد آتاه اللَّه علماً، وقيل أوتي معرفة اسم اللَّه الأعظم، فدعا به علىٰ موسىٰ عليه السلام فأهلكه اللَّه، وهو الذي قال اللَّه تعالىٰ فيه: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥﴾ الآيات [الأعراف].

قال الشيخ: «والناس في خوارق العادات علىٰ ثلاثة أقسام: **قسم**: يكذب بوجود ذلك لغير الأنبياء، وربما صَدَّق به مجملاً وكَذَّب ما يذكر له عن كثير من الناس؛ لكونه عنده ليس من الأولياء، **ومنهم**: من يظن أن كل من كان له نوعٌ من خرق العادة كان ولياً للّه، وكلا الأمرين خطأ، ولهذا تجد أن هؤلاء يذكرون أن للمشركين وأهل الكتاب نُصراءَ يعينونهم علىٰ قتال المسلمين، وأنهم من أولياء اللّه، وأولئك يكذبون أن يكون معهم من له خرق عادة، **والصواب**: **القول الثالث وهو**: أن معهم من ينصرهم من جنسهم، لا من أولياء اللّه ﷻ، . . قال اللّه تعالىٰ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ [الشعراء]، والأفاك: الكذاب، والأثيم: الفاجر» ا. هـ.

رابعاً: ضَلال الأتْباع بما يرونه من خوارق ضُلال المشايخ، مبنيٌ علىٰ مقدمتين:

الأولى: ظنهم: أن وقوع الكرامة دليل علىٰ ولاية من وقعت له.

الثانية: قولهم: ما دام أنه وليٌ إذن هو معصوم!.

قال الشيخ: «فضَلال الضُّلاَّل من هؤلاء مبنيٌ علىٰ مقدمتين: **إحداهما**: أن هذا له كرامة؛ فيكون ولياً للّه، **الثانية**: أن وليَّ اللّه لا يجوز أن يُخطئ، بل يجب تصديقه في كل ما أخبر، وطاعته في كل ما أمر، وليس لأحد من البشر أن يُصَدَّق في كل ما أخبر به، ويطاع في كل ما أمر إلا أن يكون نبياً.

والمقدمتان المذكورتان: قد تكون إحداهما باطلة، وقد يكون كلاهما باطلة، فالرجل المعَيّن: قد لا يكون من أولياء اللّه، وتكون خوارقه من الشياطين، وقد يكون من أولياء اللّه، ولكن ليس بمعصوم، بل يجوز عليه الخطأ، وقد لا يكون من أولياء اللّه، ولا يكون له خوارق، ولكن له محالات وأكاذيب» ا. هـ.

خامساً: فائدة خرق العادة للصالحين: من الرسل وغيرهم:

قال الشيخ: «. . وبأن اللَّه يخرق العادات لأنبيائه: لإظهار صدقهم، ولإكرامهم بذلك، ونحو ذلك من حِكَمه، وكذلك يخرقها لأوليائه تارة: لتأييد دينه بذلك، وتارة: تعجيلاً لبعض ثوابهم في الدنيا، وتارة: إنعاماً عليهم بجلب نعمة أو دفع نِقمة، ولِغير ذلك» ا.هـ.

قواعد وضوابط عامة للكرامات وخرق العادة، عند ابن تيمية:

✍ أولاً: يجب أن تُضبط الكرامات وخرق العادة، مطلقاً، بالكتاب والسنة؛ فما وافقهما: قُبِل، وما خالفهما رُدّ:

قال الشيخ: «فالمحدَّث الملهَم المكاشَف من هذه الأمة يجب عليه أن يزِنَ ذلك بالكتاب والسنة، فإن وافق ذلك صدَّق ما ورد عليه، وإن خالف لم يلتفت إليه، كما كان يجب علىٰ عمر ﵁ وهو سيد المحدَّثين إذا أُلقي في قلبه شيء، وكان مخالفاً للسنة لم يقبل منه فإنه ليس معصوماً، وإنما العصمة للنبوة» ا.هـ.

✍ ثانياً: الكرامات إنما تحصل ببركة اتباع الشريعة، والاقتداء بالنبي ﷺ:

قال الشيخ: «فأولياء اللَّه المتقون هم المقتدون بمحمد ﷺ فيفعلون ما أمر به، . . وكرامات أولياء اللَّه إنما حصلت ببركة اتباع رسوله ﷺ فهي في الحقيقة تدخل في معجزات الرسول ﷺ، مثل. . وكرامات الصحابة والتابعين بعدهم وسائر الصالحين كثيرة جداً. . وهذا باب واسع، قد بُسط الكلام علىٰ كرامات الأولياء في غير هذا الموضع، وأما ما نعرفه عن أعيانٍ، ونعرفه في هذا الزمان فكثير» ا.هـ.

ثالثاً: لا بدّ أن يُنظر في أصل خرق العادة، من أين هو؟ والى أين يوصل؟:

قال الشيخ: «وإنما الكمال في الولاية: أن يستعمل خرق العادات في إقامة الأمر والنهي الشرعيين، مع حصولهما بفعل المأمور وترك المحظور، فإذا حصلت بغير الأسباب الشرعية، فهي مذمومة، وإن حصلت بالأسباب الشرعية، لكن استُعملت ليُتَوصل بها إلىٰ محرّم، كانت مذمومة، وإن تُوُصل بها إلىٰ مباح لا يستعان به علىٰ طاعة، كانت للأبرار دون المقربين، وأما إن حصلت بالسبب الشرعي، واستُعين بها علىٰ فعل الأمر الشرعي، فهذه خوارق المقربين السابقين، فلا بد أن يُنظر في الخوارق: في أسبابها، وغاياتها: من أين حصلت؟ وإلىٰ ماذا أوصلت؟ كما يُنظر في الأموال: في مستخرجها، ومصروفها. . . » ا. هـ.

رابعًا: ليس كل عمل أورث كرامةً وكشفاً يكون أفضل من غيره من الأعمال.

قال الشيخ **أثناء كلامه عن تفاضل الأعمال**: «ليس كل عمل أورث كشوفاً أو تصرفاً في الكون، يكون أفضل من العمل الذي لا يورث كشفاً وتصرفاً، فإن الكشف والتصرف إن لم يكن مما يُستعان به علىٰ دين اللّه، وإلا كان من متاع الحياة الدنيا، . . ففضائل الأعمال ودرجاتها لا تُتَلقّىٰ من مثل هذا، وإنما تُتَلقىٰ من دلالة الكتاب والسنة» ا. هـ.

خامسًا: قد تقع الكرامة لِضعيف الإيمان أكثر من وقوعها لِقوي الإيمان:

بيَّن الشيخ أن وقوع الكرامة وخرق العادة للشخص لا يدلّ علىٰ أنه أكمل من غيره، مطلقاً، بل قد يكون وقوعها له لتقوية إيمانه

فقال: «مما ينبغي أن يُعرف: أن الكرامات قد تكون بحسب حاجة الرجل، فإذا احتاج إليها الضعيف الإيمان، أو المحتاج، أتاه منها ما يقوي إيمانَه، ويسدُّ حاجته، ويكون من هو أكمل ولاية للَّه منه مستغنياً عن ذلك، فلا يأتيه مثلُ ذلك؛ لِعلُوِّ درجته وغناه عنها، لا لنقص ولايته، ولهذا كانت هذه الأمور في التابعين أكثر منها في الصحابة، بخلاف من يجري علىٰ يديه الخوارق لهدىٰ الخلق ولحاجتهم، فهؤلاء أعظم درجة» ا.هـ.

✍ سادساً: خرق العادة ليس دليلاً على صلاح من خُرِقت له، أو أنه من أولياء الله تعالى:

قال الشيخ: «ما يصدر عن ذوىٰ الأحوال من كشفٍ علمي، أو تأثير قدري، ليس بمستلزم لولاية اللَّه، بل ولا للصلاح، بل ولا للإيمان، إذ قد يكون هذا الجنس في كافر ومنافق وفاسق وعاص، وإنما أولياء اللَّه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون: الذين آمنوا وكانوا يتقون، ففرَّق بين ولاية اللَّه، وبين الأحوال» ا.هـ.

بل قد تُخرق العادة للكفار والمشركين، والشخص قد يكون له زهدٌ من غير إسلام، قال الشيخ: «وفي أصناف المشركين، . . فهؤلاء ليسوا بمؤمنين ولا أولياء للَّه، وهؤلاء تقترن بهم الشياطين وتنزل عليهم، فيكاشفون الناس ببعض الأمور، ولهم تصرفات خارقة من جنس السحر، وهم من جنس الكهان والسحرة الذين تنزل عليهم الشياطين، قال تعالىٰ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [الشعراء].

وهؤلاء جميعهم الذين ينتسبون إلىٰ المكاشفات، وخوارق العادات، إذا لم يكونوا متبعين للرسل فلابد أن يكذبوا، وتكذبهم شياطينهم» ا.هـ.

✍ سابعاً: بعض العِباد ينفعه خرقُ العادة فيخرقها الله تعالى له، وبعضهم يضره، فلا يخرقها الله تعالى له، فهو سبحانه أعلم بما يصلح عباده:

قال الشيخ: «فيُعلم أن اللَّه ﷻ يفتح علىٰ بعض المجاهدين الصادقين من ذلك باباً، والحكمة فيه: أن يزداد بما يرىٰ من خوارق العادات وآثار القدرة يقيناً، . . ومن كوشف بصدق اليقين أُغنيَ بذلك عن رؤية خرق العادات، لأن المراد منها كان حصولُ اليقين وقد حصل اليقين» ا.هـ.

✍ ثامناً: عدم وقوع الخوارق للعبد لا يُنقِص قدره عند الله تعالى:

قال الشيخ: «عدم الخوارق علماً وقدرةً لا تضر المسلم في دينه، فمن لم ينكشف له شيء من المغيبات، ولم يسخَّر له شيء من الكونيات، ولا ينقصه ذلك في مرتبته عند اللَّه، بل قد يكون عدمُ ذلك أنفع له في دينه؛ إذا لم يكن وجود ذلك في حقه مأموراً به أمر أيجاب ولا استحباب» ا.هـ.

✍ تاسعاً: في أماكن وأوقات الفترات عن النبوة يظهر من الخوارق ما لا يظهر في غيرها:

قال الشيخ أثناء كلامه عن الخوارق والحكمة الشرعية منها: «ولهذا لما كان الصحابة ﷺ مستغنين في علمهم بدينهم وعملهم به عن الآيات، بما رأوه من حال الرسول ﷺ ونالوه من علم، صار كل من كان عنهم أبعد ـ مع صحة طريقته ـ يحتاج إلىٰ ما عندهم في علم دينه وعمله، فيظهر مع الأفراد في أوقات الفترات وأماكن الفترات، من الخوارق مالا يظهر لهم ولا لغيرهم من حال ظهور النبوة والدعوة» ا.هـ.

عاشراً: وقوع الخوارق، قد يُنقِص درجة من وقعت له، عند الله تعالى:

قال الشيخ: «غاية الكرامة لزوم الاستقامة، . . وجميع ما يؤتيه اللَّه لعبده من هذه الأمور: إنِ استعان به علىٰ ما يحبه اللَّه. . ازداد بذلك رفعةً. . وإن استعان به علىٰ ما نهي اللَّه عنه ورسوله، كالشرك والظلم والفواحش، استحق بذلك الذم والعقاب، . . ولهذا كثيراً ما يعاقَبُ أصحاب الخوارق: تارة بسلبها، كما يُعزل الملكُ عن ملكه. . وتارة بسلب التطوعات، فيُنقل من الولاية الخاصة إلىٰ العامة، . . ولما كانت الخوارق كثيراً ما تنقص بها درجة الرجل: كان كثيرٌ من الصالحين يتوب من مثل ذلك ويستغفر اللَّه تعالىٰ» ا.هـ.

الحادي عشر: أعلى أنواع الكرامة: لزوم الاستقامة:

قال الشيخ أثناء كلامه عن ضلال بعض الصوفية في الكرامة وخرق العادة، والغفلة عن ضلال من وقعت له: «. . ويعدون مجرد خرق العادة لأحدهم بكشفٍ يُكشَف له، أو بتأثير يوافق أرادته هو كرامة من اللَّه له! ولا يعلمون أنه في الحقيقة إهانة؛ وأن الكرامة: لزوم الاستقامة، وأن اللَّه لم يكرم عبده بكرامة أعظم من موافقته فيما يحبه ويرضاه» ا.هـ.

موقف الصوفية من الكرامات وخرق العادة:

تحتل الكرامات مساحة كبيرة من اهتمامات الصوفية، وكتبهم مملوءة بالغرائب والعجائب من أخبارها، والكثير منها يرده الشرع ويرفضه العقل، وهم ينشرون أخبار هذه الكرامات ويبالغون في تعظيم من وقعت لهم، ليكون هؤلاء الأولياء الذين وقعت لهم هذه الكرامات مصدراً للتلقي عند الناس.

وقد بين الشيخ موقف الصوفية من الكرامات وذكر أصولهم ومنهجهم في الكرامات، فيما يلي:

✍ **أولاً: تجويزهم وقوع الكرامة للفساق والفجار:**

قال الشيخ أثناء كلامه عن ضلال بعض الصوفية في مسألة الكرامة وخرق العادة: «وآخرون من عوام هؤلاء يجوزون: أن يكرم اللَّه بكراماتِ أكابرِ الأولياء من يكون فاجراً بل كافراً، ويقولون: هذه موهبةٌ وعطيةٌ يعطيها اللَّهُ من يشاء، ما هي متعلقةٌ لا بصلاةٍ ولا بصيام! ويظنون أن تلك من كرامات الأولياء! وتكون كراماتهم: من الأحوال الشيطانية التي يكون مثلُها للسحرة والكهان، . . ثم **منهم من يعرف أن هذا من الشيطان، ولكن يعظم ذلك؛** لهواه، . . ومنهم من لا يعرف أن هذا من الشياطين، وقد يقع في مثل هذا طوائف من أهل الكلام والعلم، وأهل العبادة والتصوف؛ حتىٰ جوَّزوا عبادةَ الكواكب والأصنام، لِمَا رأوه فيها من الأحوال العجيبة، التي تعينهم عليها الشياطين» ا. هـ.

✍ **ثانياً: اعتقاد بعضهم أن خرق العادة له يُسقط عنه العبادات أو يُخففها:**

قال الشيخ أثناء كلامه عن أهمية الصلاة: «ومن اعتقد أنها تسقط عن بعض الشيوخ العارفين، والمكاشفين والواصلين، أو أن للَّه خواصاً لا تجب عليهم الصلاة بل قد سقطت عنهم لوصولهم إلىٰ حضرة القدس، أو لاستغنائهم عنها بما هو أهم منها أو أَوْلىٰ . . » ا. هـ.

✍ **ثالثاً: حرصهم على بذل الأسباب الجالبة لخرق العادة:**

قال الشيخ: «أهل الضلال والبدع، الذين فيهم زهد وعبادة علىٰ غير الوجه الشرعي، ولهم أحياناً مكاشفات ولهم تأثيرات، يأوون كثيراً إلىٰ مواضع الشياطين التي نُهيَ عن الصلاة فيها، لأن الشياطين تتنزل عليهم بها، وتخاطبهم الشياطين ببعض الأمور كما تخاطب

الكهان، . . وقد تقضي بعض حوائجهم. . ولكن الضرر يحصل لهم بذلك أعظم من النفع، بل قد يكون أضعافَ أضعاف النفع» ا.هـ.

رابعاً: تلاعب الجن بهم، ويظنون هذا التلاعب من الكرامات:

قال الشيخ: «فهذا كله موجودٌ كثيراً لكن من الناس: من يعلم أن هذا من الشيطان وأنه من السحر، وأن ذلك حصل بما قاله وعمله من السحر، ومنهم: من يعلم أن ذلك من الجن ويقول: هذا كرامة أُكرمنا بتسخير الجن لنا!.

ومنهم: من لا يظن أولئك الأشخاص إلا آدميين أو ملائكة، فإن كانوا غير معروفين قال: هؤلاء رجال الغيب، وإن تسموا فقالوا: هذا هو الخضر، وهذا هو إلياس، وهذا هو أبو بكر وعمر، وهذا هو الشيخ عبد القادر، أو الشيخ عدي، أو الشيخ أحمد الرفاعي، أو غير ذلك، ظن أن الأمر كذلك، فهنا لم يغلط لكن غلط عقله حيث لم يعرف أن هذه شياطين تمثلت علىٰ صور هؤلاء. . .» اهـ.

وقال الشيخ في موضع آخر أثناء كلامه عن الاستغاثة بغير اللَّه: «وأعرف من هؤلاء من كان له شياطين تخدمه في حياته بأنواع الخدم، مثل خطاب أصحابه المستغيثين به، وإعانتهم، وغير ذلك، فلما مات صاروا يأتون أحدهم في صورة الشيخ، ويشعرونه أنه لم يمت، ويرسلون إلىٰ أصحابه رسائل، بخطاب وقد كان يجتمع بي بعض أتباع هذا الشيخ، وكان فيه زهد وعبادة، وكان يحبني ويحب هذا الشيخ، ويظن أن هذا من الكرامات، وأن الشيخ لم يمت، وذكر لي الكلام الذي أرسله إليه بعد موته، فقرأه فإذا هو كلام الشياطين بعينه.

وقد ذكر لي غير واحد ممن أعرفهم أنهم استغاثوا بي، فرأوني في الهواء وقد أتيتهم وخلصتهم من تلك الشدائد، مثل من أحاط به النصارىٰ الأرمن ليأخذوه، وآخر قد أحاط به العدو ومعه كتب

ملطفات من مناصحين لو اطلعوا علىٰ ما معه لقتلوه، ونحو ذلك، فذكرت لهم أني ما دريت بما جرىٰ أصلاً، وحلفت لهم علىٰ ذلك حتىٰ لا يظنوا أني كتمت ذلك كما تكتم الكرامات، وأنا قد علمتُ أن الذي فعلوه ليس بمشروع بل هو شرك وبدعة، ثم تبين لي فيما بعد وبينت لهم أن هذه شياطين تتصور علىٰ صورة المستغاث به، وحكىٰ لي غيرُ واحد من أصحاب الشيوخ أنه جرىٰ لمن استغاث بهم مثلُ ذلك، وحكىٰ خلق كثير أنهم استغاثوا بأحياء وأموات فرأوا مثل ذلك، واستفاض هذا حتىٰ عرف أن هذا من الشياطين.

خامساً: تعمد بعض الشيوخ استخدام الجن لإظهار الخوارق، وخداع الناس، ويسمون ذلك كرامات:

قال الشيخ أثناء ذمه **للحلاج**: «.. وكان صاحب سيما وشياطين تخدمه أحياناً، كانوا معه علىٰ جبل أبي قبيس فطلبوا منه حلاوة فذهب إلىٰ مكان قريب منهم وجاء بصحن حلوىٰ، فكشفوا الأمر فوجدوا ذلك قد سُرق من دكان حلاوي باليمن، حمله شيطان من تلك البقعة، ومثل هذا يحصل كثيراً لغير الحلاج، ممن له حال شيطاني، ونحن نعرف كثيراً من هؤلاء في زماننا وغير زماننا: **مثل**: شخص ـ هو الآن بدمشق ـ كان الشيطان يحمله من جبل الصالحية إلىٰ قرية حول دمشق، فيجيء من الهوىٰ إلىٰ طاقة البيت الذي فيه الناس، فيدخل وهم يرونه، ويجيء بالليل إلىٰ باب الصغير فيعبر منه هو ورفقته وهو من أفجر الناس.

فكل من خرج عن الكتاب والسنة وكان له حال: من مكاشفة أو تأثير، فإنه صاحب حال نفساني أو شيطاني، وإن لم يكن له حال بل هو يتشبه بأصحاب الأحوال، فهو صاحب محال بهتاني، وعامة أصحاب الأحوال الشيطانية يجمعون بين الحال الشيطاني والحال

البهتاني، كما قال تعالىٰ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ [الشعراء]، والحلاج: كان من أئمة هؤلاء، أهل الحال الشيطاني والحال البهتاني، وهؤلاء طوائف كثيرة» ا.هـ.

وبيَّن الشيخ أن من أظهر هذه الخوارق وادعىٰ أنها كرامات، فإنه ينبغي أن يؤدَّب فقال: «فصلٌ: فأما الغش والتدليس في الديانات فمثل البدع المخالفة للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، من الأقوال والأفعال: مثل إظهار المكاء والتصدية في مساجد المسلمين..، ومثل إظهار الخزعبلات السحرية والشعبذية الطبيعية، وغيرها، التي يُضاهي بها ما للأنبياء والأولياء من المعجزات والكرامات، ليُصدَّ بها عن سبيل اللَّه، أو يُظَن بها الخير فيمن ليس من أهله، وهذا باب واسع يطول وصفه.

فمن ظهر منه شيء من هذه المنكرات، وجب منعُه من ذلك وعقوبتُه إذا لم يتب، متىٰ قُدر عليه بحسب ما جاءت به الشريعة» ا.هـ.

قال الشيخ أثناء كلامه عن خزعبلات بعض أصحاب الخوارق: «وآخرون من عوام هؤلاء يجوزون: أن يكرم اللَّه بكرامات أكابر الأولياء من يكون فاجراً، بل كافراً؛ ويقولون: هذه موهبة وعطية يعطيها اللَّه من يشاء، ما هي متعلقة لا بصلاة ولا بصيام، ويظنون أن تلك من كرامات الأولياء، وتكون كراماتهم: من الأحوال الشيطانية التي يكون مثلها للسحرة والكهان، قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ [البقرة].

ثم منهم من يعرف: أن هذا من الشيطان، ولكن يعظم ذلك لهواه ويفضله علىٰ طريق القرآن» ا.هـ.

✍ **سادساً: تعمد بعض الشيوخ استخدام السحر لإظهار الخوارق، وخداع الناس، ويسمون ذلك كرامات:**

قال الشيخ أثناء كلامه عن تنوع الناس في الحرص علىٰ الخوارق: «وطائفة أخرىٰ: عندهم أن الكمال في القدرة والسلطان، والتصرف في الوجود: نفاذ الأمر والنهي، إما بالملك والولاية الظاهرة، وإما بالباطن، وتكون عبادتهم ومجاهدتهم لذلك.

وكثير من هؤلاء يدخل في الشرك والسحر، فيعبد الكواكب والأصنام، لتعينه الشياطين علىٰ مقاصده، وهؤلاء أضلُّ وأجهلُ من الذين قبلهم، وغاية من يعبد اللَّه: يطلب خوارق العادات، يكون له نصيب من هذا؛ ولهذا كان منهم من يُرىٰ طائراً، ومنهم يُرىٰ ماشياً، ومنهم.. وفيهم جهال ضلال» ا.هـ.

✍ **وأخيراً: ذكر الشيخ نماذج من الخوارق التي حقيقتها أنها أحوال شيطانية.**

فقال: «وهذا بخلاف الأحوال الشيطانية مثل حال عبد اللَّه بن صياد: الذي ظهر في زمن النبي ﷺ وكان قد ظن بعضُ الصحابة أنه الدجال، وتوقف النبيُّ ﷺ في أمره حتىٰ تبين له فيما بعد أنه ليس هو الدجال، لكنه كان من جنس الكهان، قال له النبي ﷺ: (**قد خبأتُ لك خِبأً؟**) قال: الدُّخ.. الدُّخ، وقد كان خبأ له سورة الدخان، فقال له النبي ﷺ: (**اخسأ فلن تعدو قدرك**)(١) يعني إنما أنت من إخوان الكهان، والكهان كان يكون لأحدهم القرين من الشياطين يخبره

(١) رواه البخاري، ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنه.

بكثير من المغيبات بما يسترقه من السمع، وكانوا يخلطون الصدق بالكذب.

كما في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره أن النبي ﷺ قال: (**إن الملائكة تنزل في العنان ـ وهو السحاب ـ فتذكر الأمر قُضي في السماء، فتسترق الشياطين السمع فتوحيه إلىٰ الكهان، فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم**)[١].

والأسود العنسي ـ الذي ادعىٰ النبوة ـ: كان له من الشياطين من يخبره ببعض الأمور المغيبة، فلما قاتله المسلمون كانوا يخافون من الشياطين، أن يخبروه بما يقولون فيه حتىٰ أعانتهم عليه امرأته لما تبين لها كفره فقتلوه[٢].

وكذلك مسيلمة الكذاب: وكان معه من الشياطين من يخبره بالمغيبات، ويعينه علىٰ بعض الأمور.

وأمثال هؤلاء كثيرون مثل: الحارث الدمشقي: الذي خرج بالشام زمن عبد الملك بن مروان، وادعىٰ النبوة وكانت الشياطين يخرجون رجليه من القيد، وتَمنعُ السلاحَ أن ينفذ فيه، وتسبح الرخامة إذا مسحها بيده، وكان يُري الناسَ رجالاً وركباناً علىٰ خيل في الهواء، ويقول: هي الملائكة، وإنما كانوا جِنّاً، ولما أمسكه المسلمون ليقتلوه طعنه الطاعن بالرمح، فلم ينفذ فيه فقال له عبد الملك: إنك لم تُسَمِّ اللَّه، فسمىٰ اللَّه فطعنه فقتله[٣].

وهكذا أهل (الأحوال الشيطانية): تنصرف عنهم شياطينهم إذا

---

(١) رواه البخاري، ومسلم عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) انظر: البداية والنهاية (٥/١٠)، خروج الأسود العنسي، بتصرف يسير.

(٣) تلبيس إبليس لابن الجوزي (ص: ٣٧٩).

ذُكر عندهم ما يطردها، مثل آية الكرسي، فإنه قد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه لما وكله النبي ﷺ بحفظ زكاة الفطر، فسرق منه الشيطان ليلة بعد ليلة، وهو يمسكه فيتوب فيطلقه فيقول له النبي ﷺ: **(ما فعل أسيرك البارحة؟)** فيقول: زعم أنه لا يعود فيقول: **(كذبك وإنه سيعود)** فلما كان في المرة الثالثة قال: دعني حتىٰ أعلمك ما ينفعك: إذا أويت إلىٰ فراشك فاقرأ آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، إلىٰ آخرها فإنه لن يزال عليك من اللَّه حافظ ولا يقربك شيطان حتىٰ تصبح فلما أخبر النبي ﷺ قال: **(صدقك وهو كذوب)**(١) وأخبره أنه شيطان ولهذا إذا قرأها الإنسان عند الأحوال الشيطانية بصدق أبطلتها.

وبَيْن كرامات الأولياء وما يشبهها من الأحوال الشيطانية فروق متعددة:

منها: أن كرامات الأولياء سببها الإيمان والتقوىٰ، والأحوال الشيطانية سببها ما نهي اللَّه عنه ورسوله؛ وقد قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٣﴾ [الأعراف]، فالقول علىٰ اللَّه بغير علم والشرك والظلم والفواحش، قد حرمها اللَّه تعالىٰ ورسوله فلا تكون سبباً لكرامة اللَّه تعالىٰ بالكرامات عليها، فإذا كانت لا تحصل بالصلاة والذكر وقراءة القرآن، بل تحصل بما يحبه الشيطان، وبالأمور التي فيها شرك: كالاستغاثة بالمخلوقات أو كانت مما يستعان بها علىٰ ظلم الخلق وفعل الفواحش، فهي من الأحوال الشيطانية لا من الكرامات الرحمانية.

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وهذه الأحوال الشيطانية تحصل لمن خرج عن الكتاب والسنة، وهم درجات، والجن الذين يقترنون بهم من جنسهم، وهم علىٰ مذهبهم.

والجن فيهم الكافر والفاسق والمخطئ، فإن كان الإنسي كافراً أو فاسقاً أو جاهلاً دخلوا معه في الكفر والفسوق والضلال، وقد يعاونونه إذا وافقهم علىٰ ما يختارونه من الكفر، مثل الإقسام عليهم بأسماء من يعظمونه من الجن وغيرهم، ومثل أن يكتب أسماء اللَّه أو بعض كلامه بالنجاسة، أو يقلب فاتحة الكتاب أو سورة الإخلاص أو آية الكرسي أو غيرهن، ويكتبهن بنجاسة» ا.هـ.

وبيَّن الشيخ أن أصحاب الأحوال الشيطانية؛ رأسهم ومقدَّمهم: الدجال لأن له من الخوارق الشيطانية ما ليس لغيره.

قال: «فالعبادات والزهادات والمقالات والتورعات الخارجة عن سبيل اللَّه ـ وهو الصراط المستقيم: الذي أمرنا اللَّه أن نسأله هدايته، وهو ما دل عليه السنة ـ هي سُبُل الشيطان، ولو كان لأحدهم من الخوارق ما كان، فليس أحدهم بأعظم من مُقَدَّمهم الدجال؛ الذي يقول للسماء: أمطري! فتمطر وللأرض: أنبتي! فتنبت، وللخربة: أظهري كنوزك! فتخرُجُ معه كنوزُ الذهب والفضة[(١)]، وهو مع هذا عدو اللَّه كافر باللَّه.

وأولياء اللَّه: هم المذكورون في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس]، فهم المؤمنون المتقون، والتقوىٰ: فعلُ ما أمر اللَّه به، وترك ما نهىٰ اللَّه عنه، فمن ترك ما أمر اللَّه؛ واتخذ عبادةً نهىٰ اللَّه عنها،

---

(١) رواه مسلم عن النواس بن سمعان رضي الله عنه.

كيف يكون من هؤلاء؟!» ا.هـ.

هذا ما أردت بيانه من مذهب الصوفية في الكرامات الذي ذكره شيخ الإسلام، وإن كان موضوع الكرامات عند الصوفية وغلوّهم فيها، والحكم علىٰ كراماتهم من حيث القبول والرد، يحتاج إلىٰ مزيد بحث وعناية في مؤلف خاص.



الفصل الخامس: اليوم الآخر

المبحث الأول

قولهم في الجنة والنار

تمهيد:

الجنة هي الدار الذي أعدها اللَّه للمؤمنين، وهي دار النعيم والثواب المقيم، قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة] ومن دخلها فاز الفوز العظيم، وربح الربح الذي ليس بعده خسارة، يقول اللَّه تعالىٰ: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران: ١٨٥].

والنار هي الدار التي أعدّها اللَّه للكافرين به، المكذبين لرسله، يقول اللَّه ﷻ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾ [التوبة]، أعدّ اللَّه فيها من العذاب والنكال ما لا تتصوره العقول، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الزمر: ٤٧].

والإيمان بالجنة والنار أصل من أصول الإيمان باليوم الآخر، الذي هو ركن من أركان الدين.

وقد وقع فريق من المتصوفة في مخالفة وابتداع في مسألة الإيمان بالجنة والنار، وعرض شيخ الإسلام مذهبهم في ذلك، وردّ علىٰ ما ابتدعوه فيه، ويمكن إجمال ما ذكره الشيخ فيما يلي:

نقل الشيخ حكاية الإمام أبي عبد اللَّه بن خفيف لقول معتدلي الصوفية انهم يثبتون الجنة والنار وأنهما موجودتان، ولا تفنيان.

قال الشيخ ناقلاً عن ابن خفيف: «.. إلىٰ أن قال: «ونعتقد أن اللَّه تعالىٰ خلق الجنة والنار وانهما مخلوقتان للبقاء لا للفناء» ا.هـ.

ونقل أيضاً عن ابن خفيف: أن معتدلي الصوفية لا يحكمون لأحد بجنة ولا نار إلا بدليل شرعي، فقال: «والصلاة علىٰ من مات من أهل القبلة سنةٌ، ولا ننزل أحداً جنة ولا ناراً حتىٰ يكون اللَّه ينزلهم» ا.هـ.

أما غلاة الصوفية فقد بين الشيخ أنهم يستخفّون بالنار، ويقول قائلهم: أبسط سجادتي علىٰ جهنم!: قال الشيخ أثناء كلامه علىٰ زوال العقل بالسماع أو غيره: «.. ومن هؤلاء أيضاً من غلب عليه الذكر للَّه والتوحيد له والمحبة، .. فيقول أحدهم في هذه الحال: أنا الحق، أو سبحاني، أو ما في الجبة إلا اللَّه! ومنهم من غلب عليه حال الرجاء والرحمة؛ حتىٰ قال: أبسط سجادتي علىٰ جهنم[1]، فمن قال هذا في حال زوال عقله بحيث يكون كالسكران أو المُوَلَّه، وكان السبب الذي أوجب ذلك غير منهي عنه شرعاً، فلا إثم عليه» ا.هـ.

وبين الشيخ أن ابن عربي وحزبه، يدعون أنهم إن دخلوا النار فإنهم يتنعمون بها كما يتنعم أهل الجنة بالجنة فقال: «وأما الإيمان باليوم الآخر، فادعىٰ ابن عربي أن أصحاب النار يتنعمون في النار، كما يتنعم أهل الجنة في الجنة، وأنه يسمىٰ عذاباً من عذوبة طعمه، وأنشد في كتابه الفصوص[2]:

---

(١) لم أقف علىٰ قول بهذا اللفظ، لكن وقفت علىٰ قول لأبي يزيد البسطامي قريب من هذا، وهو قوله: «ما النار[؟!!] لأستندن إليها غداً، وأقول: اجعلني فداءً لأهلها، ما الجنة؟! لعبة صبيان ومراد أهل الدنيا» ا.هـ.

(٢) فصوص الحكم لابن عربي (ص: ١١٧).

فلم يبقَ إلا صادق الوعد وحده ... وما لوجود الحق عين تعاين
فإن دخلوا دار الشقاء فإنهم ... على لذة فيها نعيم مباين
نعيم جنان الخلد فالأمر واحد ... وبينهما عند التجلي تباين
يسمى عذاباً من عذوبة طعمه ... وذاك له كالقشر والقشر صاين» اهـ.

ولغلوّ فريق من المتصوفة في المحبة والقرب، وعدم تصورهم لحقيقة الجنة والنار، صار أحدهم يقول: ما عبدتك شوقاً إلىٰ جنتك، ولا خوفاً من نارك[(١)] . . .

وقد بين الشيخ ذلك ورد عليه، فقال: «ومن قال من هؤلاء: لم أعبدك شوقاً إلىٰ جنتك، ولا خوفاً من نارك، فهو يظن أن الجنة اسم لما يُتَمتع فيه بالمخلوقات، والنار اسم لما لا عذاب فيه، إلا ألم المخلوقات، وهذا قصور وتقصير منهم عن فهم مسمىٰ الجنة، بل كل ما أعده اللَّه لأوليائه فهو من الجنة، والنظر إليه هو من الجنة، ولهذا كان أفضل الخلق يسأل اللَّه الجنة ويستعيذ به من النار، ولما سأل بعض أصحابه عما يقول في صلاته: قال: إني أسأل اللَّه الجنة، وأعوذ باللَّه من النار، أَمَا إني لا أُحسن دندنتك ولا دندنة معاذ، فقال: (حولها ندندن)[(٢)] وقد أنكر علىٰ من قال هذا الكلام، يعني أسألك لذة النظر إلىٰ وجهك، فريقٌ من أهل الكلام؛ ظنوا أن اللَّه لا يُتَلذذ بالنظر إليه، وأنه لا نعيم إلا بمخلوق، فغلط هؤلاء في معني الجنة كما غلط أولئك، لكن أولئك طلبوا ما يستحق أن يُطلب

(١) ينسب هذا الكلام إلىٰ رابعة العدوية، ومن أقوالها، أنها مرضت يوماً فقيل لها: «ما سبب علتك؟ فقالت: نظرت بقلبي إلىٰ الجنة، فأدبني ربي فله العتبىٰ، لا أعود» ا. هـ الرسالة القشيرية (ص: ٢٥٨).
(٢) رواه أبو داود وابن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وهؤلاء أنكروا ذلك، وأما التألم بالنار فهو أمر ضروري، ومن قال: لو أدخلني النار لكنت راضياً، فهو عزم منه على الرضا، والعزائم قد تنفسخ عند وجود الحقائق، ومثل هذا يقع في كلام طائفة، مثل: سمنون، الذي قال:

وليس لي في سواك حظٌّ فكيف ما شئت فامتحنِّي

فابتُلي بعسر البول، فجعل يطوف على صبيان المكاتب ويقول: ادعوا لعمكم الكذاب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾ [آل عمران]» ا. هـ.

وبيَّن الشيخ أن سبيل المؤمنين هو طلب الجنة والسعي لتحصيلها، والهرب من النار والسعي للخلاص منها: فقال: «وطلب الجنة والاستعاذة من النار طريق أنبياء اللَّه ورسله وجميع أوليائه السابقين المقربين وأصحاب اليمين.. والنبي ﷺ لما بايع الأنصار ليلة العقبة، وكان الذين بايعوه من أفضل السابقين الأولين، الذين هم أفضل من هؤلاء المشايخ كلهم، قالوا للنبي ﷺ: اشترط لربك ولنفسك ولأصحابك، قال: **(أشترط لنفسي أن تنصروني مما تنصرون منه أنفسكم وأهليكم، وأَشترِطُ لأصحابي أن تواسوهم)**، قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: **(لكم الجنة)** قالوا: مُدَّ يدك، فواللَّه لا نُقيلك ولا نستقيلك[(١)] وقد قالوا له في أثناء البيعة: إن بيننا وبين القوم حبالاً وعهوداً وإنا ناقضوها[(٢)].

فهؤلاء الذين بايعوه: من أعظم خلق اللَّه محبة للَّه ورسوله، وبذلاً لنفوسهم وأموالهم في رضا اللَّه ورسوله، على وجه لا يلحقهم فيه

(١) رواه أحمد عن جابر رضي الله عنه.
(٢) عن كعب بن مالك رضي الله عنه في فقه السيرة.

أحد من هؤلاء المتأخرين قد كان غاية ما طلبوه بذلك الجنة، فلو كان هناك مطلوب أعلىٰ من ذلك لطلبوه، ولكن علموا أن في الجنة كلَّ محبوب ومطلوب، بل وفي الجنة ما لا تشعر به النفوس لتطلبه؛ فإن الطلب والحب والإرادة فرعٌ عن الشعور والإحساس والتصور، فما لا يتصوره الإنسان ولا يحسه ولا يشعر به، يمتنع أن يطلبه ويحبه ويريده فالجنة فيها هذا وهذا كما قال تعالىٰ: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق]» ا. هـ.

مما سبق تبين لنا أن الصوفية يزعمون بأنهم يعبدون اللَّه تعالىٰ حباً له، ولأنه يستحق العبادة فقط، وأنهم لا يبالون بالعذاب الذي أعده اللَّه تعالىٰ يوم القيامة لمن عصاه، ولا بالنعيم الذي أعده اللَّه لمن أطاعه، وهذا قول باطل.



المبحث الثاني

قولهم في الشفاعة

تمهيد:

الشفاعة لغة: هي انضمام الشيء إلىٰ آخر؛ ناصراً له، وسائلاً عنه، وأكثر ما تستعمل في انضمام من هو أعلىٰ حرمة ومرتبة إلىٰ من هو أدنىٰ.

والشفاعة اصطلاحاً: سؤال اللَّه تعالىٰ التجاوز عن الذنوب والآثام.

وأهل السنة والجماعة يثبتون الشفاعة للنبي ﷺ ولغيره من الأنبياء والملائكة والمؤمنين، حسبما وردت به الأدلة في كتاب اللَّه تعالىٰ وسنة رسوله ﷺ، مع نفي الشفاعة التي نفتها الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة، وقد وافق كثير من الصوفية أهل السنة والجماعة في إثبات الشفاعة للنبي ﷺ ولغيره من الأنبياء والملائكة، ولكن وقع عندهم خللٌ ونوعُ توسعٍ في إثبات الشفاعة لأقوام تظاهروا بالصلاح والولاية.

وبيَّن الشيخ مذهب الصوفية في الشفاعة، فيما يلي:

نقل الشيخ عن الإمام ابن خفيف لمذهب معتدلي الصوفية: أنهم يثبتون الشفاعة لرسول اللَّه ﷺ، فقال ناقلاً عن ابن خفيف: «.. إلىٰ أن قال: ونعتقد أن للرسول ﷺ: حوضاً، ونعتقد أنه أول شافع وأول مشفع» ا.هـ.

طلبُ بعض المتصوفة الشفاعة من المشايخ بعد موتهم، ووقوعهم في دعاء غير اللَّه بسبب ذلك:

قال الشيخ في معرض كلامه عن الغلوّ في المشايخ: «**فإذا قال قائل:**

أنا أدعو الشيخ ليكون شفيعاً لي، فهو من جنس دعاء النصارىٰ لمريم والأحبار والرهبان، والمؤمن يرجو ربه ويخافه، ويدعوه مخلصاً له الدين، وحق شيخه أن يدعو له ويترحم عليه» ا.هـ.

أما مذهب ملاحدة الصوفية في الشفاعة كأصحاب القول بوحدة الوجود وغيرهم، فهو مذهب الفلاسفة، وقد بين ذلك بقوله: «وهؤلاء يقولون ما ذكره ابن سينا وأتباعه، كصاحب الكتب المضنون بها علىٰ غير أهلها[١]، ومن وافقهم من القرامطة والباطنية، من الملاحدة والجهال، الذين دخلوا في الصوفية وأهل الكلام كأهل وحدة الوجود وغيرهم، يجعلون الشفاعة مبنية علىٰ ما يعتقدونه:

من أن الرب لا يفعل بمشيئته وقدرته، وليس عالماً بالجزئيات، ولا يقدر أن يغير العالم، بل العالم فَيْضٌ فاض عنه بغير مشيئته وقدرته وعلمه، فيقولون: إذا توجه المستشفع إلىٰ من يعظمه من الجواهر العالية كالعقول والنفوس والكواكب والشمس والقمر، أو إلىٰ النفوس المفارقة مثل بعض الصالحين، فإنه يتصل بذلك المعظم المستشفع به، فإذا فاض علىٰ ذلك ما يفيض من جهة الرب، فاض علىٰ هذا المستشفع من جهة شفيعه، ويمثلونه بالشمس إذا طلعت علىٰ مرآة، فانعكس الشعاع الذي علىٰ المرآة علىٰ موضع آخر، فأشرق بذلك الشعاع، فذلك الشعاع حصل له بمقابلة المرآة، وحصل للمرآة بمقابلة الشمس، فهذا الداعي المستشفع إذا توجه إلىٰ شفيعه، أشرق عليه من جهته مقصود الشفاعة، وذلك الشفيع يشرق عليه من جهة الحق، ولهذا يرىٰ هؤلاء دعاءَ الموتىٰ عند القبور وغير القبور، ويتوجهون إليهم، ويستعينون بهم، ويقولون: إن أرواحنا إذا توجهت إلىٰ روح

---

(١) هو أبو حامد الغزالي.

المقبور في القبور، اتصلت به ففاضت عليها المقاصد من جهته!»
ا.هـ.

وبهذا التفصيل يتضح جلياً موقف الصوفية عموماً من الشفاعة، وأن المعتدلين منهم يوافقون أهل السنة علىٰ الشفاعة الشرعية.



المبحث الثالث

قولهم في الوعد والوعيد

✍ **تمهيد:**

الوعد: هو الخبر المتضمن إيصال النفع إلىٰ الغير أو دفع الضرر عنه في المستقبل.

الوعيد: هو كل خبر يتضمن إيصال الضرر إلىٰ الغير أو تفويت نفع عنه في المستقبل.

وأهل السنة والجماعة يقولون: إن اللَّه إذا وعد عباده بشيء كان وقوعه مجزوماً به لفضله وكرمه وإحسانه ﷻ فإنه لا يخلف وعده، وأما إذا توعّد اللَّه تعالىٰ عبده بعقوبة علىٰ ذنب، فإنه لسعة رحمته وعفوه سبحانه قد يعفو عن عبده ولا يوقع به ما توعده به.

أما ما ذكره الشيخ من مذهب الصوفية في الوعد والوعيد، فيمكن إجماله فيما يلي:

- **ذكر الشيخ مذهب الصوفية في القدر، وأن فريقاً منهم يزعمون أنهم شهِدوا القدر؛ فأسقطوا الأمر والنهي، ثم بيَّن آثار هذا المذهب فقال:** «وهؤلاء الذين يصلون إلىٰ هذا الحد غالبهم لا يعرف وعيد الآخرة؛ فإن من أقر بوعيد الآخرة وأنه للكفار، لم يمكنه أن يكون معاوناً للكفار موالياً لهم علىٰ ما يوجب وعيد الآخرة، لكن قد يقولون بسقوطه مطلقاً، وقد يقولون بسقوطه عمَّن شَهِد توحيد الربوبية وكان في هذه الحقيقة القدرية، وهذا يقوله طائفة من شيوخهم» ا.هـ.

- **وقال أثناء كلامه عن القدر وضلال بعض الفرق فيه:** «الأشعرية

ونحوهم الذين لم يثبتوا إلا إرادةً بلا حكمة، ومشيئة بلا رحمة ولا محبة ولا رضىٰ، وجعلوا جميع المخلوقات بالنسبة إليه سواء؛ لا يفرقون بين الإرادة والمحبة والرضىٰ، بل ما وقع من الكفر والفسوق والعصيان قالوا: إنه يحبه ويرضاه كما يريده، وإذا قالوا لا يحبه ولا يرضاه ديناً، قالوا: إنه لا يريده ديناً، وما لم يقع من الإيمان والتقوىٰ فإنه لا يحبه ولا يرضاه عندهم، كما لا يريده، وقد قال تعالىٰ: ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء١٠٨]، فأخبر أنه لا يرضاه مع أنه قدَّره وقضاه، وينبغي أن يُعلم أن هذا المقام زل فيه طوائف من أهل الكلام والتصوف، وصاروا فيه إلىٰ ما هو شرٌ من قول المعتزلة ونحوهم من القدرية؛ فإن هؤلاء يعظمون الأمر والنهي والوعد والوعيد وطاعة اللَّه ورسوله، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، لكن ضلوا في القدر واعتقدوا أنهم إذا اثبتوا مشيئةً عامة، وقدرةً شاملة، وخلقاً متناولاً لكل شيء لزم من ذلك القدح في عدل الرب وحكمته، وغلطوا في ذلك، فقابل هؤلاء قوم من العلماء والعباد وأهل الكلام والتصوف، فأثبتوا القدر وآمنوا بأن اللَّه رب كل شيء ومليكه، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه خالق كل شيء وربه ومليكه، وهذا حسن وصواب، لكنهم قصروا في الأمر والنهي، والوعد والوعيد، وأفرطوا حتىٰ خرج غلاتهم إلىٰ الإلحاد، فصاروا من جنس المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]» ا. هـ.

ـ وبيَّن الشيخ أنهم لما لم يفرقوا بين الحسنة والسيئة، وقالوا إن الكل محبوب ومراد للَّه تعالىٰ، صاروا غير معظمين للوعد والوعيد.

فقال: «والأشعري يثبت الصفات كالإرادة، فاحتاج إلىٰ الكلام

فيها هل هي المحبة أم لا؟ فقال: المعاصي يحبها اللَّه ويرضاها كما يريدها! وذكر أبو المعالي أنه أول من قال ذلك، وأهل السنة قبله علىٰ أن اللَّه لا يُحب المعاصي، **وشاع هذا القول في كثير من الصوفية**: فوافقوا جهماً في مسائل الأفعال والقدر وخالفوه في الصفات، كأبي إسماعيل الأنصاري صاحب ذم الكلام، فإنه من المبالغين في ذم الجهمية في نفي الصفات.. وهو مع هذا في مسألة إرادة الكائنات وخلق الأفعال أبلغ من الأشعرية؛ لا يثبت سبباً ولا حكمة؛ بل يقول إن مشاهدة العارف الحكم لا يُبقي له استحسان حسنة، ولا استقباح سيئة، والحكم عنده هو المشيئة؛ لأن العارف عنده من يصل إلىٰ مقام الفناء، والحسنة والسيئة يفترقان في حق العبد؛ لكونه ينعم بهذه ويعذب بهذه والالتفات إلىٰ هذا من حظوظ النفس، ومقام الفناء ليس فيه إلا مشاهدة مراد الحق، والأشعري لما أثبت الفرق بين هذا وهذا من جهة المخلوق كان أعقل منهم؛ فإنهم يدّعون أن العارف لا يفرق، وغلطوا في حق العبد وحق الرب؛ أما العبد فيلزمه أن يستوي عنده جميع الحوادث، وهذا محال قطعاً، فعزلوا الفرق الرحماني وفرقوا بالطبعي الهوائي الشيطاني، ومن هنا وقع خلق منهم في المعاصي، وآخرون في الفسوق، وآخرون في الكفر حتىٰ جوزوا عبادة الأصنام، ثم كثير منهم ينتقل إلىٰ الوحدة؛ ويصرحون بعبادة كل موجود» اهـ.

ومما سبق يتبين لنا أن فئاماً من المتصوفة لما استخفوا بما وعد اللَّه تعالىٰ به ورغب به من أطاعه من الثواب الجزيل والجنة، وهوّنوا ما توعد اللَّه به من عصاه وخوّفه به من عذابه وناره، عطلوا الأمر

والنهي الشرعيين؛ إذ لا معنىٰ أن يطاع رب لا يثيب، أو ينتهي عن معصية رب لا يعذب، ثم إن هذا التهاون بأمر الجنة والنار أدىٰ بجموع من المتصوفة إلىٰ إسقاط التكاليف عن أنفسهم، إذ ضَمِنوا الثواب وأمِنوا العقاب، وقد بيَّن شيخ الإسلام ضلالهم في هذا الباب، وردَّ عليهم، وبيَّن أن طلب الجنة والاستعاذة من النار هو سبيل أنبياء اللَّه ورسله، ومن تبعهم بإحسان، ولا نجاة إلا في اتباع هؤلاء.



الفصل السادس: القدر

المبحث الأول

قولهم في الجبر، وخلق أفعال العباد

تمهيد:

الإيمان بالقضاء والقدر أصل من أصول الإيمان التي لا يصح إيمان العبد إلا بها، وهو من الأمور الغيبية التي حجب اللَّه تعالىٰ علمها عن البشر، وأوجب علىٰ كل مسلم الإيمان الجازم والتسليم الكامل بها، لما يتبع ذلك من السعادة للعبد في الدنيا والآخرة.

ومعنىٰ القدر في اللغة: مأخوذ من القدْر، بفتح القاف وإسكان الدال، وهو مقدار الشيء وحالاته المقدرة له، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ [القمر]، ووقت الشيء أو مكانه المقدر له، وقدر كل شيء ومقداره: مقياسه، يقال: قدره به قدراً إذا قاسه، والقدر من الرحال والسروج: الوسط.

معنىٰ القدر في الشرع: هو تقدير اللَّه تعالىٰ الأشياء في القِدَم، وعلمه سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده، وعلىٰ صفات مخصوصة، وكتابته سبحانه لذلك، ومشيئته له، ووقوعها علىٰ حسب ما قدرها، وخلقه لها.

والجبر: هو الغلو في إثبات القدر، وسلب الإنسان حرية الاختيار، وجعله مجبوراً علىٰ فعل نفسه، فالعبد عند الجبرية كالريشة في مَهَبِّ الريح، ولا يملك حركاته وأفعاله بل هو كحركة الآلة في يد الرجل[1].

---

(١) وهذا مذهب الجهمية، ومن وافقهم من الأشاعرة في مسألة «الكسب»، =

وقد انحرف فريق من المتصوفة في باب القضاء والقدر، حيث احتجوا بالقدر علىٰ في تجويز اقتراف المعاصي، انطلاقاً من معتقدهم الفاسد الذي ابتدعوه وهو أن كل ما قدر اللَّه تعالىٰ وقوعه فقد رضيه وأحبَّه، ولذا لا ينكرون علىٰ من وقع في المعاصي.

وذكر شيخ الإسلام، في مواضع متفرقة من مصنفاته، مذهبَ الصوفية في باب القضاء والقدر، وأجاب عن شبهاتهم فيه، ويمكن إجمال ما ذكره فيما يلي:

✍ أولاً: ذكر الشيخ أن مذهب المعتدلين من الصوفية في القدر هو مذهب أهل السنة:

وحكىٰ ذلك عن أبي عبد اللَّه بن خفيف، فقال: «قال الإمام أبو عبد اللَّه محمد بن خفيف في كتابه الذي سماه: «اعتقاد التوحيد بإثبات الأسماء والصفات».. ثم قال: وكان الاختلاف في خلق الأفعال هل هي مقدرة أم لا؟ قال: وقولنا فيها أن أفعال العباد مقدرة معلومة وذكر إثبات القدر، ثم ذكر الخلاف في أهل الكبائر، ومسألة: الأسماء والأحكام، وقال: قولنا فيها أنهم مؤمنون علىٰ الإطلاق، وأمرهم إلىٰ اللَّه إن شاء عذبهم، وإن شاء عفا عنهم» ا.هـ.

✍ ثانياً: كثير من الصوفية في باب المعتقد وافقوا الجهم بن صفوان، من وجه دون وجه:

بين الشيخ ذلك بقوله: «وجَهْم لا يثبت شيئاً من الصفات، لا الإرادة ولا غيرها، فإذا قال: إن اللَّه يحب الطاعات، ويبغض المعاصي، فمعناه الثواب والعقاب.. وشاع هذا القول في كثير من الصوفية؛ فوافقوا جهماً في مسائل الأفعال والقدر، وخالفوه في الصفات، كأبي

= ووقع فيه فريق من الصوفية.

إسماعيل الأنصاري ـ صاحب ذم الكلام ـ فإنه من المبالغين في ذم الجهمية في نفي الصفات، وله كتاب في تكفير الجهمية، ويبالغ في ذم الأشعرية مع أنهم من أقرب هذه الطوائف إلىٰ السنة، وربما كان يلعنهم» ا. هـ.

✍ ثالثاً: نصّ الشيخ على أنه ليس في مشايخ الصوفية المقبولين أحدٌ على رأي القدرية فقال:

«قال أبو القاسم القشيري[1]: سمعتُ.. قال: قام رجل بين يدي ذي النون، فقال: أخبرني عن التوحيد، ما هو؟ فقال: أن تعلم أن قدرة اللَّه في الأشياء بلا مزاج، وصنعه للأشياء بلا علاج، وعلة كل شيء صنعه، ولا علة لصنعه، وليس في السموات العلا ولا في الأرضين السفلىٰ مدبر غير اللَّه، وكل ما تصور في وهمك فاللَّه بخلافه، هذا الكلام غالبه في ذكر فعل الحق سبحانه وربوبيته، أخبر أنه رب كل شيء لا مدبر غيره، رداً علىٰ القدرية ونحوهم ممن يجعل بعض الأشياء خارجة عن قدرة اللَّه وتدبيره، وأخبر أن قدرته وصنعه ليس مثل قدرة العباد وصنعهم؛ فإن قدرة أبدانهم عن امتزاج الأخلاط، وأفعالهم عن معالجة، واللَّه تعالىٰ ليس كذلك.

ومقصود أبي القاسم يبين أن القوم لم يكونوا علىٰ رأي القدرية من المعتزلة وهذا حق، فما نعلم في المشايخ المقبولين في الأمة من كان علىٰ رأىٰ المعتزلة، لا في قولهم في الصفات بقول جهم، ولا في قولهم في الأفعال بقول القدرية، بل هم أعظم الناس إثباتاً للقدر، وشهوداً له، وافتقاراً إلىٰ اللَّه والتجاء إليه، حتىٰ إن من المنتسبين إلىٰ الطريق من غَلَوا في هذا حتىٰ يذهب إلىٰ الإباحة

(١) القشيرية (٣١/١).

والجبر، ويُعرض عن الشرع والأمر والنهي، فهذه الآفة توجد كثيراً في المتصوفة والمتفقرة، وأما التكذيب بالقدر فقليل فيهم جداً» ا. هـ.

✍ رابعاً: ولكن لم يسلم جميع الصوفية من الوقوع في خلل في باب القدر، فقد وقع عند بعضهم خلل في مسألة الرضا بالمقدور، وأنواع هذا الرضا:

وفصل الشيخ ذلك بقوله: «وإنما ضل هنا فريقان من الناس: قومٌ من **أهل الكلام**: المنتسبين إلىٰ السنة في مناظرة القدرية، ظنوا أن محبة الحق ورضاه وغضبه وسخطه يرجع إلىٰ إرادته، وقد علموا أنه مريد لجميع الكائنات؛ خلافاً للقدرية، وقالوا هو أيضاً محبٌ لها، مريدٌ لها، ثم أخذوا يحرفون الكلم عن مواضعه؛ فقالوا: لا يحب الفساد بمعني لا يريد الفساد، أي: لا يريده للمؤمنين، ولا يرضىٰ لعباده الكفر بمعنىٰ لا يريده، أي: لا يريده للمؤمنين، وهذا غلط عظيم؛ فإن هذا عندهم بمنزلة أن يقال: لا يحب الإيمان، ولا يرضىٰ لعباده الإيمان، بمعنىٰ: لا يريده للكافرين، ولا يرضاه للكافرين.

والفريق الثاني من غالطي المتصوفة: شربوا من هذه العين؛ فشهدوا أن اللَّه رب الكائنات جميعها، وعلموا أنه قدر كل شيء وشاءه، وظنوا أنهم لا يكونون راضين حتىٰ يرضوا بكل ما يقدره اللَّه ويقضيه من الكفر والفسوق والعصيان، حتىٰ قال بعضهم: المحبة نار تحرق من القلب كلَّ ما سوىٰ مراد المحبوب، قالوا: والكون كله مراد المحبوب، وضل هؤلاء ضلالاً عظيماً؛ حيث لم يفرقوا بين الإرادة الدينية والكونية، والإذن الديني والكوني، والأمر الديني والكوني، والبعث الكوني والديني، والإرسال الكوني والديني، كما بسطناه في غير هذا الموضع.

وهؤلاء يؤول بهم الأمر إلىٰ أن لا يفرقوا بين المحظور والمأمور، وأولياء اللَّه وأعداء اللَّه، والأنبياء والمتقين، ويجعلون الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، ويجعلون المتقين كالفجار، ويجعلون المسلمين كالمجرمين، ويعطلون الأمر والنهي والوعد والوعيد والشرائع.

وربما سمَّوْا هذا حقيقة! ولعمري إنه حقيقة كونية لكن هذه الحقيقة الكونية قد عرفها عباد الأصنام كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، فالمشركون الذين يعبدون الأصنام كانوا مقرين بأن اللَّه خالق كل شيء وربه ومليكه؛ فمن كان هذا منتهىٰ تحقيقه كان غايته أن يكون كعباد الأصنام، والمؤمن إنما فارق الكفر بالإيمان باللَّه وبرسله، وبتصديقهم فيما أخبروا وطاعتهم فيما أمروا، واتباع ما يرضاه اللَّه ويحبه دون ما يقضيه ويقدره من الكفر والفسوق والعصيان، ولكن يرضىٰ بما أصابه من المصائب لا بما فعله من المعايب، فهو من الذنوب يستغفر وعلىٰ المصائب يصبر، كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥]، والقصد هنا أن ما ذكره القشيري[1] عن النصراباذي من أحسن الكلام حيث قال: من أراد أن يبلغ محل الرضا فليلزم ما جعل اللَّه رضاه فيه» ا.هـ.

✍ خامساً: وبين الشيخ أن فريقاً من الصوفية نَفَوْا الحِكَم في أفعال الله تعالى، وقالوا: إن الله يُقَدر وقوع الشيء لا لِحِكمة، وهذا باطل:

قال الشيخ: «والمقصود هنا: الكلام علىٰ مَن نفىٰ الحكم والعدل والأسباب في القدر، من أهل الكلام والمتصوفة الذين وافقوا جهماً

---

(١) القشيرية (٢/٤٢٥).

في هذا الأصل، وهو بدعته الثانية التي اشتهرت عنه، بخلاف الإرجاء فإنه منسوب إلىٰ طوائف غيره، فهؤلاء يقولون: إن الرب يجوز أن يفعل كلَّ ما يقدر عليه ويمكن فعله ومن غير مراعاة حكمة ولا رحمة ولا عدل، ويقولون: إن مشيئته هي محبته، ولهذا تجد من اتبعهم: غير معظم للأمر والنهي والوعد والوعيد؛ بل هو منحل عن الأمر الشرعي كله أو عن بعضه، أو متكلف لما يعتقده أو يعلمه، فإنهم أرادوا: أن الجميع بالنسبة إلىٰ الرب سواء، وأن كل ما شاءه فقد أحبه، وأنه يحدث ما يحدثه بدون أسباب يخلقه بها ولا حكمة يسوقه إليها؛ بل غايته: أنه يسوق المقادير إلىٰ المواقيت، لم يبق عندهم فرق في نفس الأمر بين المأمور والمحظور، بل وافقوا جهماً ومن قال بقوله، كالأشعري، في أنه في نفس الأمر: لا حسن ولا سيئ، وإنما الحُسن والقُبح: مجرد كونه مأموراً به ومحظوراً، وذلك فرق يعود إلىٰ حظ العبد، وهؤلاء يدعون الفناء عن الحظوظ» ا.هـ.

ولكن نبّه الشيخ علىٰ أن نفي الحكمة في أفعال اللَّه تعالىٰ ليس قول جميع الصوفية، بل أكثرهم وافقوا أهل السنة في إثبات الحكمة للَّه تعالىٰ في كل أوامره ونواهيه وأفعاله فقال: «وهؤلاء المعتزلة ومن وافقهم من الشيعة يوجبون علىٰ اللَّه سبحانه أن يفعل بكل عبد ما هو الأصلح له في دينه، وتنازعوا في وجوب الأصلح في دنياه، ومذهبهم أنه لا يقدر أن يفعل مع مخلوق من المصلحة الدينية غير ما فعل، ولا يقدر أن يهدي ضالاً ولا يضل مهتدياً، وأما سائر الطوائف الذين يقولون بالتعليل من الفقهاء وأهل الحديث **والصوفية** وأهل الكلام، كالكرامية[1] وغيرهم، والمتفلسفة أيضاً: فلا يوافقونهم

(١) الكرامية: هم أصحاب أبي عبد اللَّه محمد بن كرام، قالوا: إن الباري =

علىٰ هذا؛ بل يقولون إنه يفعل ما يفعل سبحانه لحكمة يعلمها ﷻ وقد يعلم العباد أو بعض العباد من حكمته ما يطلعهم عليه، وقد لا يعلمون ذلك» ا. هـ.

✍ سادساً: فصَّل الشيخ مذهب الاتحادية في القدر وبين أنهم جبرية:

ذكر ذلك أثناء رده علىٰ قول الاتحادية: **إن العبد ليس له فعل؛ بل الفعل في الحقيقة للّٰه لا للعبد، وأن العبد مع ربه كالميت مع غاسله، فقال حاكياً لقولهم**: «وكذلك العبد ـ وإن كان حياً ـ فإنه مع ربه كالميت مع الغاسل ليس له من نفسه فعل بغير اللّٰه!.. فيقال لهم: **هذا العذر باطل من وجوه**:

أحدها: لأنه لا حيرة هنا؛ بل المكلف هو العبد بلا امتراء ولا حيرة؛ فإن اللّٰه يمتنع أن يكون هو المكلف بالصيام والطواف ورمي الجمار، بل هو الآمر بذلك، والعبد هو المأمور بذلك، ومن حار هل المأمور بذلك اللّٰه أو العبد؟ فهو إما يكونُ فاسدُ العقل مجنوناً، وإما فاسد الدين ملحداً زنديقاً، وكون اللّٰه خالقاً للعبد ولفعله: لا يمنع أن يكون العبد هو المأمور المنهي، فإنه لم يقل أحد قط أن اللّٰه هو الذي يركع ويسجد ويطوف ويرمي الجمار ويصوم شهر رمضان، بل جميع الأمة متفقون علىٰ أن العبد هو الراكع الساجد الصائم

= ـ تعالىٰ ـ جسم، وأن له سبحانه ثقلًا، وأنه خالق بلا خلق ورازق بلا رزق..، وأن الإيمان هو القول باللسان فقط دون الاعتراف بالقلب، وأن المنافقين مؤمنون حقيقة في الدنيا، أما في الآخرة ففي النار، وقد وافقوا السلف علىٰ القول بأن الخلق غير المخلوق، والكرامية مختلفون فيما بينهم، فأوصلهم بعض المؤلفين في الفرق إلىٰ اثنتي عشرة فرقة، وبعضهم جعلهم ثلاث فرق.

العابد؛ لا نزاع في ذلك بين أهل السنة والقدرية.

الثاني: أن قوله: إن العبد، وإن كان حياً، فإنه مع ربه كالميت مع الغاسل، ليس بصحيح؛ فإن الميت ليس له إحساس ولا إرادة لما يقوم به من الحركة، ولا قدرة علىٰ ذلك، ولا يوصف بأنه يحب الفعل أو يبغضه، أو يريده أو يكرهه، ولا أنه يركع ويسجد ويصوم، ويحج ويجاهد العدو.

وقول من قال بهذا: لا يُحمَد الميت علىٰ فعل الغاسل، ولا يُذم ولا يُثاب ولا يعاقب، وأما العبد فإن اللَّه جعله حياً مريداً قادراً فاعلاً؛ وهو يصوم ويصلي ويحج ويقتل ويزني باختياره ومشيئته، واللَّه خالق ذاته وصفاته وأفعاله؛ فله مشيئة، واللَّه خالق مشيئته كما قال تعالىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير]، وله قدرة، واللَّه خالق قدرته، وهو مصل صائم حاج معتمر، واللَّه خالقه وخالق أفعاله؛ فتمثيله بالميت تمثيل باطل.

الثالث: أن يقال: إن كان كالميت مع الغاسل فيكون الغاسل هو المكلف، فيكون اللَّه هو المكلف، فيلزم أن يكون الرب هو المكلف.

الرابع: أن عقلاء بني آدم متفقون علىٰ ما فطرهم اللَّه عليه، من أن العبد الحي يؤمر ويُنهىٰ، ويحمد ويذم علىٰ أفعاله الاختيارية، متفقون علىٰ أن من احتج بالقدر علىٰ ظلمه وفواحشه: لم يُقبل ذلك منه؛ فلو ظلم ظالم لغيره: لم يقبل أحدٌ منه أن يدفع عن نفسه الملام بالقدر، وأما الميت فليس في العقلاء من يذمه ولا يأمره ولا ينهاه، فكيف يقاس هذا بهذا؟» ا.هـ.

✍ سابعاً: دين الاتحادية يقوم على أصلين، ثانيهما: الاحتجاج بالقدر على المعاصي:

بين الشيخ ذلك بقوله لما سئل عن كلمات من كلام الاتحادية:

«الحمد للَّه رب العالمين هذه الأقوال المذكورة: تشتمل علىٰ أصلين باطلين مخالفين لدين المسلمين واليهود والنصارىٰ مع مخالفتهما للمنقول والمعقول:

أحدهما: الحلول والاتحاد، وما يقارب ذلك، كالقول بوحدة الوجود كالذين يقولون: أن الوجود واحد..

والأصل الثاني: الاحتجاج بالقدر علىٰ المعاصي، وعلىٰ ترك المأمور وفعل المحظور، فإن القدر يجب الإيمان به ولا يجوز الاحتجاج به علىٰ مخالفة أمر اللَّه ونهيه ووعده ووعيده.

والناس الذين ضلوا في القدر علىٰ ثلاثة أصناف:

قوم: آمنوا بالأمر والنهي والوعد والوعيد، وكذبوا بالقدر، وزعموا أن من الحوادث ما لا يخلقه اللَّه كالمعتزلة ونحوهم.

وقوم: آمنوا بالقضاء والقدر، ووافقوا أهل السنة والجماعة علىٰ أنه ما شاء اللَّه كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه خالق كل شيء وربه ومليكه، لكن عارضوا هذا بالأمر والنهي، وسموا هذا حقيقة، وجعلوا ذلك معارضاً للشريعة، وفيهم من يقول: إن مشاهدة القدر تنفي الملام والعقاب، وإن العارف يستوي عنده هذا وهذا!.

وهم في ذلك متناقضون مخالفون للشرع والعقل والذوق والوجد، فإنهم لا يسوون بين من أحسن إليهم وبين من ظلمهم، ولا يسوون بين العالم والجاهل، والقادر والعاجز، ولا بين الطيب والخبيث، ولا بين العادل والظالم، بل يفرقون بينهما، ويفرقون أيضاً بموجب: أهوائهم وأغراضهم، لا بموجب الأمر والنهي، ولا يقفون لا مع القدر ولا مع الأمر؛ بل كما قال بعض العلماء: أنت عند الطاعة قدري، وعند المعصية جبري! أيّ مذهب يوافق هواك تمذهبت به.

ولا يوجد أحد يحتج بالقدر في ترك الواجب وفعل المحرم: إلا وهو متناقض؛ لا يجعله حجة في مخالفة هواه بل يعادىٰ من آذاه وإن كان محقاً، ويحب من وافقه علىٰ غرضه وإن كان عدواً للَّه، فيكون حبه وبغضه، وموالاته ومعاداته: بحسب هواه وغرضه وذوق نفسه ووجده، لا بحسب أمر اللَّه ونهيه، ومحبته وبغضه، وولايته وعداوته؛ إذ لا يمكنه أن يجعل القدر حجة لكل أحد؛ فإن هذا مستلزم للفساد الذي لا صلاح معه، والشر الذي لا خير فيه؛ إذ لو جاز أن يحتج كل أحد بالقدر لما عوقب مُعتَدٍ، ولا اقتُصَّ من ظالم باغ، ولا أُخذ لمظلوم حقه من ظالمه، ولَفعَل كلُ أحد ما يشتهيه من غير معارض يعارضه فيه، وهذا فيه من الفساد: ما لا يعلمه إلا رب العباد.

ثم مع فساد هذا الأصل وتناقضه: فهو قول باطل وبدعة مضلة فمن جعل الإيمان بالقدر وشهوده عذراً في ترك الواجبات وفعل المحظورات؟ بل الإيمان بالقدر حسنةٌ من الحسنات، وهذه لا تنهض بدفع جميع السيئات، فلو أشرك مشرك باللّه وكذب رسوله ناظراً إلىٰ أن ذلك مقدّرٌ عليه: لم يكن ذلك غافراً لتكذيبه، ولا مانعاً من تعذيبه؛ فإن اللَّه لا يغفر أن يُشرك به سواء كان المشرك مقراً بالقدر وناظراً إليه، أو مكذباً به، أو غافلاً عنه، فقد قال إبليس: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحجر]، فأصرَّ واحتج بالقدر فكان ذلك زيادة في كفره، وسبباً لمزيد عذابه.

وأما آدم عليه السلام فإنه قال: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف]، قال تعالىٰ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة]، فمن استغفر وتاب كان آدمياً سعيداً، ومن أصرَّ واحتج بالقدر كان إبليسياً شقياً» ا.هـ.

✍ **ثامناً: الاتحادية يقولون: إن الله يأمر العبد ظاهراً بطاعته، فإن وقعت من العبد معصية، عرفنا أن الله أمره بها في الباطن، وأجبره عليها!.**

بيَّن الشيخ ذلك، وردَّ عليه تفصيلاً أثناء جوابه عن كلمات من كلام الاتحادية سئل عنها، ومنها: «**قال ابن إسرائيل**: الأمر أمران: أمر بواسطة وأمر بغير واسطة فالأمر الذي بالوسائط ردَّه من شاء اللَّه، وقبِلَه من شاء اللَّه، والأمر الذي بغير واسطة لا يمكن ردُّه، وهو قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل]، **فقال له فقير**: إن اللَّه قال لآدم بلا واسطة: لا تقرب الشجرة، فقرب وأكل!، فقال: صدقت! وذلك أن آدم إنسان كامل؛ ولذلك قال شيخنا علي الحريري: آدم صفيُّ اللَّه تعالىٰ، كان توحيده ظاهراً وباطناً، فكان قوله لآدم: لا تقرب الشجرة، ظاهراً، وكان أمره: كل، باطناً؛ فأكل، فكذلك قوله تعالىٰ، وإبليس كان توحيده ظاهراً فأمر بالسجود لآدم فرآه غيراً فلم يسجد، فغير اللَّه عليه، وقال: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٨]، وقال شخص لسيدي: يا سيدي حسن، إذا كان اللَّه يقول لنبيه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] أيش نكون نحن؟ فقال سيدي له: ليس الأمر كما تقول أو تظن، فقوله له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ عينُ الإثبات للنبي ﷺ كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]» ا. هـ.

ثم بين الشيخ **الردَّ مفصلاً**، فقال: «وأما ما ذكره من قول ابن إسرائيل: الأمر أمران: أمر بواسطة، وأمر بغير واسطة إلىٰ آخره، فمضمونه أن الأمر الذي بواسطة هو الأمر الشرعي الديني، والذي بلا واسطة هو الأمر القدري الكوني، وجعْلُه أحدَ الأمرين بواسطة، والآخر بغير واسطة كلام باطل؛ فإن الأمر الديني يكون بواسطة وبغير واسطة، فإن اللَّه كلم موسىٰ وأمره بلا واسطة، وكذلك كلم محمداً

ﷺ وأمره ليلة المعراج، وكذلك كلم آدم وأمره بلا واسطة، وهي أوامر دينية شرعية.

وأما الأمر الكوني: فقول القائل إنه واسطة: خطأ؛ بل اللَّه تعالىٰ خلق الأشياء بعضها ببعض، وأمر التكوين ليس هو خطاباً يسمعه المكوَّن المخلوق، فإن هذا ممتنع؛ ولهذا قيل: إن هذا خطاباً بعد وجوده، لم يكن قد كُوِّن بكن؛ بل كان قد كون قبل الخطاب، وإن كان خطاباً قبل وجوده فخطاب المعدوم ممتنع، وقد قيل في جواب هذا: إنه خطاب لمعلوم لحضوره في العلم، وإن كان معدوماً في العين، وأما ما ذكره الفقير فهو سؤال وارد بلا ريب، وأما ما ذكره عن شيخه: من أن آدم كان توحيده ظاهراً وباطناً، فكان قوله: «لا تقرب»: ظاهراً، وكان أمره بـ«كُل»: باطناً، فيقال: إن أريد بكونه قال: كل باطناً: أنه أمره بذلك في الباطن أمرَ تشريع ودين: فهذا كذب وكفر.

وإن كان أراد: أنه خلق ذلك وقدره وكونه: فهذا قدْرٌ مشترك بين آدم وبين سائر المخلوقات، فإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. . .

فقول القائل: إنه قال لآدم في الباطن: كل، مثل قوله: إنه قال للكافر: اِكفُر، وللفاسق: اُفسُق، واللَّه لا يأمر بالفحشاء ولا يحب الفساد ولا يرضىٰ لعباده الكفر، ولا يوجد منه خطاب باطن ولا ظاهر للكفار والفساق والعصاة: بفعل الكفر والفسوق والعصيان، وإن كان ذلك واقعاً بمشيئته وقدرته وخلقه وأمره الكوني؛ فالأمر الكوني ليس هو أمراً للعبد أن يفعل ذلك الأمر بل هو أمر تكوين لذلك الفعل في العبد، أو أمر تكوين لكون العبد علىٰ ذلك الحال، فهو سبحانه الذي خلق الإنسان هلوعاً ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾

[المعارج]، وهو الذي جعل المسلمين مسلمين كما قال الخليل: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

والمحتج بالقدر فاسد العقل والدين متناقض؛ فإن القدر إن كان حجة وعذراً: لزم أن لا يلام أحد ولا يعاقب ولا يقتص منه، وحينئذ فهذا المحتج بالقدر يلزمه إذا ظُلم في نفسه وماله وعرضه وحرمته أن لا يتنصر من الظالم ولا يغضب عليه ولا يذمه، وهذا أمر ممتنع في الطبيعة، لا يمكن أحداً أن يفعله؛ فهو ممتنع طبعاً، محرم شرعاً ولو كان القدر حجة وعذراً: لم يكن إبليس ملوماً ولا معاقباً، ولا فرعون وقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الكفار، ولا كان جهاد الكفار جائزاً، ولا إقامة الحدود جائزاً، ولا قطع السارق، ولا جلد الزاني ولا رجمه، ولا قتل القاتل ولا عقوبة معتد، بوجه من الوجوه.

ولما كان الاحتجاج بالقدر باطلاً في فطر الخلق وعقولهم: لم تذهب إليه أمة من الأمم ولا هو مذهب أحد من العقلاء الذين يَطْردون قولهم؛ فإنه لا يستقيم عليه مصلحة أحد لا في دنياه ولا آخرته، ولا يمكن اثنان أن يتعاشرا ساعة واحدة إن لم يكن أحدهما ملتزماً مع الآخر نوعاً من الشرع» ا.هـ.

تاسعاً: مقام عدم التفريق بين الحسنة والسيئة، هو عند الصوفية من أعلى المقامات:

قال الشيخ: «وهؤلاء قد يشهدون القدر أولاً، وهي الحقيقة الكونية، ويظنون أن غاية العارف أن يشهد القدر ويفنىٰ عن هذا الشهود، وذلك المشهد لا تمييز فيه بين المأمور والمحظور، ومحبوبات اللَّه ومكروهاته وأوليائه وأعدائه، وقد يقول أحدهم: العارف شهد أولاً الطاعة والمعصية، ثم شهد طاعة بلا معصية ـ يريد بذلك طاعة القدر ـ كقول بعض شيوخهم: «أنا كافر برب يُعصَىٰ»! وقيل له عن

بعض الظالمين: هذا ماله حرام، فقال: إن كان عصىٰ الأمر فقد أطاع الإرادة!.

ثم ينتقلون إلىٰ المشهد الثالث: لا طاعة ولا معصية، وهو مشهد أهل الوحدة القائلين بوحدة الوجود، وهذا غاية إلحاد المبتدعة ـ جهمية الصوفية ـ كما أن القرمطة آخر إلحاد الشيعة، وكلا الإلحادين يتقاربان، وفيها من الكفر ما ليس في دين اليهود والنصارىٰ ومشركي العرب، والله أعلم» ا.هـ.

وبما سبق يتبين لنا أن انحراف الصوفية في القضاء والقدر يتلخص في: **أن المتصوفة يعتقدون أن كل ما يقع في هذا الكون يكون بإرادة الله تعالىٰ ومشيئته، وما دام الأمر كذلك فكل ما يقع في هذا الكون فهو مرضي لله عز وجل ومحبوب عنده، بمعنىٰ أنه لا يوجد في هذا الكون كله مما يقع فيه محبوب لله ومبغوض عنده بل الكل واقع بقدره، ولذا فهو محبوب عنده سواءً كان هذا الواقع طاعة أو معصية، خيراً أو شراً، لأن كل ذلك يقع بقضاء الله تعالىٰ وقدره، وهذا الاعتقاد أدىٰ بهم إلىٰ ترك الأمر بالمعروف والنهي، وإبطال الجهاد في سبيل الله، وغير ذلك، وقد عرضنا ما ردَّ به شيخ الإسلام عليهم، بالنصوص والأدلة الشرعية.**



المبحث الثاني

قولهم في الاستطاعة

تمهيد:

الاستطاعة هي القدرة على فعل الشيء، والله تعالى قد أعطى كل عبد من الاستطاعة ما يقدر به على فعل الحسنات والسيئات ولا يصح لأحد أن يترك فعل الطاعة ويحتج بأن الله تعالى لم يعطه الاستطاعة على فعلها، بل الله تعالى لم يكلف العباد إلا ما يطيقونه ويستطيعونه، وهم يستطيعون أن يفعلوا فوق ما كلّفهم به سبحانه، ولكنه لفضله ورحمته خفف عليهم.

والصوفية وقع عند فريق منهم خلل في مسألة الاستطاعة على فعل الطاعة أو ترك المعصية، بناءً على مذهبهم الباطل في القدر، وقد بين شيخ الإسلام مذهبهم في ذلك، وردّ عليه، وأوضح مذهب أهل السنة بالأدلة الشرعية.

ويمكن بيان ما حكاه الشيخ من مذهب المتصوفة في الاستطاعة، فيما يلي:

ذكر الشيخ في جواب سؤال حول القدرة والاستطاعة، ومسألة تكليف ما لا يطاق: أن الذي عليه محققو الصوفية هو ما عليه أهل السنة، من أن الاستطاعة لا يجب أن تقارن الفعل:

قال: «وأما قول السائل: هل ذلك من باب تكليف ما لا يطاق ـ والحال هذه ـ فيقال: هذه العبارة وإن كثر تنازع الناس فيها نفياً وإثباتاً، فينبغي أن يعرف أن الخلاف المحقق فيها نوعان:

أحدهما: ما اتفق الناس على جوازه ووقوعه وإنما تنازعوا في

إطلاق القول عليه بأنه لا يطاق.

والثاني: ما اتفقوا علىٰ أنه لا يطاق، لكن تنازعوا في جواز الأمر به ولم يتنازعوا في عدم وقوعه، فأما أن يكون أمر اتفق أهل العلم والإيمان علىٰ أنه لا يطاق وتنازعوا في وقوع الأمر به فليس كذلك.

فالنوع الأول: كتنازع المتكلمين من مثبتة القدر ونفاته في استطاعة العبد وهي قدرته وطاقته، هل يجب أن تكون مع الفعل لا قبله؟ أو يجب أن تكون متقدمة علىٰ الفعل؟ أو يجب أن تكون معه وإن كانت متقدمة عليه؟.

فمن قال بالأول لزمه أن يكون كل عبد لم يفعل ما أُمر به قد كلف ما لا يطيقه إذا لم يكن عنده قدرة إلا مع الفعل، ولهذا كان **الصواب الذي عليه محققو المتكلمين وأهل الفقه والحديث والتصوف** وغيرهم ما دل عليه القرآن وهو: أن الاستطاعة التي هي مناط الأمر والنهي ـ وهي المصححة للفعل ـ لا يجب أن تقارن الفعل، وأما الاستطاعة التي يجب معها وجود الفعل فهي مقارنة له.

فالأولى: كقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقول النبي ﷺ لعمران بن حصين رضي الله عنه: (**صلّ قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلىٰ جنب**)(١)، ومعلوم أن الحج والصلاة تجب علىٰ المستطيع، سواء فعل أو لم يفعل، فعلم أن هذه الاستطاعة لا تجب أن تكون مع الفعل.

والثانية: كقوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [هود]. . علىٰ قول من يفسر الاستطاعة بهذه، وأما علىٰ تفسير السلف والجمهور فالمراد بعدم الاستطاعة: مشقة ذلك عليهم وصعوبته

---

(١) رواه البخاري عن عمران بن الحصين رضي الله عنه.

علىٰ نفوسهم، فنفوسهم لا تستطع إرادته وإن كانوا قادرين علىٰ فعله لو أرادوه، وهذه حال من صده هواه ورأيه الفاسد عن استماع كتب اللَّه المنزلة واتباعها، فقد أخبر أنه لا يستطيع ذلك، وهذه الاستطاعة هي المقارنة للفعل الموجبة له» ا.هـ.

فهذا الموضع قد انقسم الناس فيه إلىٰ أربعة أقسام:

قوم: ينظرون إلىٰ جانب الأمر والنهي، والعبادة والطاعة، شاهدين لإلهية الرب سبحانه الذي أُمروا أن يعبدوه، ولا ينظرون إلىٰ جانب القضاء والقدر والتوكل والاستعانة، **وهو حال كثير من المتفقهة والمتعبدة** فهم مع حسن قصدهم، وتعظيمهم لحرمات اللَّه ولشعائره، يغلب عليهم الضعف والعجز والخذلان، لأن الاستعانة باللَّه والتوكل عليه واللجأ إليه والدعاء له، هي التي تقوي العبد وتيسر عليه الأمور، ولهذا قال بعض ا لسلف: من سَرَّه أن يكون أقوىٰ الناس فليتوكل علىٰ اللَّه..

ولهذا رُوي أن حملة العرش إنما أطاقوا حمل العرش بقولهم: لا حول ولا قوة إلا باللَّه[(١)]، وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنها: (**كنز من كنوز الجنة**)[(٢)]، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]،..

وقسم ثان: يشهدون ربوبية الحق وافتقارهم إليه، ويستعينون به، لكن علىٰ أهوائهم وأذواقهم؛ غير ناظرين إلىٰ حقيقة أمره ونهيه ورضاه وغضبه ومحبته، **وهذا حال كثير من المتفقرة والمتصوفة**، ولهذا كثيراً ما يعملون علىٰ الأحوال التي يتصرفون بها في الوجود،

(١) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٢/٧٥٥/ح ٣٣٧).
(٢) رواه البخاري، ومسلم عن أبي موسىٰ رضي الله عنه.

ولا يقصدون ما يرضي الربَّ ويحبه، وكثيراً ما يغلطون: فيظنون أن معصيته هي مرضاته فيعودون إلىٰ تعطيل الأمر والنهي، ويسمون هذا حقيقة، ويظنون أن هذه الحقيقة القدرية يجب الاسترسال معها دون مراعاة الحقيقة الأمرية الدينية، التي هي تحوىٰ مرضاة الرب ومحبته وأمره ونهيه، ظاهراً وباطناً، وهؤلاء كثيراً ما يُسلَبون أحوالهم، وقد يعودون إلىٰ نوع من المعاصي والفسوق، بل كثير منهم يرتد عن الإسلام؛ لأن العاقبة للتقوىٰ.

ومن لم يقف عند أمر اللَّه ونهيه فليس من المتقين؛ فهم يقعون في بعض ما وقع المشركون فيه:

تارة: في بدعة يظنونها شرعة، وتارة: في الاحتجاج بالقدر علىٰ الأمر.

واللَّه تعالىٰ لما ذكر ما ذم به المشركين في سورة الأنعام والأعراف، ذكر ما ابتدعوه من الدين وجعلوه شرعة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]، . . وهؤلاء يكون فيهم شبه من هذا وهذا» ا. هـ.

هذا ما وقفت عليه مما حكاه شيخ الإسلام عن الصوفية في مسألة الاستطاعة، وقد بيّن الشيخ مذهب المتصوفة ومذهب أهل السنة، وإن كان القول الذي أورده الشيخ هو قول صالحي المتصوفة، وقولهم في الاستطاعة لا يكاد يفترق عن قول أهل السنة والجماعة.



المبحث الثالث

الفـنـــاء

✍ **تمهيد:**

الفَناء في اللغة: نقيض البقاء، وتفانىٰ القوم أي أفنىٰ بعضهم بعضاً بالقتل في الحرب.

أما معنىٰ الفناء عند المتصوفة فقد تعددت عباراتهم في تعريفه:

فقال بعضهم: إن الفناء هو سقوط الأوصاف المذمومة، كما أن البقاء وجود الأوصاف المحمودة، وقيل: الفناء تبديل الصفات البشرية بالصفات الإلهية، وقيل: الفناء عدم شعور الشخص بنفسه أو بلوازم نفسه.

وقال الإمام ابن القيم في تعريف الفناء عند المتصوفة: «الفناء الذي يشير إليه القوم، ويعملون عليه:

أن تذهب المحدثات في شهود العبد، وتغيب في أفق العدم، كما كانت قبل أن توجد، ويبقىٰ الحق تعالىٰ كما لم يزل، ثم تغيب صورة المشاهد ورسمه أيضاً، فلا يبقىٰ له صورة ولا رسم، ثم يغيب شهوده أيضاً؛ فلا يبقىٰ له شهود، ويصير الحق هو الذي يشاهد نفسه بنفسه، كما كان الأمر قبل إيجاد المكونات، وحقيقته: أن يفنىٰ من لم يكن، ويبقىٰ من لم يزل» ا. هـ[(١)].

والفناء من المقامات العالية عند الصوفية، ومن بلغ منزلة الفناء منهم ارتفع شأنه عندهم، وصار من الأولياء المقربين، وقد بيّن الشيخ،

---

(١) مدارج السالكين (١/١٤٨، فصل: الفناء).

مذهب الصوفية في الفناء، وما وقعوا فيه من خلل في تصورهم له، ويمكن بيان ما ذكره فيما يلي:

✍ **أولاً: بيَّن أن الفناء نوعان:**

أ ـ الفناء البدعي: وهو المراد بالفناء عن الصوفية، وهو: أن لا يفرق العارف بين الحسن والقبيح، ولا بين محبوب الرب تعالىٰ ومبغوضه، بل الكل عنده سواء، ويتمدحون بذلك ويجعلونها من المقامات العالية:

قال الشيخ: «والمقصود هنا: أن الفرق بين الأفعال الحسنة التي يحصل لصاحبها بها لذة، وبين السيئة التي يحصل له بها ألم، أمرٌ حسيٌ يعرفه جميع الحيوان، فمن قال من المدعين للحقيقة القدرية والفناء في توحيد الربوبية والاصطلام: إنه يبقىٰ في عين الجميع لا يفرق بين ما يؤلم، أو ما يلذ، كان هذا مما يُعلم كذبُه فيه إن كان يفهم ما يقول، وإلا كان ضالاً يتكلم بما لا يعرف حقيقته، وهو الغالب علىٰ من يتكلم في هذا؛ فإن القوم قد يحصل لأحدهم هذا المشهد ـ مشهد الفناء في توحيد الربوبية ـ فلا يشهد فرقاً ما دام في هذا المشهد، وقد يغيب عنه الإحساس بما يوجب الفرق مدة من الزمان، فيظن هذا الفناء مقاماً محموداً ويجعله إما غاية وإما لازماً للسالكين وهذا غلط» ا.هـ.

ب ـ الفناء الشرعي: وهو الذي يقع للمؤمنين، وقد بينه شيخ الإسلام بقوله:

«**فإن تحقيق الشهادة بالتوحيد يقتضي**: أن لا يحب إلا للَّه، ولا يبغض إلا لِلَّه، ولا يوالي إلا لِلَّه، ولا يعادي إلا لِلَّه، وأن يحب ما يحبه اللَّه، ويبغض ما أبغضه، ويأمر بما أمر اللَّه به، وينهىٰ عما نهىٰ اللَّه

عنه، وأنك لا ترجو إلا اللَّه، ولا تخاف إلا اللَّه، ولا تسأل إلا اللَّه، وهذا ملة إبراهيم، وهذا الإسلام الذي بعث اللَّه به جميع المرسلين، **والفناء في هذا هو «الفناء» المأمور به؛ الذي جاءت به الرسل، وهو**: أن يفنىٰ بعبادة اللَّه عن عبادة ما سواه، وبطاعته عن طاعة ما سواه، وبالتوكل عليه عن التوكل علىٰ ما سواه، وبرجائه وخوفه عن رجاء ما سواه وخوفه، فيكون مع الحق بلا خلق، كما قال الشيخ عبد القادر: كن مع الحق بلا خلق، ومع الخلق بلا نفس.

وتحقيق الشهادة بأن محمداً رسول اللَّه، يوجب: أن تكون طاعته طاعة اللَّه، وإرضاؤه إرضاء اللَّه، ودينُ اللَّه ما أَمَر به، فالحلال ما حلله، والحرام ما حرمه، والدين ما شرعه، ولهذا طالب اللَّه المدعين لمحبته بمتابعته، فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وضمِن لمن اتبعه أن اللَّه يحبه بقوله: ﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾، وصاحب هذه المتابعة لا يبقىٰ مريداً إلا ما أحبه اللَّه ورسوله، ولا كارهاً إلا لما كرهه اللَّه ورسوله، وهذا هو الذي يحبه الحق، كما قال: **(ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني: لأعطينه، ولئن استعاذني: لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله، ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن؛ يكره الموت، وأكره مساءته ولا بد له منه)**[(١)]» ا.هـ.

ثم بين الشيخ خطأَ القائلين بالفناء المبتدع، فقال: «وأما الذي لا يستحسن حسنة، ولا يستقبح سيئة: فهذا لم تبق عنده الأمور

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه.

نوعان: محبوب للحق، ومكروه، بل كل مخلوق فهو عنده محبوب للحق كما أنه مراد.

فإن هؤلاء أصل قولهم: هو قول جهم بن صفوان من القدرية، فهم من غلاة الجهمية الجبرية[١] في القدر، وإن كانوا في الصفات يُكَفرون الجهمية نفاة الصفات. . .

فلما كان هذا حقيقة قولهم الذي يعتقدونه ويشهدونه، صاروا حزبين:

حزباً: من **أهل الكلام** والرأي أقروا بالفرق الطبيعي، وقالوا: ما ثَمَّ فرقٌ إلا الفرق الطبيعي، ليس هنا فرق يرجع إلىٰ اللَّه بأنه يحب هذا ويبغض هذا. . .

والحزب الثاني: **من الصوفية**: الذي كان هذا المشهد هو منتهىٰ سلوكهم، عرفوا الفرق الطبيعي وهم قد سلكوا علىٰ ترك هذا الفرق الطبيعي، وأنهم يزهدون في حظوظ النفس وأهوائها، لا يريدون شيئاً لأنفسهم، وعندهم أن من طلب شيئاً للأكل والشرب في الجنة فإنما طلب هواه وحظه، وهذا كله نقص عندهم ينافي حقيقة الفناء في توحيد الربوبية، وهو بقاءٌ مع النفس وحظوظها.

فصار عندهم كلَّ من فرَّق:

إما ناقص المعرفة والشهادة، وإما ناقص القصد والإرادة، وكلاهما علة، بخلاف صاحب الفناء في مشهد الربوبية: فإنه يشهد كل ما في الوجود بإرادته ومحبته ورضاه عندهم، لا فرق بين شيء وشيء، فلا

---

(١) الجبرية: هم الغلاة في إثبات القدر الذين يسلبون الإنسان حرية الاختيار ويجعلونه مجبوراً علىٰ فعل نفسه، فالعبد عندهم كالريشة في مهب الريح، وكحركة الآلة في يد الرجل، وهذا مذهب الجهمية، ومن وافقهم من الأشاعرة في مسألة «الكسب».

يستحسن حسنة ولا يستقبح سيئة كما قاله صاحب منازل السائرين. . .

ولا ريب أن فناءهم وغيبتهم عن شهود «الإلهية والنبوة «شهادة أن لا إله إلا إله وأن محمداً رسول اللَّه، وما تضمنه من الفرق، يرجع إلىٰ نقص العلم والشهود والإيمان والتوحيد، فشهدوا نعتاً من نعوت الرب وغابوا عن آخر وهذا نقص. . . » ا. هـ.

وقال في بيان الفناء الشرعي: «فصلٌ: قال الشيخ عبد القادر، قدس اللَّه روحه[1]: (اِفنَ عن الخلق بحكم اللَّه، وعن هواك بأمره، وعن إرادتك بفعله، فحينئذ يصلح أن تكون وعاء لعلم اللَّه)، قلت: فحكمه يتناول خلقه وأمره، أي: اِفن عن عبادة الخلق والتوكل عليهم بعبادة اللَّه والتوكل عليه، فلا تطعهم في معصية اللَّه تعالىٰ، ولا تتعلق بهم في جلب منفعة ولا دفع مضرة، وأما الفناء عن الهوىٰ بالأمر، وعن الإرادة بالفعل، بأن يكون فعله موافقاً للأمر الشرعي، لا لهواه، وأن تكون إرادته لما يخلق تابعة لفعل اللَّه، لا لإرادة نفسه.

قال الشيخ[2]: فعلامة فنائك عن خلق اللَّه: انقطاعك عنهم وعن التردد إليهم، واليأس مما في أيديهم، وهو كما قال: فإذا كان القلب لا يرجوهم ولا يخافهم لم يتردد إليهم لطلب شيء منهم، وهذا يشبه بما يكون مأموراً به من المشي إليهم لأمرهم بما أمر اللَّه به، ونهيهم عما نهاهم اللَّه عنه، كذهاب الرسل وأتْباع الرسل إلىٰ من يبلغون رسالات اللَّه؛ فإن التوكل إنما يصح مع القيام بما أُمر به العبد؛ ليكون عابداً للَّه متوكلاً عليه» ا. هـ.

---

(١) فتوح الغيب (ص: ١٤).

(٢) فتوح الغيب (ص: ١٤).

ثانياً: أقسام الفناء:

قال الشيخ: «الفناء الذي يوجد في كلام الصوفية يفسر بثلاثة أمور:

أحدها: فناء القلب عن إرادة ما سوىٰ الرب والتوكل عليه وعبادته، وما يتبع ذلك، فهذا حق صحيح وهو محض التوحيد والإخلاص، وهو في الحقيقة عبادة القلب وتوكله واستعانته، وتألهه وإنابته وتوجهه إلىٰ اللَّه وحده لا شريك له، وما يتبع ذلك من المعارف والأحوال، وليس لأحد خروجٌ عن هذا، وهو: القلب السليم، الذي قال اللَّه فيه: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء]، وهو: سلامة القلب عن الاعتقادات الفاسدة والإرادات الفاسدة، وما يتبع ذلك.

وهذا (الفناء) لا ينافيه البقاء؛ بل يجتمع هو والبقاء، فيكون العبد فانياً عن إرادة ما سواه وإن كان شاعراً باللَّه وبالسِّوىٰ، وترجمته قول لا إله إلا اللَّه وكان النبي ﷺ يقول: (**لا إله إلا اللَّه ولا نعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن**)(١) وهذا في الجملة هو أول الدين وآخره.

الأمر الثاني: فناء القلب عن شهود ما سوىٰ الرب، فذاك فناء عن الإرادة، وهذا فناء عن الشهادة، ذاك فناء عن عبادة الغير والتوكل عليه، وهذا فناء عن العلم بالغير والنظر إليه.

فهذا الفناء فيه نقص؛ فإن شهود الحقائق علىٰ ما هي عليه ـ وهو شهود الرب مدبراً لعباده آمراً بشرائعه ـ أكمل من شهود وجوده، أو صفة من صفاته، أو اسم من أسمائه، والفناء بذلك عن شهود ما سوىٰ ذلك، ولهذا كان الصحابة أكمل شهوداً من أن ينقصهم شهودٌ

---

(١) رواه مسلم عن ابن الزبير رضي الله عنه.

للحق مجملاً عن شهوده مفصلاً، ولكن عرض كثير من هذا لكثير من المتأخرين من هذه الأمة، كما عرض لهم عند تجلي بعض الحقائق: الموتُ والغشي والصياح والاضطراب، وذلك لضعف القلب عن شهود الحقائق علىٰ ما هي عليه، وعن شهود التفرقة في الجمع، والكثرة في الوحدة، حتىٰ اختلفوا في إمكان ذلك، وكثير منهم يرىٰ أنه لا يمكن سوىٰ ذلك؛ لما رأىٰ أنه إذا ذكر الخلق أو الأمر اشتغل عن الخالق الآمر، وإذا عورض بالنبي ﷺ وخلفائه ادعىٰ الاختصاص، أو أعرض عن الجواب، أو تحير في الأمر؛ وسبب ذلك: أنه قاس جميع الخلق علىٰ ما وجده من نفسه، ولهذا يقول بعض هؤلاء إنه لا يمكن حين تجلي الحق سماعُ كلامه، **ويُحكىٰ عن ابن عربي**: أنه لما ذُكر له عن الشيخ شهاب الدين السهروردي أنه جوَّز اجتماع الأمرين، قال: نحن نقول له عن شهود الذات وهو يخبرنا عن شهود الصفات! **والصواب**: مع شهاب الدين؛ فإنه كان صحيح الاعتقاد في امتياز الرب عن العبد. . .

وفي الجملة:

فهذا الفناء صحيح، وهو في عيسوية المحمدية، وهو شبيه بالصعق والصياح الذي حدث في التابعين، ولهذا يقع كثير من هؤلاء في نوع ضلال؛ لأن الفناء عن شهود الحقائق مرجعه إلىٰ عدم العلم والشهود، وهو وصف نقص لا وصف كمال، وإنما يمدح من جهة عدم إرادة ما سواه؛ لأن ذكر المخلوق قد يدعو إلىٰ إرادته والفتنة به. . .

الثالث: فناء عن وجود السِّوىٰ: بمعنىٰ أنه يرىٰ أن اللَّه هو الوجود، وأنه لا وجود لسواه، لا به ولا بغيره، وهذا القول والحال للاتحادية الزنادقة من المتأخرين، كالبلياني والتلمساني والقونوني، ونحوهم، الذين يجعلون الحقيقة أنه عين الموجودات، وحقيقة

الكائنات، وأنه لا وجود لغيره، لا بمعنىٰ أن قيام الأشياء به ووجودها به.

كما قال النبي ﷺ: **(أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا اللَّه باطل)**[(١)].

وكما قيل في قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، فإنهم لو أرادوا ذلك، لكان ذلك هو الشهود الصحيح، لكنهم يريدون أنه هو عين الموجودات، فهذا كفر وضلال ربما تمسك أصحابه بألفاظ متشابهة توجد في كلام بعض المشايخ، كما تمسك النصارىٰ بألفاظ متشابهة تروىٰ عن المسيح، ويرجعون إلىٰ وجد فاسد، أو قياس فاسد، فتدبر هذا التقسيم فإنه بيان الصراط المستقيم» ا. هـ.

ثالثاً: مسألة: سقوط التكاليف، بالفناء:

المعتدلون من الصوفية لا يقولون بسقوط التكاليف ما دام العبد قادراً مستطيعاً، وقد بين الشيخ ذلك بما نقله عن أبي عبد اللَّه بن خفيف حيث قال:

«وقال الإمام أبو عبد اللَّه محمد بن خفيف في كتابه الذي سماه (اعتقاد التوحيد بإثبات الأسماء والصفات): . . ونعتقد: أن العبودية لا تسقط عن العبد ما عقل وعلم ما له وما عليه، فيبقىٰ علىٰ أحكام القوة والاستطاعة، إذ لم يسقط اللَّه ذلك عن الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين.

ومن زعم أنه قد خرج عن رق العبودية إلىٰ فضاء الحرية، بإسقاط العبودية والخروج إلىٰ أحكام الأحدية المسدية بعلائق الآخرية، فهو كافر لا محالة، إلا من اعتراه علة أو رأفة فصار معتوهاً أو مجنوناً، أو مبرسماً: اختلط عقله، أو لحقه غشية يرتفع عنه بها أحكام

(١) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

العقل وذهب عنه التمييز والمعرفة، فذلك خارج عن الملة مفارق للشريعة» ا. هـ.

وتكلم عن مسألة زوال التكليف بالفناء أو عدم زواله، فقال: «فإن قيل: فهل هذا الفناء يزول به التكليف؟ قيل: إن حصل للإنسان سبب يعذر فيه زال به عقله الذي يميز به فكان بمنزلة النائم والمغمىٰ عليه والسكران سكراً لا يأثم به، كمن سكر قبل التحريم، أو أُجِرَ الخَمرَ، أو أُكره علىٰ شربها عند الجمهور، وأما إن كان السكر لسبب محرم، فهذا فيه نزاع معروف بين العلماء.

والذين يذكرون عن أبىٰ يزيد وغيره كلمات من الاتحاد الخاص ونفي الفرق ويعذرونه في ذلك، يقولون: إنه غاب عقله حتىٰ قال: أنا الحق، و: سبحاني، و: ما في الجُبَّة إلا اللَّه، ويقولون: إن الحب إذا قوي علىٰ صاحبه، وكان قلبه ضعيفاً يغيب بمحبوبه عن حبه، وبموجوده عن وجده، وبمذكوره عن ذكره، حتىٰ يفنىٰ من لم يكن، ويبقىٰ من لم يزل، ويحكون:

أن شخصاً ألقىٰ بنفسه في الماء فألقىٰ محبه نفسه خلفه! فقال: أنا وقعت، فلم وقعت أنت؟! فقال: غبت بك عني؛ فظننت أنك أني! فمثل هذا الحال التي يزول فيها تمييزه بين الرب والعبد، وبين المأمور والمحظور، ليست علماً ولا حقاً، بل غايته أنه نقص عقله الذي يفرق به بين هذا وهذا، وغايته أن يعذر، لا أن يكون قوله تحقيقاً.

وطائفة من الصوفية المدعين للتحقيق، يجعلون هذا تحقيقاً وتوحيداً، كما فعله صاحب (منازل السائرين) وابن العريف[1]، وغيرهما، كما أن الاتحاد العام جعله طائفة تحقيقاً وتوحيداً: كابن

---

(١) يشير شيخ الإسلام إلىٰ كتابه «محاسن المجالس.

عربي الطائي» ا. هـ.

أدلة الصوفية على قولهم بزوال التكليف بالفناء:

الدليل الأول: قوله تعالىٰ: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر].

قال الشيخ أثناء رده على ملاحدة الفلاسفة والباطنية الذين يقولون بإباحة المحظورات، وسقوط الواجبات: «وقد أشبه هؤلاء في بعض الأمور ملاحدة المتصوفة: الذين يجعلون فعل المأمور وترك المحظور واجباً على السالك حتىٰ يصير عارفا محققاً في زعمهم، وحينئذ يسقط عنه التكليف، ويتأولون على ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر]، زاعمين أن اليقين: هو ما يدّعونه من المعرفة، واليقين هنا: الموت وما بعده، كما قال تعالىٰ عن أهل النار: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ۝٤٧ فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ۝٤٨﴾ [المدثر]، قال الحسن البصري: إن اللّه لم يجعل لعباده المؤمنين أجلاً دون الموت وتلا هذه الآية[(١)]، ومنه قوله ﷺ ـ لما تُوفِّي عثمان بن مظعون ـ: **(أما عثمان بن مظعون فقد أتاه اليقين من ربه)**[(٢)]» ا. هـ.

الدليل الثاني: قوله تعالىٰ: قوله ﷺ في بيان معني الإحسان: (فإن لم تكن تراه)[(٣)]:

قال الشيخ: «كقول بعضهم: (فإن لم تكُنْ: تراهُ) يعني فإن فنيت

---

(١) الأثر: أخرجه ابن المبارك في الزهد عن جرير بن حازم قال سمعت الحسن يقول: أَيْ قومِ! المداومةَ المداومةَ؛ فإن اللّه لم يجعل لعمل المؤمن أجلا دون الموت. ا. هـ.

(٢) رواه البخاري عن أم العلاء رضي الله عنها.

(٣) رواه مسلم عن عمر رضي الله عنه.

عنك رأيت ربك، وليس هذا معنىٰ الحديث، فإنه: لو أريد هذا لقيل: فإن لم تكُنْ: ترَهْ، وقد قيل: (تراه)، ثم كيف يصنع بجواب الشرط؟ وهو قوله: فإنه يراك.

ثم إنه علىٰ قولهم الباطل: تكون ـ كان ـ: تامة، فالتقدير: فإن لم تكن: أي لم تقع ولم تحصل، وهذا تقدير محال فإن العبد كائن موجود ليس بمعدوم، ولو أُريد فناؤه عن هواه، أو فناء شهوده للأغيار لم يعبر بنفي كونه؛ فإن هذا محال.

ومتىٰ كان المعني صحيحاً والدلالة ليست مرادةً يسمىٰ ذلك إشارة وقد أودع الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي حقائق التفسير من هذا قطعة، وليس المقصود الآن الكلام في هذا فإنه باب آخر» ا.هـ.

✍ الآثار التي ترتبت على قول الصوفية بالفناء، وسقوط التكاليف، وتعطيل الأمر والنهي لمن وصل إلى مقام الفناء:

□ عدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

بيَّن الشيخ ذلك بقوله: «فلهذا يوجد هؤلاء الذين يشهدون القدر المحض وليس عندهم غيره، إلا ما هو قدر أيضاً ـ من نعيم أهل الطاعة وعقوبة أهل المعصية ـ: لا يأمرون بالمعروف، ولا ينهون عن المنكر، ولا يجاهدون في سبيل اللَّه، بل ولا يدعون اللَّه بنصر المؤمنين علىٰ الكفار، بل إذا رأىٰ أحدهم من يدعو قال: الفقير ـ أو المحقق أو العارف ـ ما له؟ يفعل اللَّه ما يشاء، وينصر من يريد؛ فإن عنده أن الجميع واحد بالنسبة إلىٰ اللَّه، وبالنسبة إليه أيضاً؛ فإنه ليس له غرض في نصر إحدىٰ الطائفتين لا من جهة ربه؛ فإنه لا فرق علىٰ رأيه عند اللَّه تعالىٰ بينهما، ولا من جهة نفسه؛ فإن حظوظه لا تنقص باستيلاء الكفار بل كثير منهم تكون حظوظه الدنيوية مع استيلاء الكفار والمنافقين والظالمين أعظم، فيكون هواه أعظم».

▫ ومن آثار القول بالفناء: وقوع فريق منهم في الحلول والاتحاد، وما يتبع ذلك من التلفظ بالكلمات التي ظاهرها الكفر:

قال الشيخ أثناء كلامه عن الفناء وغَيْبة الحال: «فصلٌ: وقد يقع بعض من غلب عليه الحال في نوع من الحلول أو الاتحاد؛ فإن الاتحاد فيه حق وباطل، لكن لما ورد عليه ما غيب عقله أو أفناه عما سوىٰ محبوبه، ولم يكن ذلك بذنب منه: كان معذوراً غير معاقب عليه، ما دام غير عاقل فإن القلم رفع عن المجنون حتىٰ يفيق وإن كان مخطئاً في ذلك كان داخلاً في قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٥].

فهذه الحال تعتري كثيراً من أهل المحبة والإرادة في جانب الحق، وفي غير جانبه، وإن كان فيها نقص وخطأ؛ فإنه يغيب بمحبوبه عن حبه، وعن نفسه وبمذكوره عن ذِكره، وبمعروفه عن عرفانه، وبمشهوده عن شهوده، وبموجوده عن وجوده، فلا يشعر حينئذ بالتمييز، ولا بوجوده؛ فقد يقول في هذه الحال: أنا الحق، أو: سبحاني، أو: ما في الجبة إلا اللَّه، ونحو ذلك وهو سكران بوجد المحبة، الذي هو لذة وسرور بلا تمييز وذلك السكران: يطوىٰ ولا يروىٰ إذا لم يكن سكره بسبب محظور فأما إذا كن السبب محظوراً: لم يكن السكران معذوراً» ا.هـ.

▫ ومن آثار القول بالفناء: غلبة الفناء والشهود على القلب، حتى يُخيَّل للمرء أنه يرى الله تعالى:

قال الشيخ: «وكثير من هؤلاء العباد الذي يشهد قلبه الصورة المثالية ويفني فيما شهده يظن أنه رأىٰ اللَّه بعينه لأنه لما استولىٰ علىٰ قلبه سلطان الشهود ولم يبق له عقل يميز به والمشاهد للأمور

هو القلب لكن تارة شاهدها بواسطة الحس الظاهر وتارة بنفسه فلا يبقىٰ أيضاً يميز بين الشهودين فإن غاب عن الفرق بين الشهودين ظن أنه رآه بعينه وإن غاب عن الفرق بين الشاهد والمشهود ظن أنه هو كما يحكىٰ عن أبي يزيد أنه قال: ليس في الجبة إلا اللَّه، وكما قال الآخر: غبت بك عني فظننت أنك أني وكان المحبوب قد ألقىٰ نفسه في الماء فألقىٰ المحب نفسه خلفه وهذا كله من قوة شهود القلب وضعف العقل بمنزلة ما يراه النائم فإنه لغيبة عقله بالنوم يظن أن ما يراه هو بعينه الظاهرة وما يسمعه: يسمعه بأذنه الظاهرة، وما يتكلم به: يتكلم به بلسانه الحس الظاهر، وعينه مغمضة ولسانه ساكت، وقد يقوىٰ تصوره الخيالي في النوم حني يتصل بالحس الظاهر فيبقىٰ النائم يقرأ بلسانه ويتكلم بلسانه تبعاً لخياله ومع هذا فعقله غائب لا يشعر بذلك كما يحصل مثل ذلك للسكران والمجنون وغيرهما» ا.هـ.

ومن آثار القول بالفناء: أن العارف منهم إذا غلب الفناء والشهود علىٰ قلبه، ظن بأن كل ما يفعله طاعة ومحبوب ومراد للَّه تعالىٰ، فلا يفرق بين الحسنة والسيئة:

قال الشيخ: «**العارف المحقق عنده**[١] **هو من يصل إلىٰ مقام الفناء، فيفني عن جميع مراداته بمراد الحق، وجميع الكائنات مرادة له، وهذا هو الحكم عنده والحسنة والسيئة يفترقان في حظ العبد لكونه ينعم بهذه ويعذب بهذه، والالتفات إلىٰ هذا هو من حظوظ النفس، ومقام الفناء ليس فيه إلا مشاهدة مراد الحق. . .**

فإن هؤلاء يدَّعون: أن العارف الواصل إلىٰ مقام الفناء لا يفرق

(١) يعني أبا إسماعيل الهروي.

بين هذا وهذا، وهم غلطوا في حق العبد وحق الرب:

أما في حق العبد: فيلزمهم أن تسوي عنده جميع الحوداث، وهذا محال قطعاً، وهم قد تمر عليهم أحوال يفنون فيها عن أكثر الأشياء، أما الفناء عن جميعها: فممتنع؛ فإنه لابد أن يفرق كلُّ حي بين ما يؤلمه وبين ما يلذه، فيفرق بين الخبز والتراب، والماء والشراب، فهؤلاء: عزلوا الفرق الشرعي الإيماني الرحماني، الذي به فرَّق اللَّه بين أوليائه وأعدائه، وظنوا أنهم مع الجمع القدري، وعلىٰ هذا: فإن تسوية العبد بين جميع الحوداث ممتنع لذاته، بل لابد للعبد من أن يفرق فإن لم يفرق بالفرق الشرعي ـ فيفرق بين محبوب الحق ومكروهه وبين ما يرضاه وما يسخطه ـ وإلا فرق بالفرق الطبعي: بهواه وشيطانه، فيحب ما تهواه نفسه وما يأمر به شيطانه، ومن هنا: وقع منهم خلق كثير في المعاصي، وآخرون في الفسوق، وآخرون في الكفر، حتىٰ جوزوا عبادة الأصنام» ا.هـ.

وبما سبق يتبين أن قول الصوفية بالفناء، أوقعهم في ضلالات كثيرة، منها القول بسقوط التكاليف الشرعية، وتعطيل عدد من شرائع الدين كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإبطال الجهاد في سبيل اللَّه تعالىٰ، وعدم لوم العصاة علىٰ معاصيهم إذ لا فرق بين الحسنة والسيئة أصلاً، إلىٰ غير ذلك من الضلالات التي تقدم تفصيلها.



الباب الرابع

وسائل الطريق الصوفي ومعالمه؛ كما عرضها شيخ الإسلام

* وفيه فصلان:

الفصل الأول: آراؤه في أركان الطريق الصوفي

وفيه مباحث:

المبحث الأول: الخلوة، والصمت، والعُزلة

المبحث الثاني: الجوع، والسهر، والاحتفاء، والمجاهدات البدعية

المبحث الثالث: الأوراد والأذكار

المبحث الرابع: الأحوال المبتدعة: السُّكر، الوله، الجنون.

الفصل الثاني: آراؤه في معالم الطريق الصوفي

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: المريد وآدابه

المبحث الثاني: العهد، والبيعة، والتلقين

المبحث الثالث: الخِرَق، والمرقَّعات، والتعرِّي

الفصل الأول: آراؤه في أركان الطريق الصوفي

المبحث الأول

الخلوة، والصمت، والعُزلة

تمهيد:

تعتبر الخلوة عند الصوفية من المستلزمات الروحية للسالك في الطريق الصوفي، كما يعتقدون أنها تدعيم لصدق التوبة وتثبيت الإخلاص، وهي عندهم أفضل اللحظات التي يقضيها الإنسان مع ربه ﷻ، وتهدف الخلوة عندهم إلىٰ معرفة مدىٰ استعداد الشخص للانتقال إلىٰ المقامات والأحوال الأخرىٰ.

ومعنىٰ الخلوة لغة: مصدر خلا يخلو، إذا اعتزل الناس وانفرد عنهم.

والخلوة في اصطلاح الصوفية تعني: التخلي واختيار الخلوة والإعراض عن كل ما يشغل عن الحق، والخلوة: محادثة السر مع الحق حيث لا أحد ولا ملك.

والخلوة ليست مذمومة مطلقاً؛ بل نص الشيخ علىٰ أن من الخلوات ما يكون شرعياً مأموراً به.

والخلوة والاعتزال الشرعيان بيَّنَهما بقوله: «**وإنما الغرض**: التنبيه بهذا علىٰ جنس من العبادات البدعية وهي الخلوات البدعية، سواء قدرت بزمان أو لم تقدر؛ لما فيها من العبادات البدعية، إما التي جنسها مشروع ولكن غير مقدرة، وإما ما كان جنسه غير مشروع.

فأما الخلوة والعزلة والانفراد المشروع؛ فهو ما كان مأموراً به أمر إيجاب أو استحباب:

فالأول: كاعتزال الأمور المحرمة ومجانبتها.

كما قال تعالىٰ عن أهل الكهف: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ [الكهف: ١٦]، فإن أولئك لم يكونوا في مكان فيه جمعة ولا جماعة، ولا من يأمر بشرع نبي، فلهذا أووا إلىٰ الكهف، وقد قال موسىٰ: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾ [الدخان]، وأما اعتزال الناس في فضول المباحات وما لا ينفع، وذلك بالزهد فيه، فهو مستحب، وقد قال طاووس: (نِعْم صومعةُ الرجل بيتُه؛ يكف فيه بصره وسمعه)[1] وإذا أراد الإنسان تحقيق علم أو عمل فتخلىٰ في بعض الأماكن مع محافظته علىٰ الجمعة والجماعة فهذا حق؛ كما في الصحيحين: أن النبي ﷺ سئل: أيُّ الناس أفضل؟ قال: (**رجلٌ آخذٌ بعنان فرسه في سبيل اللَّه كلما سمع هَيْعَةً طار إليها يتتبع الموت مظانّه، ورجل معتزل في شِعْبٍ من الشِّعاب يقيم الصلاة ويؤتىٰ الزكاة ويدع الناس إلا من خير**)[2]، وقوله: (**يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة**) دليل علىٰ أن له مالاً يزكيه وهو ساكن مع ناس يؤذن بينهم وتقام الصلاة فيهم فقد قال ـ صلوات اللَّه عليه ـ: (**ما مِنْ ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة جماعة إلا وقد استحوذ عليهم الشيطان**)[3]، وقال: (**عليكم بالجماعة فإنما يأخذ الذئب القاصية من الغنم**)[4]» ا. هـ.

---

(١) الأثر: أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، وابن المبارك في الزهد، عن أبي الدرداء قال: «نِعْم صومعة الرجل بيته؛ يحفظ فيها لسانه وبصره، وإياك والسوق؛ فإنها تلغي وتلهي»، ولم أقف عليه من قول طاووس.

(٢) رواه البخاري، ومسلم عن أبي هريرة.

(٣) رواه أبو داود، والنسائي عن أبي الدرداء.

(٤) رواه النسائي عن أبي الدرداء.

أما ما ذكره الشيخ عن الخلوة وأحكامها عند المتصوفة، فيمكن بيانه فيما يلي:

أولاً: سبب ابتداع الصوفية للخلوة:

أ ـ بيَّن الشيخ أن المتصوفة لما رأوا إعراض كثير من الناس عن طلب الآخرة، وانشغالهم بطلب الدنيا، حاربوا حظوظ أنفسهم، ولجئوا إلىٰ الخلوة والصمت والجوع:

قال الشيخ أثناء كلامه عن غلط فريق من الصوفية في باب الرضا؛ وقولهم إن من تمام الرضا أن لا تسأل اللَّه الجنة ولا تستعيذ به من النار[1]:

«**ثم إنه مما أوقع هؤلاء في هذا الغلط**: أنهم وجدوا كثيراً من الناس لا يسألون اللَّه جلب المنافع ودفع المضار، حتىٰ طلب الجنة والاستعاذة من النار، من جهة كون ذلك عبادة وطاعة وخيراً، بل من جهة كون النفس تطلب ذلك، فرأوا أن من الطريق ترك ما تختاره النفس وتريده، وأن لا يكون لأحدهم إرادة أصلاً؛ بل يكون مطلوبه الجريان تحت القدر ـ كائناً ما كان ـ.

وهذا هو الذي أدخل كثيراً منهم في الرهبانية والخروج عن الشريعة، حتىٰ تركوا من الأكل والشرب واللباس والنكاح ما يحتاجون إليه، وما لا تتم مصلحة دينهم إلا به؛ فإنهم رأوا العامة تعد هذه الأمور بحكم الطبع والهوىٰ والعادة، ومعلوم أن الأفعال التي علىٰ هذا الوجه لا تكون عبادة ولا طاعة ولا قربة، فرأىٰ أولئك الطريق إلىٰ اللَّه ترك هذه العبادات والأفعال الطبعيات، فلازموا من الجوع والسهر والخلوة والصمت، وغير ذلك مما فيه ترك الحظوظ واحتمال المشاق، ما

(١) القائل هو أبو سليمان الداراني كما في الرسالة القشيرية (ص: ١٩٥).

أوقعهم في ترك واجبات ومستحبات، وفعل مكروهات ومحرمات، وكلا الأمرين غير محمود ولا مأمور به» ا.هـ.

ب ـ لحفظ القلب عن الشهوات الناتجة عن مخالطة الناس:

قال الشيخ: «ولقد حدثني رجل أنه أنكر علىٰ بعض هؤلاء خلوة له ترك فيها الجمعة، فقال له الشيخ: أليس الفقهاء يقولون: إذا خاف علىٰ شيء من ماله فإن الجمعة تسقط؟ فقال له: بلىٰ! فقال له: فقلب المريد أعز عليه من عشرة دراهم ـ أو كما قال ـ وهو إذا خرج ضاع قلبه فحفظه لقلبه عذر مسقط للجمعة في حقه! فقال له: هذا غرور بك، الواجب الخروج إلىٰ أمر اللَّه ﷻ.

فتأمل هذا الغرور العظيم كيف أدىٰ إلىٰ الانسلاخ عن الإسلام جملة، فإن من سلك هذا المسلك انسلخ عن الإسلام العام كانسلاخ الحية من قشرها، وهو يظن أنه من خاصة الخاصة» ا.هـ.

ج ـ لأجل حصول الكشف والكرامة:

قال الشيخ: «ولهذا يوجدون كثيراً في الخراب والفلوات، ويوجودون في مواضع النجاسات، كالحمامات والحشوش والمزابل والقمامين والمقابر، والشيوخ الذين تقترن بهم الشياطين وتكون أحوالهم شيطانية لا رحمانية يأوون كثيراً إلىٰ هذه الأماكن، التي هي مأوىٰ الشياطين، وقد جاءت الآثار بالنهي عن الصلاة فيها لأنها مأوي الشياطين، والفقهاء منهم من علل النهي بكونها مظنة النجاسات، ومنهم من قال: إنه تعبد لا يعقل معناه، **والصحيح:** أن العلة في الحمام وأعطان الإبل ـ ونحو ذلك ـ: أنها مأوىٰ الشياطين، وفي المقبرة أن ذلك ذريعة إلىٰ الشرك، مع أن المقابر تكون أيضاً مأوىٰ للشياطين.

والمقصود: أن أهل الضلال والبدع الذين فيهم زهد وعبادة علىٰ غير الوجه الشرعي، ولهم أحياناً مكاشفات ولهم تأثيرات، يأوون كثيراً إلىٰ مواضع الشياطين التي نُهيَ عن الصلاة فيها، لأن الشياطين تتنزل عليهم بها، وتخاطبهم الشياطين ببعض الأمور كما تخاطب الكهان» ا. هـ.

د ـ لأجل ما يحصل لهم من تنزل الفتوحات الربانية، والمعارف الإلهية، وهي في الحقيقة تنزل الشياطين:

قال الشيخ: «في العبادات، والفرق بين شرعيها وبدعيها:

أصل الدين: أن الحلال ما أحله اللَّه ورسوله، والحرام ما حرمه اللَّه ورسوله، والدين ما شرعه اللَّه ورسوله، ليس لأحد أن يخرج عن الصراط المستقيم الذي بعث اللَّه به رسوله.

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام]، وفي حديث عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه خط خطاً وخط خطوطاً عن يمينه وشماله، ثم قال: (**هذه سبيل اللَّه وهذه سبل علىٰ كل سبيل منها شيطان يدعو إليه**). ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣](١).. **إذ المقصود هنا: الكلام في أجناس عبادات غير مشروعة حدثت في المتأخرين كالخلوات**، فإنها تشتبه بالاعتكاف الشرعي، والاعتكاف الشرعي في المساجد، كما كان النبي ﷺ يفعله هو وأصحابه من العبادات الشرعية.. وقد جُرِّب أن من سلك هذه العبادات البدعية أتته الشياطين؛ وحصل له تنزل شيطاني وخطاب شيطاني، وبعضهم

---

(١) رواه أحمد والدارمي، عن عبداللَّه بن مسعود رضي الله عنه.

يطير به شيطانه وأعرفُ من هؤلاء عدداً طلبوا أن يحصل لهم من جنس ما حصل للأنبياء من التنزيل، فنزلت عليهم الشياطين لأنهم خرجوا عن شريعة النبي ﷺ التي أُمروا بها، قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية]، وكثير منهم لا يحد للخلوة مكاناً ولا زماناً؛ يأمر الإنسان أن يخلو في الجملة» ا. هـ.

وبيَّن الشيخ أن مشايخ الصوفية الصالحين: متفقون علىٰ أن ما حصل من الفتوحات والمعارف بسبب الخلوة والتصفية لا يقبل مطلقاً؛ بل لا بدّ من عرضه علىٰ الكتاب والسنة، فما وافقهما منه قبل، وما خالفهما منه رُدَّ: فقال: «ومع هذا فالمشايخ العارفون متفقون علىٰ أن ما يحصل بالزهد والعبادة، والرياضة والتصفية والخلوة، وغير ذلك من المعارف، متىٰ خالف الكتاب والسنة، أو خالف العقل الصريح فهو باطل» ا. هـ.

ثانياً: أماكن الخلوات عند المتصوفة:

قال الشيخ: «وهذه الخلوات قد يقصد أصحابها الأماكن التي ليس فيها أذان ولا إقامة ولا مسجد يصلىٰ فيه الصلوات الخمس إما مساجد مهجورة وإما غير مساجد مثل الكهوف والغيران التي في الجبال ومثل المقابر لا سيما قبر من يحسن به الظن ومثل المواضع التي يقال أن بها أثر نبي أو رجل صالح ولهذا يحصل لهم في هذه المواضع أحوال شيطانية يظنون أنها كرامات رحمانية» ا. هـ.

ثالثاً: آداب الخلوة عند الصوفية:

أ ـ الصوفية يجعلون للخلوة أذكاراً معينة:

قال الشيخ: «ومن أهل هذه الخلوات من لهم أذكار معينة، وقوت معين، ولهم تنزلات معروفة ـ وقد بسط الكلام عليها ابن عربي الطائي ومن سلك سبيله كالتلمساني ـ وهي تنزلات شيطانية قد عرفتُها وخبرت ذلك من وجوه متعددة» ا. هـ.

ب: من آداب الخلوة: الجوع، والسهر، والصمت!

قال الشيخ: «ومما يأمرون به: الجوع والسهر والصمت مع الخلوة، بلا حدود شرعية؛ بل سهر مطلق، وجوع مطلق، وصمت مطلق مع الخلوة، كما ذكر ذلك ابن عربي وغيره، وهي تولِّدُ لهم أحوالاً شيطانية وأبو طالب قد ذكر بعض ذلك، لكن أبو طالب أكثر اعتصاماً بالكتاب والسنة من هؤلاء، ولكن يذكر أحاديث كثيرة ضعيفة بل موضوعة، من جنس أحاديث المسبعات التي رواها عن الخضر عن النبي ﷺ، وهو كذب محض؛ وإن كان ليس فيه إلا قراءة قرآن، ويذكر أحياناً عبادات بدعية، من جنس ما بالغ في مدح الجوع هو وأبو حامد وغيرهما، وذكروا أنه يزن الخبز بخشب رطب كلما جف نقص الأكل، وذكروا صلوات الأيام والليالي، وكلها كذب موضوعة، ولهذا قد يذكرون مع ذلك شيئاً من الخيالات الفاسدة» ا. هـ.

ج ـ من المتصوفة من يبقىٰ صامتاً أياماً وليالي، ويعدون ذلك من الزهد وتصفية النفس وتربيتها:

بيَّن الشيخ أن تعمد طول الصمت وترك الكلام: بدعة.

فقال: «واللَّه تعالىٰ أمر الخلق أن يعبدوه وحده لا يشركون به شيئاً، ويعبدوه بما شرع، وأمر أن لا يعبدوه بغير ذلك، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف]، . فالسالك طريق الزهادة والعبادة: إذا كان متبعاً للشريعة

في الظاهر، وقصد الرياء والسمعة وتعظيم الناس له، كان عمله باطلاً لا يقبله اللَّه، كما ثبت في الصحيح: أن اللَّه يقول: (**أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك؛ من عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء، وهو كله للذي أشرك**)(١).

وإن كان خالصاً في نيته، لكنه يتعبد بغير العبادات المشروعة: مثل الذي يصمت دائماً، أو يقوم في الشمس أو علىٰ السطح دائماً، أو يتعرىٰ من الثياب دائماً، ويلازم لبس الصوف، أو لبس الليف ونحوه، أو يغطي وجهه، أو يمتنع من أكل الخبز أو اللحم أو شرب الماء، ونحو ذلك، كانت هذه العبادات باطلة ومردودة، كما ثبت في الصحيح عن عائشة عن النبي ﷺ قال: (**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**)(٢) وفي رواية: (**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**)(٣)» ا. هـ.

✍ رابعاً: أدلة المتصوفة على مشروعية الخلوة:

استدلوا بدليلين:

- تحنثه ﷺ في غار حراء، ومواعدة اللَّه تعالىٰ موسىٰ ﷺ أربعين ليلة.

وقد بين الشيخ هذين الاستدلالين وردّ عليهما:

فقال: «**المقصود هنا**: الكلام في أجناس عبادات غير مشروعة حدثت في المتأخرين، كالخلوات، فإنها تشتبه بالاعتكاف الشرعي، والاعتكاف الشرعي في المساجد، كما كان النبي ﷺ يفعله هو

---

(١) رواه مسلم عن أبي سعد بن أبي فضالة الأنصاري رضي الله عنه.
(٢) رواه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنه.
(٣) رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها.

وأصحابه من العبادات الشرعية.

وأما الخلوات فبعضهم يحتج فيها:

بتحنثه بغار حراء قبل الوحي: وهذا خطأ؛ فإن ما فعله ﷺ قبل النبوة إن كان قد شرعه بعد النبوة، فنحن مأمورون باتباعه فيه، وإلا فلا، وهو من حين نبأه اللَّه تعالىٰ لم يصعد بعد ذلك إلىٰ غار حراء ولا خلفاؤه الراشدون، وقد أقام صلوات اللَّه عليه بمكة قبل الهجرة بضع عشرة سنة، ودخل مكة في عمرة القضاء، وعام الفتح أقام بها قريباً من عشرين ليلة، وأتاها في حجة الوداع وأقام بها أربع ليال، وغار حراء قريبٌ منه ولم يقصده، وذلك أن هذا كانوا يأتونه في الجاهلية، ويقال: إن عبد المطلب هو سَنَّ لهم إتيانه؛ لأنه لم تكن لهم هذه العبادات الشرعية التي جاء بها بعد النبوة صلوات اللَّه عليه، كالصلاة والاعتكاف في المساجد، فهذه تغني عن إتيان حراء، بخلاف ما كانوا عليه قبل نزول الوحي، فإنه لم يكن يقرأ، بل قال له الملك عليه السلام: **(اقرأ)** قال صلوات اللَّه عليه وسلامه: **(فقلت: لست بقارئ)**(١)، ولا كانوا يعرفون هذه الصلاة، ولهذا لما صلاها النبي ﷺ نهاه عنها من نهاه من المشركين، كأبي جهل، قال اللَّه تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾ [العلق].

وطائفة: يجعلون الخلوة أربعين يوماً، ويعظمون أمر الأربعينية ويحتجون فيها:

ـ بأن اللَّه تعالىٰ واعد موسىٰ عليه السلام ثلاثين ليلة وأتمها بعشر: وقد رُوي أن موسىٰ عليه السلام صامها، وصام المسيح أيضاً أربعين للَّه تعالىٰ وخوطب بعدها، فيقولون يحصل بعدها الخطاب والتنزيل، كما

(١) الحديث: رواه البخاري ومسلم، من حديث: عائشة رضي الله عنها.

يقولون في غار حراء حصل بعده نزول الوحي، وهذا أيضاً غلط؛ فإن هذه ليست من شريعة محمد ﷺ، بل شرعت لموسىٰ عليه السلام كما شرع له السبت، والمسلمون لا يسبتون، وكما حرم في شرعه أشياء لم تحرم في شرع محمد ﷺ، فهذا تمسك بشرع منسوخ، وذاك تمسك بما كان قبل النبوة» ا.هـ.

خامساً: الردّ على المتصوفة في استحبابهم الخلوةَ، والتفرد في البوادي والفلوات:

ردّ الشيخ علىٰ استحباب المتصوفة العزلةَ عن الناس، وبين أن التفرد في البوادي والفلوات مذموم في الشرع لا ممدوح.

فقال أثناء كلامه عن سكنىٰ بعض النساك في الجبال والصحاري، خلوةً وعزلةً عن الناس: «ولكن صار طوائف ممن يؤثر التخلي عن الناس ـ زهداً ونسكاً ـ يحسب أن فضل هذا الجبل ونحوه لما فيه من الخلوة عن الناس، وأكل المباحات من الثمار التي فيه، فيقصدونه لأجل ذلك غلطاً منهم وخطأً؛ فإن سكنىٰ الجبال والغيران والبوادي ليس مشروعاً للمسلمين إلا عند الفتنة في الأمصار، التي تحوج الرجل إلىٰ ترك دينه، من فعل الواجبات وترك المحرمات، فيهاجر المسلم حينئذ من أرض يعجز عن إقامة دينه إلىٰ أرض يمكنه فيها إقامة دينه، فإن (**المهاجر من هجر ما نهىٰ اللَّه عنه**)[1].

ولا خلاف بين المسلمين أن جنس النساك الزهاد الساكنين في الأمصار أفضل من جنس ساكني البوادي والجبال، كفضيلة القروي علىٰ البدوي، والمهاجر علىٰ الأعرابي، وفي الحديث: (**إن من الكبائر أن يرتد الرجل أعرابياً بعد الهجرة**)[2] هذا لمن هو ساكن

(١) رواه البخاري عن عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنه.

(٢) رواه النسائي، عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه بلفظ: آكل الربا وموكله =

في البادية بين الجماعة، فكيف بالمقيم وحده دائماً في جبل أو بادية؟! فإن هذا يفوته من مصالح الدين نظير ما يفوته من مصالح الدنيا، أو قريب منه؛ فإن يد اللَّه علىٰ الجماعة والشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد» ا.هـ.

ومما يؤيد كون هذه الخلوات من البدع:

أنه لم يكن من هدي النبي ﷺ وأصحابه الاعتزال والخلوة، أو ترك الجمعة والجماعة:

قال الشيخ: «ولهذا كان عندهم من ترك الجمعة والجماعة وتخلىٰ في الغيران والجبال حيث لا جمعة ولا جماعة، وزعم أنه يقتدي بالنبي ﷺ؛ لكونه كان متحنثاً في غار حراء قبل النبوة، في ترك ما شرع له من العبادات الشرعية التي أمر اللَّه بها رسوله، واقتدىٰ بما كان يفعل قبل النبوة، كان مخطئاً فإن النبي ﷺ بعد أن أكرمه اللَّه بالنبوة لم يكن يفعل ما فعله قبل ذلك من التحنث في غار حراء أو نحو ذلك، وقد أقام بمكة بعد النبوة بضع عشرة سنة وأتاها بعد الهجرة في عمرة القضية، وفي غزوة الفتح، وفي عمرة الجعرانة، ولم يقصد غار حراء، وكذلك أصحابه من بعده، لم يكن أحد منهم يأتي غار حراء، ولا يتخلون عن الجمعة والجماعة في الأماكن المنقطعة، ولا عمل أحد منهم خلوة أربعينية كما يفعله بعض المتأخرين، بل كانوا يعبدون اللَّه بالعبادات الشرعية التي شرعها لهم النبي ﷺ، الذي فرض اللَّه عليهم الإيمان به واتباعه، مثل الصلوات الخمس، وغيرها من الصلوات، ومثل الصيام والاعتكاف في المساجد ومثل أنواع الأذكار والأدعية والقراءة، ومثل الجهاد» ا.هـ.

= وكاتبه إذا علموا ذلك والواشمة والموشومة للحسن ولآوي الصدقة والمرتد أعرابياً بعد الهجرة ملعونون علىٰ لسان محمد ﷺ يوم القيامة.

سادساً: آثار هذه الخلوات على المتصوفة:

الخلوات من أسباب وقوع الصوفية في الحلول والاتحاد:

قال الشيخ: «ويضمون إلىٰ ذلك نوعاً من التصفية، مثل: ترك الشهوات البدنية، من الطعام والشراب والرياسة والخلوة، وغير ذلك من أنواع الزهادة المطلقة، والعبادة المطلقة، فيصلون أيضاً إلىٰ تأله مطلق، ومعرفة مطلقة بثبوت الرب ووجوده، ونحو ذلك من نحو ما يصل إليه أرباب القياس، ثم قد تتوارىٰ هذه المعرفة والعلم، بملابسة الأمور الطبيعية من الطعام والاجتماع بالناس، فإن سببها إنما هو ذلك التجرد، فإذا زالَ: زالَ، ولهذا قيل: كل حال أعطاكه الجوع فإنه يذهب بالشبع، كما قد تتوارىٰ معرفة الأُوْلىٰ المطلقة، بغفلة القلب عن تلك المقاييس النظرية، ولا ريب أن القياس يفضي إلىٰ معرفةٍ بحسب مقتضاه، وأن الرياضة والتأله يفضي إلىٰ معرفةٍ بحسب مقتضاه، لكن معرفةً مطلقةً بسبب قد يثبُتُ وقد يزول، وكثيراً ما يفضي إلىٰ الاتحاد والحلول والإباحة؛ وذلك لأنهم يجردون التأله عما لابد منه من صالح البشر، فإذا احتاجوا إليها أعرضوا عن التأله! فهم إما آلهة عند نفوسهم، وإما زنادقة، أو فساق» ا.هـ.

ونخلص مما سبق أن هذه الخلوات المبتدعة التي يفعلها كثير من المتصوفة ويعدونها من رياضات النفوس، ويزعمون أنهم بها يصلون إلىٰ حقيقة العبادة والطاعة، هي من أبواب الشر التي انتقل بها الصوفية من مجرّد التفرغ للعبادة إلىٰ القول بالحلول والاتحاد وسقوط التكاليف، وكانت هذه الخلوات طريقاً للشياطين للتلاعب بهؤلاء الجهال، حتىٰ ظنوا أنهم أصحاب الكرامات والخوارق، وما هذه الخوارق في الحقيقة إلا من تلاعب الشياطين وتخييلاتهم، كما تقدم بيانه من كلام الشيخ.



المبحث الثاني

الجوع، والسهر، والاحتفاء، والمجاهدات البدعية

تمهيد:

المتأمل في طرق المتصوفة للوصول إلىٰ حقيقة العبادة والقرب من اللَّه تعالىٰ، يجد أن أكثر طرقهم تقوم علىٰ رياضات بدعية غير شرعية، أو أن تكون في أصلها شرعية لكنهم يغلون فيها ويبالغون حتىٰ يقعوا في الابتداع.

ومن ذلك تشديد كثير من المتصوفة علىٰ أنفسهم، وشدة تقشفهم في إعطاء النفس حظوظها، ويؤدب أحدهم نفسه بالجوع الشديد، ومداومة السهر، وكثرة التعري والاحتفاء، وغير ذلك، وعند النظر في مجموع هذه المجاهدات نجد أنهم يزعمون أنهم بها يزهدون في الدنيا، ولا يريدون تدنيس أنفسهم بلذاتها، لذا يحسن بنا قبل أن ننظر فيما كتبه شيخ الإسلام حول هذه المجاهدات أن نستعرض شيئاً مما كتبه الشيخ حول معنىٰ الزهد وأنواعه.

والزهد في اللغة: ترك الشيء والإعراض عنه، والتزهيد في الشيء ضد الترغيب فيه، والشيء الزهيد: هو القليل الحقير.

والزهد اصطلاحاً: «الإعراض عن الشيء لاستقلاله واحتقاره وارتفاع الهمة عنه» ا.هـ.

وعرفه الصوفية بقولهم: الزهد في الشيء: قلة الرغبة فيه وإن شئت قلت الرغبة عنه، وفي اصطلاح أهل الحقيقة: بغض الدنيا والإعراض عنها، وقيل: ترك راحة الدنيا لراحة الآخرة، وقيل: أن يخلو قلبك مما خلت منه يدك.

أما ما ذكره الشيخ عن الزهد وأنواعه، فيمكن بيانه فيما يلي:

✍ **أولاً: بيَّن شيخ الإسلام أن الزهد نوعان: شرعي، وبدعي.**

أولاً: الزهد الشرعي: قال الشيخ: «قد كتبت في كراسة الحوادث فصلاً في: جماع الزهد والورع: وأن الزهد هو عما لا ينفع؛ إما لانتفاء نفعه، أو لكونه مرجوحاً لأنه مفوِّت لما هو أنفع منه، أو محصل لما يربو ضرُره علىٰ نفعه، وأما المنافع الخالصة أو الراجحة: فالزهد فيها حمق...

وأنا أذكر هنا تفصيل ذلك فأقول:

الزهد خلاف الرغبة، يقال: فلان زاهد في كذا وفلان راغب فيه، والرغبة هي من جنس الإرادة، فالزهد في الشيء انتفاء الإرادة له؛ إما مع وجود كراهته، وإما مع عدم الإرادة والكراهة، بحيث لا يكون لا مريداً له ولا كارهاً له، وكل من لم يرغب في الشيء ويريده فهو زاهد فيه.

وكما أن سبيل اللَّه يحمد فيه الزهد فيما زهَّد اللَّه فيه من فضول الدنيا فتحمد فيه الرغبة والإرادة لما حمد اللَّه إرادته والرغبة فيه، ولهذا كان أساس الطريق: الإرادة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء]، ونظائره متعددة.. **وهذا باب واسع، وإنما المقصود هنا: تميز الزهد الشرعي من غيره**، وهو الزهد المحمود، وتميز الرغبة الشرعية من غيرها، وهي الرغبة المحمودة؛ فإنه كثيراً ما يشتبه الزهد بالكسل والعجز والبطالة عن الأوامر الشرعية، وكثيراً ما تشتبه الرغبة الشرعية بالحرص والطمع والعمل الذي ضل سعي صاحبه...

وبهذا يتبين: أن الواجبات والمستحبات لا يصلح فيها زهد ولا

ورع، وأما المحرمات والمكروهات فيصلح فيها الزهد والورع، وأما المباحات فيصلح فيها الزهد دون الورع، وهذا القدر ظاهر تعرفه بأدنىٰ تأمل، وإنما الشأن فيما إذا تعارض في الفعل: هل هو مأمورٌ به؟ أو منهيٌ عنه؟ أو مباح؟ وفيما إذا اقترن بما جنسه مباح؛ ما يجعله مأموراً به أو منهياً عنه، أو اقترن بالمأمور به ما يجعله منيهاً عنه، وبالعكس، فعند اجتماع المصالح والمفاسد، والمنافع والمضار وتعرضها يحتاج إلىٰ الفرقان» ا.هـ.

وقال: «فثبت أن: **الزهد الواجب**: هو ترك ما يمنع عن الواجب من إرادة اللَّه والدار الآخرة.

والزهد المستحب: هو ما يشغل عن المستحب من أعمال المقربين والصديقين.

فظهر بذلك: أن المطلوب بالزهد فعل المأمور به من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه لولا كون الدنيا تشغل عن عبادة اللَّه والدار الآخرة لم يشرع الزهد فيها، بل كان يكون فعله وتركه سواء، أو يرجح هذا أو يرجح هذا ترجحاً دنيوياً.

الثاني: أنه إذا قُدِّر أن شخصين: أحدهما يريد الآخرة ويريد الدنيا، والآخر: زاهد في الدنيا وفي الآخرة، لكان الأول منهما مؤمناً محموداً، والثاني: كافراً ملعوناً، مع أن الثاني زاهد في الدنيا، والأول: طالب لها؛ لكن امتاز الأول بفعل مأمور مع ارتكاب محظور، والثاني: لم يكن معه ذلك المأمور به، فثبت أن فعل المأمور به من إرادة الآخرة: ينفع، والزهد بدون فعل هذا المأمور لا ينفع.

الثالث: المحمود في الكتاب والسنة إنما هو إرادة الدار الآخرة، والمذموم إنما هو من ترك إرادة الدار الآخرة واشتغل بإرادة الدنيا عنها، فأما مجرد مدح ترك الدنيا فليس في كتاب اللَّه ولا سنة

رسوله ﷺ، ولا تنظر إلىٰ كثرة ذم الناس الدنيا ذماً غير ديني فإن أكثر العامة إنما يذمونها لعدم حصول أغراضهم منها، فإنها لم تصفُ لأحد قط، ولو نال منها ما عساه أن ينال، وما امتلأت دارٌ حبرة إلا امتلأت عبرة، فالعقلاء يذمون الجهال الذين يركنون إليها، ويظنون بقاء الرياسة والمال وتناول الشهوات فيها، وهم مع هذا يحتاجون إلىٰ ما لا بد لهم منه منها، وأكثرهم طالب لما يذمه منها! وهؤلاء حقيقة ذمهم لها ذم دنيويّ لما فيها من الضرر الدنيويّ، كما يذم العقلاءُ التجارةَ والصناعةَ التي لا ربح فيها، بل فيها تعب، وكما تذم معاشرة من يضرك ولا ينفعك في التزويج بسيئة الخلق، ونحو ذلك من الأمور التي لا تعود مضرتها ومنفعتها إلا في الدنيا أيضاً.

وقد يقع الغلط في الزهد من وجوه كما وقع في الورع:

أحدها: أن قوماً زهدوا فيما ينفعهم بلا مضرة، فوقعوا به في ترك واجبات أو مستحبات، كمن ترك النساء واللحم، ونحو ذلك، وقد قال ﷺ: (**لكني أصوم وأفطر، وأتزوج النساء، وآكل اللحم، فمن رغب عن سنتي فليس مني**)[(١)].

والثاني: أن زُهدَ هذا أوقعه في فعل محظورات؛ كمن ترك تناول ما أبيح له من المال والمنفعة، واحتاج إلىٰ ذلك فأخذه من حرام، أو سأل الناس المسألة المحرمة، أو استشرف إليهم، والاستشراف مكروه.

والثالث: من زَهِد زُهْد الكسل والبطالة والراحة، لا لطلب الدار الآخرة بالعمل الصالح والعلم النافع، فإن العبد إذا كان زاهداً بطالاً: فسد أعظم فساد؛ فهؤلاء لا يعمرون الدنيا ولا الآخرة، كما قال عبد اللّٰه بن مسعود رضي الله عنه: (إني لأكره أن أرىٰ الرجل بطالاً، ليس

(١) رواه البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه.

في أمر الدنيا ولا في أمر الآخرة)[١]، وهؤلاء من أهل النار، وكما قال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه، عن عياض ابن حمار رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (**أهل النار خمسة**) فذكر منهم: (**الضعيف الذي لا زَبر له، الذين هم فيكم تبع، لا يبتغون أهلاً ولا مالاً**)[٢]، فمن ترك بزهده حسنات مأمور بها، كان ما تركه خيراً من زهده، أو فعل سيئات منهياً عنها، أو دخل في الكسل والبطالات، فهم من الأخسرين أعمالًا؛ ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف].

ومن زهد فيما يشغله عن الواجبات، أو يوقعه في المحرمات، فهو من المقتصدين أصحاب اليمين.

ومن زهد فيما يشغله عن المستحبات والدرجات، فهو من المقدمين السابقين» اهـ.

الجوع والسهر لا يُمدحان مطلقاً:

قال الشيخ أثناء كلامه عن وقوع فريق من المتصوفة في الفناء، وتعذيب فريق منهم أنفسهم للوصول إلىٰ الفناء: «ومن عظَّم مطلق السهر والجوع، وأمر بهما مطلقاً فهو مخطئ؛ بل المحمود السهر الشرعي، والجوع الشرعي، فالسهر الشرعي، كما تقدم، من صلاة، أو ذِكر، أو قراءة، أو كتابة علم، أو نظر فيه، أو درسه، أو غير ذلك من العبادات، والأفضل يتنوع بتنوع الناس، فبعض العلماء يقول: كتابة الحديث أفضل من صلاة النافلة، وبعض الشيوخ يقول: ركعتان أصليهما بالليل حيث لا يراني أحدٌ أفضلُ من كتابة مائة حديث،

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية، واه الطبراني في «الكبير» عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم عن عياض بن حمار رضي الله عنه.

وآخر من الأئمة يقول: بل الأفضل فعل هذا وهذا، والأفضل يتنوع بتنوع أحوال الناس...

وأما الأكل واللباس: فخيرُ الهدي هدي محمد ﷺ، وكان خلقه في الأكل أنه يأكل ما تيسر إذا اشتهاه، ولا يرد موجوداً، ولا يتكلف مفقوداً.. ولا يمتنع من طعام لما فيه من اللذة والحلاوة،.. **وكذلك اللباس**: كان يلبس القميص والعمامة، ويلبس الإزار والرداء، ويلبس الجبة والفروج، وكان يلبس من القطن والصوف، وغير ذلك،.. فهذه الطريق التي كان عليها رسول اللَّه ﷺ هي أعدل الطرق وأقومها.

والانحراف عنها إلىٰ وجهين: **قوم**: يسرفون في تناول الشهوات، مع إعراضهم عن القيام بالواجبات، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنعام]، **وقوم**: يحرمون الطيبات، ويبتدعون رهبانية لم يشرعها اللَّه تعالىٰ، ولا رهبانية في الإسلام، وقد قال تعالىٰ: ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة].. وأما مجرد تعذيب النفس والبدن من غير منفعة راجحة، فليس هذا مشروعاً لنا، بل أمَرنا اللَّهُ بما ينفعنا،.. فالإنسان إذا أصابه في الجهاد أو الحج أو غير ذلك، حرٌ، أو برد، أو جوع ونحو ذلك، فهو مما يُحمد عليه..» ا.هـ.

وذم الشيخ من جعل الجوع والسهر طريقاً لنيل المعارف أو حصول الأحوال:

فقال: «والناس لهم في طلب العلم والدين طريقان مبتدعان وطريق شرعي، فالطريق الشرعي هو: النظر فيما جاء به الرسول والاستدلال بأدلته.. وأما الطريقان المبتدعان: **فأحدهما**: طريق أهل الكلام البدعي والرأي البدعي.. **والثاني**: طريق أهل الرياضة والتصوف

والعبادة البدعية وهؤلاء منحرفون إلىٰ النصرانية الباطلة فإن هؤلاء يقولون إذا صفىٰ الإنسان نفسه.. فاضت عليه العلوم بلا تعلم وكثير من هؤلاء تكون عبادته مبتدعة؛ بل مخالفة لما جاء به الرسول ﷺ فيبقون في فساد من جهة العمل وفساد من نقص العلم حيث لم يعرفوا ما جاء به الرسول وكثير ما يقع من هؤلاء وهؤلاء وتقدح كل طائفة في الأخرىٰ وينتحل كل منهم اتباع الرسول.. وكذلك لو جاع وسهر وخلا وصمت وفعل ماذا عسىٰ أن يفعل لا يكون مهتديا إن لم يتعبد بالعبادات الشرعية وإن لم يتلق علم الغيب من جهة الرسول» ا.هـ.

وذمَّ الشيخ المتصوفة الذين يؤثرون الجوع والتعري وعدم النظافة، ويعدون ذلك من المقامات العالية، فقال أثناء بيانه لضلال فريق من النساك المتعبدة وخروجهم عن سنة سيد المرسلين:

«وأما من يشبه النصارىٰ، فمثل من يحسن الظن بمن لا يتطهر ولا يصلي، من المنسوبين إلىٰ الفقر والزهد والعبادة، مثل من يكون في مواضع الشياطين والنجاسات كالحمام والأتاتين[1] والمزابل، وهو متلوث بالبول والعذرة، ويعاشر الكلاب، ولا يتوضأ ولا يغتسل من الجنابة، بل ولا يصلي، أو يصلي بلا وضوء» ا. هـ.

وقال أثناء كلامه عن أبي طالب المكي، وما وقع في بعض كتبه من تجاوز: «ويذكر أحياناً عبادات بدعية، من جنس ما بالغ في مدح الجوع، هو وأبو حامد وغيرهما، وذكروا أنه يزن الخبز بخشب رطب كلما جف نقص الأكل» ا.هـ.

وخلاصة ما سبق أن المتصوفة لما تظاهروا بالزهد والإعراض عن الدنيا، ووقعوا في الزهد البدعي وتركوا التكسب وطلب الرزق وقعوا

---

(١) الأتاتين: جمع أتون، وهو: الحمام والجصاصة، والأتون أيضاً: الموقد.

في حيرة شديدة لأنهم أتوا ببدعة مرفوضة عقلاً وشرعاً، فاضطروا إلىٰ تكفف الناس وسؤالهم، فوقعوا في شر مما فروا منه.

هذا بالإضافة إلىٰ تركهم التجمل الشرعي في اللباس والبدن وغيرهما، فخالفوا هدي النبي ﷺ في ذلك.



المبحث الثالث

الأوراد، والأذكار

تمهيد:

ذِكْرُ اللَّه تعالىٰ عبادة من أعظم العبادات، وقد أمر اللَّه تعالىٰ المؤمنين بذكره في جميع الأحوال فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب].

ولكن إذا نظرنا في واقع الصوفية، وجدنا فريقاً غير قليل منهم يكثرون من ذكر اللَّه تعالىٰ، ولكن بأذكار وطرق مبتدعة، حتىٰ تفرقوا أحزاباً وفرقاً وصار لكل شيخ طريقة أذكار يخترعها لأتباعه يذكرون اللَّه تعالىٰ بها، ويرتب لهم الأجور عليها!!.

وقد انتشرت هذه الأذكار المبتدعة حتىٰ صدتهم عن ذكر اللَّه المشروع، وعن قراءة القرآن، وصار أحدهم يقيم علىٰ هذه الأذكار المبتدعة سنين عديدة من عمره، وهو يظن أنه علىٰ خير، وما أشبه حاله بمن قال اللَّه تعالىٰ فيهم: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨][(١)].

---

(١) من هذه الأذكار المبتدعة ما يسمىٰ بأحزاب الشاذلي، كحزب النصر وحزب البر وغيرهما، وحزب النصر هو أن تقول: «حم حم الأمر وجاء النصر فعلينا لا ينصرون، حم عسق حمايتنا مما نخاف، اللهم قنا شر الأسوء، ولا تجعلنا محلاً للبلوىٰ، اللهم أعطنا أمل الرجاء، ونور الإيمان يا هو يا هو يا هو» ا.هـ. مجموع الأوراد الكبير والأدعية والأحزاب والاستغاثات (ص: ١٤٥)، ومن ذلك قولهم: «إلهي اِسْتهْلك كليتي كليتي في كليتك، وامدد أوليتي بأوليتك، حتىٰ أشهد أوليتك في أوليتي، =

وقد بين الشيخ أحوال الصوفية في الذكر والأوراد، فيما يلي:

أولاً: غلوّ المتصوفة في الذكر وترقيق القلب جرّهم إلى القول بالحلول والاتحاد فقال أثناء كلامه عن الفناء:

«ومن هنا دخلت طائفة في الاتحاد والحلول، فأحدهم قد يذكر اللَّه حتىٰ يغلب علىٰ قلبه ذكر اللَّه، ويستغرق في ذلك فلا يبقىٰ له مذكور مشهود لقلبه إلا اللَّه، ويفنىٰ ذكرُه وشهودُه لما سواه، فيتوهم أن الأشياء قد فنيت، وأن نفسه فنيت، حتىٰ يتوهم أنه هو اللَّه، وأن الوجود هو اللَّه، ومن هذا الباب غَلَطُ أبىٰ يزيد ونحوه، حيث قال: ما في الجبة إلا اللَّه، وقد بسط هذا في غير هذا الموضع» ا.هـ.

ثانياً: ابتداعهم لأنواع من الذكر غير مشروعة، مثل الذكر بـ«الله.. الله»، أو: «هو.. هو»، ونحوهما:

قال الشيخ: «أفضل الذكر: (لا إله إلا اللَّه)، كما رواه الترمذي وابن أبىٰ الدنيا، وغيرهما، مرفوعاً إلىٰ النبي ﷺ أنه قال: (**أفضل الذكر لا إله إلا اللَّه وأفضل الدعاء الحمد للَّه**)(١)، ومن زعم أن هذا ذكر العامة، وأن ذكر الخاصة هو: الاسم المفرد، وذكر خاصة الخاصة هو: الاسم المضمر: فهم ضالون غالطون، واحتجاج بعضهم علىٰ ذلك بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام]، من أبين غلط هؤلاء؛ فإن الاسم هو مذكور في الأمر بجواب الاستفهام، وهو قوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾، أي: اللَّه الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسىٰ،

= وآخريتك في آخريتي، وظاهريتك في ظاهريتي، وباطنيتك في باطنيتي، وقابليتك في قابليتي، وأنت في أمنيتي، وهويتك في هويتي» ا.هـ.

(١) رواه الترمذي، وابن ماجة عن جابر بن عبد اللَّه ﷺ.

فالاسم مبتدأ، وخبره قد دل عليه الاستفهام، كما في نظائر ذلك تقول: من جارُه؟ فيقول: زيد، وأما الاسم المفرد مظهراً أو مضمراً فليس بكلام تام، ولا جملة مفيدة، ولا يتعلق به إيمان ولا كفر، ولا أمر ولا نهي، ولم يذكر ذلك أحد من سلف الأمة، ولا شرع ذلك رسول اللَّه ﷺ، ولا يعطي القلب بنفسه معرفة مفيدة، ولا حالاً نافعاً، وإنما يعطيه تصوراً مطلقاً، لا يحكم عليه بنفي ولا إثبات، فإن لم يقترن به من معرفة القلب وحاله ما يفيد بنفسه، وإلا لم يكن فيه فائدة.

والشريعة إنما تشرع من الأذكار ما يفيد بنفسه، لا ما تكون الفائدة حاصلة بغيره، وقد وقع بعض من واظب علىٰ هذا الذكر في فنون من الإلحاد، وأنواع من الاتحاد، كما قد بسط في غير هذا الموضع، وما يذكر عن بعض الشيوخ من أنه قال: أخاف أن أموت بين النفي والإثبات، حالٌ لا يقتدىٰ فيها بصاحبها؛ فإن في ذلك من الغلط ما لا خفاء به، إذ لو مات العبد في هذه الحال: لم يمت إلا علىٰ ما قصده ونواه؛ إذ الأعمال بالنيات، وقد ثبت أن النبي ﷺ أمر بتلقين الميت لا إله إلا اللَّه، وقال: (**من كان آخر كلامه لا إله إلا اللَّه دخل الجنة**)[1]، ولو كان ما ذكره محذوراً لم يلقن الميت كلمة يُخاف أن يموت في أثنائها موتاً غير محمود، بل كان يلقن ما اختاره من ذكر الاسم المفرد.

والذكر بالاسم المضمر المفرد: أبعد عن السنة، وأدخل في البدعة، وأقرب إلىٰ إضلال الشيطان؛ فإن من قال: يا هو.. يا هو، أو: هو هو، ونحو ذلك، لم يكن الضمير عائداً إلا إلىٰ ما يصوره قلبه، والقلب قد يهتدي وقد يضل، وقد صنف صاحب «الفصوص» كتاباً سماه: «كتاب الْهُوْ»!.

(١) رواه أبو داود عن معاذ بن جبل رضي الله عنه.

وزعم بعضهم أن قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]، معناه: وما يعلم تأويل هذا الاسم الذي هو: الْهُوْ، وقيل هذا، وإن كان مما اتفق المسلمون ـ بل العقلاء ـ علىٰ أنه من أبين الباطل، فقد يظن ذلك من يظنه من هؤلاء، حتىٰ قلت مرة لبعض من قال شيئاً من ذلك: لو كان هذا كما قلتَه لكُتِبت: وما يعلم تأويل «هو» منفصلة.

. . واللَّه تعالىٰ لا يأمر أحداً بذكر اسم مفرد، ولا شرع للمسلمين مفرداً مجرداً، والاسم المجرد لا يفيد الإيمان، باتفاق أهل الإسلام، ولا يؤمر به في شيء من العبادات، ولا في شيء من المخاطبات. . وكذلك ما شُرع للمسلمين في صلاتهم وأذانهم وحجهم وأعيادهم، من ذكر اللَّه تعالىٰ، إنما هو بالجملة التامة: كقول المؤذن: اللَّه أكبر، اللَّه كبر، أشهد أن لا إله إلا اللَّه، أشهد أن محمداً رسول اللَّه. . فجميع ما شرعه اللَّه من الذكر، إنما هو كلام تام، لا اسم مفرد، لا مظهر ولا مضمر، وهذا هو الذي يسمىٰ في اللغة: كلمة. .

والمقصود هنا: أن المشروع في ذكر اللَّه سبحانه وتعالى، هو ذكره بجملة تامة، وهي المسمىٰ بالكلام، والواحد منه بالكلمة» ا.هـ.

✍ ثالثاً: بعض المتصوفة يرغب عن الأذكار الشرعية، ويشتغل بما استحدثه بعض المشايخ من أذكار:

قال الشيخ: «الدعاء من أفضل العبادات؛ وقد نهانا اللَّه عن الاعتداء فيه، . . والذي يعدل عن الدعاء المشروع إلىٰ غيره، وإن كان من أحزاب بعض المشايخ، الأحسن له أن لا يفوته الأكمل الأفضل، وهي: الأدعية النبوية، فإنها أفضل وأكمل، باتفاق المسلمين، من الأدعية التي ليست كذلك، وإن قالها بعض الشيوخ، فكيف يكون في عين الأدعية ما هو خطأ أو إثم أو غير ذلك؟.

ومن أشد الناس عيباً: من يتخذ حزباً ليس بمأثور عن النبي ﷺ، وإن كان حزباً لبعض المشايخ، ويدع الأحزاب النبوية التي كان يقولها سيد بني آدم، وإمام الخلق وحجة اللَّه علىٰ عبادة، واللَّه أعلم» ا.هـ.

ونخلص مما سبق إلىٰ أن المتصوفة وقعوا في عدة أنواع من الابتداع في مسائل الأذكار والأوراد، ومن ذلك ابتداعهم للذكر بالاسم المفرد «اللَّه»، وابتداعهم لأذكار لم ترد عن النبي ﷺ، وتحديدهم كيفيات وأعداد وصور للتعبد بهذه الأذكار، وكل هذا من الابتداع، وخير الهدي هدي محمد ﷺ.

وقد تقدم بيان صور من هذا الابتداع، والرد عليهم فيه.



المبحث الرابع

الأحوال المبتدعة: السُّكْر، الوَلَه، الجنون

تمهيد:

الأحوال: جمع حال، ونعني به هنا: ما يعتري بعض المتصوفة أثناء الذكر أو السماع، أو عند ذكر الجنة والنار والثواب والعقاب، من: صعق(١) وسُكْر، وغَيْبة عقل(٢) ونحو ذلك، والصوفية يعدون هذه الأحوال من أكمل المقامات، ومن أصابته صار عندهم من الأولياء أصحاب الكرامات.

قال الشيخ أثناء كلامه عن مدح الصوفية للسكر وزوال العقل: «وكثير من المتصوفة يذمون العقل ويعيبونه، ويرون أن الأحوال العالية والمقامات الرفيعة لا تحصل إلا مع عدمه، ويقرون من الأمور بما يكذب به صريح العقل، ويمدحون السكر والجنون والوله، وأموراً من المعارف والأحوال التي لا تكون إلا مع زوال العقل والتمييز، كما يصدقون بأمور يعلم بالعقل الصريح بطلانها ممن لم يعلم صدقه، وكلا الطرفين مذموم» ا.هـ.

وقال أثناء كلامه عن الأحوال وآثارها: «.. لما عُرف من حال الشبلي، وأنه كان يغلب عليه الوجد، حتىٰ يزول عقله، وتحلق لحيته، ويذهبوا به إلىٰ المارستان، ويسقط عنه التمييز بين الحق

---

(١) معنىٰ الصعق عند الصوفية هو: الفناء في اللّٰه عند التجلي الذاتي الوارد بسبحات يحترق ما سوىٰ اللّٰه فيها.

(٢) معنىٰ الغيبة عند الصوفية: الغيبة عن الأشياء بمشاهدة الحق، وهي بهذا التعريف قريبة المعنىٰ مما يسمونه الفناء.

والباطل» ا.هـ.

وقال: «والنوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان فيه وَلَهٌ، وقد مات بأجمة قصب لما غلبه الوجد حتىٰ أزال عقله، ومن هذه حاله لا يصلح أن يُتبع في حال لا يوافق أمر اللَّه ورسوله» ا.هـ.

والأحوال التي تطرأ علىٰ القلب عند وجود ما يُخوِّفه أو يُرَقِّقه، نوعان:

١ ـ **أحوال رحمانية**: وهي ما يصيب أهل الإيمان من دمع العين ووجل القلب عند سماع القرآن.

٢ ـ **أحوال شيطانية**: مثل ما يعرض لبعض المتصوفة عند السماع.

أما الأحوال الرحمانية: فقد بينها الشيخ بقوله: «كان الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ يجتمعون أحياناً: يأمرون أحدهم يقرأ، والباقون يستمعون، وكان عمر بن الخطاب يقول: يا أبا موسىٰ ذكرنا ربنا، فيقرأ وهم يستمعون(١)، وكان من الصحابة من يقول: اجلسوا بنا نؤمن ساعة(٢)، وصلَّىٰ النبي ﷺ بأصحابه التطوع في جماعة مرات، وخرج علىٰ الصحابة من أهل الصفة وفيهم قارئ يقرأ فجلس معهم يستمع، وما يحصل عند السماع والذكر المشروع من وجل القلب ودمع العين واقشعرار الجسوم فهذا أفضل الأحوال التي نطق بها الكتاب والسنة، وأما الاضطراب الشديد والغشي والموت والصيحات، فهذا إن كان صاحبه مغلوباً عليه: لم يُلَم عليه، كما قد كان يكون في التابعين

---

(١) رواه عبدالرزاق في المصنف عن أبي سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم عن معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ووصله أحمد وأبو بكر أيضاً بسند صحيح إلىٰ الأسود بن هلال قال: قال لي معاذ ابن جبل أجلس بنا نؤمن ساعة» ا. هـ.

ومن بعدهم، فإن منشأة قوة الوارد علىٰ القلب مع ضعف القلب، والقوة والتمكن أفضل؛ كما هو حال النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم، وأما السكون قسوةً وجفاءً: فهذا مذموم لا خير فيه» ا.هـ.

وقال: «ولكن من لم يزل عقله مع أنه قد حصل له من الإيمان ما حصل لهم، أو مثله، أو أكمل منه، فهو أفضل منهم، وهذا حال الصحابة رضي الله عنهم، وهو حال نبينا ﷺ، فإنه أُسريَ به إلىٰ السماء وأراه اللَّه ما أراه، وأصبح كبائت لم يتغير عليه حاله، فحاله أفضل من حال موسىٰ ﷺ الذي خر صعقاً لما تجلىٰ ربه للجبل، وحالُ موسىٰ حالٌ جليلة علية فاضلة: لكن حال محمد ﷺ أكمل وأعلىٰ وأفضل» ا.هـ.

أما الأحوال الشيطانية: فقد بين الشيخ أنواع الصوفية في أحوالهم الشيطانية، وفصَّل أحكامهم في أحوالهم بحسب اختلاف هذه الأحوال، واختلاف من وقعت منه، ويمكن بيان ما ذكره فيما يلي:

✍ أولاً: بداية ظهور الأحوال، عموماً، من غشيٍ وصعق وموت ونحوها، واختلاف الصحابة ومَنْ بعدَهم في الحكم عليها:

قال الشيخ أثناء كلامه عن نشأة التصوف وبداية ظهور المبالغات في الزهد والتخشّع والبكاء والنحيب: «**غالب ما يُحكىٰ من المبالغة في هذا الباب إنما هو عن عُبّاد أهل البصرة، مثل حكاية من مات، أو غشي عليه من سماع القرآن ونحوه، كقصة زرارة بن أوفىٰ قاضي البصرة، فإنه قرأ في صلاة الفجر: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨﴾ [المدثر]، فخرَّ ميتاً، وكقصة أبي جهير الأعمىٰ الذي قرأ عليه صالح المري، فمات، وكذلك غيره ممن رُوِي أنهم ماتوا باستماع قراءته، وكان فيهم طوائف يُصعقون عند سماع القرآن، ولم يكن في الصحابة من هذه حاله.**

فلما ظهر ذلك: أنكر ذلك طائفةٌ من الصحابة والتابعين: كأسماء بنت أبي بكر، وعبد اللّٰه بن الزبير، ومحمد بن سيرين، ونحوهم، والمنكرون لهم مأخذان: منهم: من ظن ذلك تكلفاً وتصنعاً، يُذكر عن محمد بن سيرين أنه قال: ما بيننا وبين هؤلاء الذين يُصعَقون عند سماع القرآن إلا أن يُقرأَ علىٰ أحدهم وهو علىٰ حائط، فإن خرَّ: فهو صادق، ومنهم: من أنكر ذلك؛ لأنه رآه بدعة مخالفاً لما عُرف من هدي الصحابة، كما نقل عن أسماء وابنها عبد اللّٰه، والذي عليه جمهور العلماء: أن الواحد من هؤلاء إذا كان مغلوباً عليه: لم يُنكر عليه، وإن كان حال الثابت أكمل منه، ولهذا لما سئل الإمام أحمد عن هذا، فقال: «قُرئَ القرآن علىٰ يحيىٰ بن سعيد القطان فغُشِي عليه ولو قدر أحدٌ أن يدفع هذا عن نفسه، لدفعه يحيىٰ بن سعيد، فما رأيت أعقل منه، ونحو هذا، وقد نُقل عن الشافعي أنه أصابه ذلك، . . وبالجملة: فهذا كثير ممن لا يستراب في صدقه، لكن الأحوال التي كانت في الصحابة هي المذكورة في القرآن، وهي: وجل القلوب، ودموع العين، واقشعرار الجلود، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال]. .

وقد يَذُمُّ حالَ هؤلاء: من فيه من قسوة القلوب، والرين عليها، والجفاء عن الدين ما هو مذموم، وقد فعلوا، ومنهم: من يظن أن حالهم هذا أكمل الأحوال وأتمها وأعلاها، وكلا طرفي هذه الأمور ذميم.

بل المراتب ثلاث:

أحدها: حال الظالم لنفسه الذي هو قاسي القلب لا يلين للسماع والذكر، وهؤلاء فيهم شبهٌ من اليهود، قال اللّٰه تعالىٰ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ

قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

والثانية: حال المؤمن التقيّ: الذي فيه ضعف عن حمل ما يَرِد علىٰ قلبه، فهذا الذي يُصعق صَعق موت، أو صعق غشي، فإن ذلك إنما يكون لقوة الوارد وضعف القلب عن حمله، . . أو كان أحدهم مغلوباً علىٰ ذلك، فإذا كان لم يصدر منه تفريط ولا عدوان، لم يكن فيه ذنب فيما أصابه، فلا وجه للريبة، كمن سمع القرآن السماع الشرعي، ولم يفرط بترك ما يوجب له ذلك، وكذلك ما يرد علىٰ القلوب مما يسمونه: السكر، والفناء، ونحو ذلك من الأمور التي تُغيِّب العقل بغير اختيار صاحبها، فإنه إذا لم يكن السبب محظوراً لم يكن السكران مذموماً بل معذوراً فإن السُّكْران بلا تمييز، وكذلك قد يحصل ذلك بتناول السُّكْر من الخمر والحشيشة، فإنه يحرم بلا نزاع بين المسلمين(١)، وقد يحصل السكر بسبب لا فعل للعبد فيه، كسماعٍ لم يقصده يهيج قاطنه ويحرك ساكنه، ونحو ذلك، وهذا لا ملام عليه فيه، وما صدر عنه في حال زوال عقله فهو فيه معذور؛ لأن القلم مرفوع عن كل من زال عقله، بسبب غير محرم كالمغمىٰ عليه والمجنون، ونحوهما» ا. هـ.

ثانياً: الصوفية يعدون زوال العقل بالأحوال من المقامات العالية، وقد ذكر الشيخ، هذه المسألة:

□ مسألة زوال العقل بالأحوال، هل هو ممدوح أم مذموم؟ وفصل الكلام في ذلك فقال:

(١) لم يذكر شيخ الإسلام المرتبة الثالثة لأنها مفهومة من السياق، وهي حال المؤمن التقي الذي قوي قلبه علىٰ تحمل الآيات والوعد والوعيد، فلا يصيبه الغشي ولا الصرع أثناء القراءة.

«فصلٌ: ومما يناسب هذا الباب قولهم: (فلان يُسَلَّم إليه حاله) أو: (لا يُسَلَّم إليه حاله)؛ فإن هذا كثيراً ما يقع فيه النزاع فيما قد يصدر عن بعض المشايخ والفقراء والصوفية، من أمور يقال: إنها تخالف الشريعة، فمن يرىٰ أنها منكرة، وأن إنكار المنكر من الدين، يُنكر تلك الأمور، وينكر علىٰ ذلك الرجل، وعلىٰ من أحسن به الظن، ويبغضه ويذمه ويعاقبه، ومن رأىٰ ما في ذلك الرجل من صلاح وعبادة، كزهد وأحوال وورع وعلم، لا ينكرها؛ بل يراها سائغة أو حسنة، أو يُعرض عن ذلك.. ولا حمد ولا ذم، ولا ثواب ولا عقاب، وبيان ذلك: **أن ذلك الأمر الصادر عنه سواء كان قولاً أو فعلاً إذا علم أنه مخالف للكتاب والسنة بحيث يكون قولاً باطلاً أو عملاً محرماً فإنه يعذر في موضعين:**

أحدهما: عدم تمكنه من العلم به.

والثاني: عدم قدرته علىٰ الحق المشروع.

مثال الأول: أن يكون صاحب الحال مَوَلَّهاً مجنوناً قد سقط عنه القلم، فهذا إذا قيل فيه: يُسَلَّم له حاله، بمعنىٰ أنه لا يُذم ولا يعاقب، لا بمعنىٰ تصويبه فيه، كما يقال في سائر المجانين، فهو صحيح، وإن عني به: أن ذلك القول: صواب، فهذا خطأ، وكذلك إذا كان الحال صادراً عنه باجتهاد، كمسائل الاجتهاد المتنازع فيها بين أهل العلم والدين، فإن هذا إذا قيل: يُسَلَّم إليه حاله، كما يقال: يُقَرُّ علىٰ اجتهاده، بمعنىٰ: أنه لا يُذَمُّ ولا يعاقب، فهو صحيح.

وأما إذا قيل ذلك، بمعنىٰ: أنه صواب، أو صحيح، فلا بد من دليل علىٰ تصويبة،..

ومثال الثاني ـ عدم قدرته ـ: أن يرد عليه من الأحوال ما يضطره إلىٰ أن يخرق ثيابه، أو أن يلطم وجهه، أو يصيح صياحاً منكراً،

أو يضطرب اضطراباً شديداً، فهذا: إذا عُرف أن سبب ذلك لم يكن محرماً، وأنه مغلوب عليه، سُلِّم إليه حاله.

وإن شُكَّ هل هو مغلوب أو متصنع: فإن عُرف منه الصدق: قيل هذا يسلم إليه حاله، وإن عرف كذبه: أُنكر عليه، وإن شُكَّ فيه: تُوُقِّف في التسليم والإنكار، حتىٰ يتبين أمره. . .

فجِماعُ هذا: أن هذه الأمور تُعطىٰ حقها من الكتاب والسنة؛ فما جاء به الكتاب والسنة من الخبر والأمر والنهي وجب اتباعه، ولم يلتفت إلىٰ من خالفه كائناً من كان، ولم يجُزْ اتباع أحد في خلاف ذلك، كائناً من كان، كما دل عليه الكتاب والسنة وإجماع الأمة من اتّباع الرسول ﷺ وطاعته، وأن الرجل الذي صدر عنه ذلك يُعطىٰ عذره حيث عذرته الشريعة، بأن يكون مسلوب العقل، أو ساقط التمييز، أو مجتهداً مخطئاً اجتهاداً قولياً أو عملياً، أو مغلوباً علىٰ ذلك الفعل أو الترك؛ بحيث لا يمكنه ردُّ ما صدر عنه من الفعل المنكر، بلا ذنب فعله، ولا يمكنه أداء ذلك الواجب، بلا ذنب فعله، ويكون هذا الباب نوعه محفوظاً، بحيث لا يتبع ما خالف الكتاب والسنة، ولا يجعل ذلك شِرعةً ولا منهاجاً بل لا سبيل إلىٰ اللَّه ولا شِرعة إلا ما جاء به محمد رسول اللَّه ﷺ. . . » اهـ.

✍ ثالثاً: هل يُعذر أحد من أصحاب الأحوال إذا وقع منه السكر أو الغشيان والوله؟

قال الشيخ: «فالأحوال التي تَرِدُ علىٰ العباد وأهل المعرفة والزهاد ونحوهم، . . **فهؤلاء يقال فيهم**: إن كان زوال ذلك بسبب غير محرم فلا حرج عليهم فيما يتركونه من الواجبات، ويفعلونه من المحرمات، . . كما يقال في المجتهد المخطئ، . . وإن كان

زوال ذلك بسبب محرم استحقوا الذم والعقاب علىٰ ما يتركونه من واجب، ويفعلونه من محرم.

مثال الأول: من يسمع القرآن علىٰ الوجه المشروع، فهاج له وجد يحبه، . . أو اضطرب اضطراباً كثيراً، فتولد عن ذلك تركُ صلاة واجبة، أو تعدي علىٰ بعض الناس، فإن هذا معذور في ذلك، فإن هذا في هذه الحال بمنزلة عقلاء المجانين المولَّهين الذين حصل لهم الجنون، مع أنهم من الصالحين. . ولهذا كان هذا الصنف، والذي قبله موجوداً في التابعين ومن بعدهم، لا سيما في عُبّاد البصريين؛ فإن فيهم من مات من سماع القرآن، كزرارة بن أوفىٰ، وأبي جهير الضرير وغيرهما. . وأما الصحابة فإن حالهم كان أكمل من أن يكون فيهم مجنون أو مصعوق، . .

ومثال الثاني: ما قد يحصل عند سماع المكاء والتصدية لكثير من أهل السماع، فإنه قد ينشد أشعاراً فيها ما يخالف الشرع بأصوات مخالفة للشرع، ويكون الإنسان فيه استعداد، فيوجب ذلك اختلاطاً وزوال عقل حتىٰ يقتل بعضهم بعضاً، إما ظاهراً، وإما باطناً، بالهمة والقلوب، ويوجب أيضاً من ترك واجبات الشريعة، ومن الاعتداء علىٰ المؤمنين في الدين والدنيا ما اللَّه به عليم» اهـ.

✍ رابعاً: الأحوال غالباً ما تجرُّ إلى القول بالحلول والاتحاد:

قال الشيخ: «فصلٌ: وقد يقع بعضُ من غلب عليه الحال في نوع من الحلول أو الاتحاد؛ فإن الاتحاد فيه حق وباطل، لكن لما ورد عليه ما غيب عقله، أو أفناه عما سوىٰ محبوبه، ولم يكن ذلك بذنب منه: كان معذوراً غير معاقب عليه، ما دام غير عاقل، فإن القلم رفع عن المجنون حتىٰ يفيق، وإن كان مخطئاً في ذلك كان داخلاً في قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]» ا. هـ.

ونخلص مما سبق أن الأحوال المبتدعة التي تظهر من المتصوفة، قد فتحت باباً من الزندقة والشرّ، والقول بالحلول والاتحاد، وقد اتخذ هؤلاء الصوفية هذه الأحوال والتظاهر بها طريقاً إلىٰ تحقيق شهواتهم وتحصيل ما يريدون من العوامّ بناءً علىٰ أنهم أولياء وأحوالهم تسلَّم لهم.

وخير الهدي هدي محمد ﷺ، ولم يؤثر عنه ﷺ ولا عن أصحابه الكرام ﷺ أنهم صدر منهم مثل هذه الأحوال، وقد تبين لنا من كلام شيخ الإسلام وردّه عليهم ما يتضح به الحق لطالبه.



الفصل الثاني: آراؤه في معالم الطريق الصوفي

المبحث الأول

المريد وآدابه

ما حكاه الشيخُ عن المتصوفة من آداب المريد، وأحوال المريدين مع مشايخهم، يمكن بيانه فيما يلي:

أولاً: سبب تسمية المريد مريداً: المريد: مشتقٌ من الإرادة، وهي طلب الوصول إلىٰ الغاية:

قال الشيخ: «وأهل الزهد يعظمون الإرادة والمريد وطريق أهل الإرادة فهؤلاء يبنون أمرهم علىٰ الإرادة» ا.هـ.

ثانياً: ليس من الدين الانتسابُ إلىٰ شيخ معين دون غيره، بل ليس من شرط التدين أن يكون لك شيخ: قال الشيخ: «فلا ريب أن الناس يحتاجون من يتلقون عنه الإيمان والقرآن، كما تلقىٰ الصحابة ﵃ ذلك عن النبي ﷺ، وتلقاه عنهم التابعون،.. وليس لأحد أن ينتسب إلىٰ شيخ يوالي علىٰ متابعته، ويعادي علىٰ ذلك؛ بل عليه أن يوالي كلَّ من كان من أهل الإيمان» ا.هـ.

وقال الشيخ: «وبعض المتصوفة: المريدُ يعتقد أن شيخه أكمل شيخ علىٰ وجه الأرض، وطريقته أفضل الطرق، وكلاهما انحراف» ا.هـ.

ثالثاً: من آداب المريد: الإعراض عن طلب العلم!

قال الشيخ: «وأهل العبادات البدعية يزَيِّن لهم الشيطان تلك العبادات، ويُبغِّضُ إليهم السبل الشرعية، حتىٰ يبغضهم في العلم والقرآن والحديث، فلا يحبون سماع القرآن والحديث ولا ذِكره،

وقد يُبغِّض إليهم حتىٰ الكتاب، فلا يحبون كتاباً ولا من معه كتاب، ولو كان مصحفاً أو حديثاً، كما حكىٰ النصرباذي: «أنهم كانوا يقولون: يدع علم الخِرَق ويأخذ علم الورق! قال: وكنت أستر ألواحي منهم، فلما كبرت احتاجوا إلىٰ علمي«.. وهم من أرغب الناس في السماع البدعي ـ سماع المعازف ـ ومن أزهدهم في السماع الشرعي ـ سماع آيات اللَّه تعالىٰ ـ.. وقد يظنون أنهم يحصل لهم بطريقهم أعظم مما يحصل في الكتب» ا.هـ.

رابعاً: من آداب المريد: اتخاذ صورة جميلة يتعلق بها، ويجمع قلبه عليها:

قال الشيخ: «طائفة من المتفلسفة والمتصوفة تأمر بذلك وتثنىٰ عليه لما فيه زعموا من إصلاح النفس ورياضتها وتهذيب الأخلاق واكتساب الصفات المحمودة من السماحة والشجاعة والعلم والفصاحة والاختيال، ونحو ذلك من الأمور حتىٰ أن طائفة من فلاسفة الروم والفرس ومن اتبعهم من العرب تأمر به وكذلك طائفة من المتصوفة حتىٰ يقول أحدهم ينبغي للمريد أن يتخذ له صورة يجتمع قلبه عليها ثم ينتقل منها إلىٰ اللَّه وربما قالوا: إنهم يشهدون اللَّه في تلك الصورة ويقولون هذه مظاهر الجمال» ا.هـ.

خامساً: من آداب المريد: أن يشتغل بالذكر المفرد: اللَّه.. اللَّه، لتتنزل المعارف علىٰ قلبه:

قال الشيخ: «أمروا المريد أن يُفرِّغَ قلبَه من كل شيء، حتىٰ قد يأمروه أن يقعد في مكان مظلم ويغطي رأسه! ويقول: اللَّه.. اللَّه! وهم يعتقدون أنه إذا فرَّغ قلبه استعد بذلك، فينزل علىٰ قلبه من المعرفة ما هو المطلوب، بل قد يقولون: إنه يحصل له من جنس ما يحصل للأنبياء، ومنهم من يزعم أنه حصل له أكثر مما حصل للأنبياء» ا.هـ.

سادساً: من آداب المريد: أن يستغيث بشيخه عند نزول الشدائد!!

قال الشيخ: «يروىٰ عن بعضهم، أنه قال: قبر معروف التِّرياقُ المجرَّب، وقال بعضهم: فلان يُدعىٰ عند قبره، وقول بعض الشيوخ لمريده: إذا كانت لك حاجة إلىٰ اللَّه فاستغث بي، أو قال: استغث عند قبري، ونحو ذلك» ا. هـ[1].

سابعاً: وصية بعض المشايخ للمريدين بوصايا غير شرعية، كقول بعضهم: أيّ مريد لي، ترك في النار أحداً فأنا منه بريء!!

قال الشيخ: «كثير من السالكين سلكوا في دعوىٰ حب اللَّه أنواعاً من أمور الجهل بالدين، إما من تعدي حدود اللَّه، وإما من تضييع حقوق اللَّه، وإما من ادّعاء الدعاوىٰ الباطلة التي لا حقيقة لها، كقول بعضهم: أي مريد لي ترك في النار أحداً، فأنا منه بريء، فقال الآخر: أي مريد لي ترك أحداً من المؤمنين يدخل النار، فأنا منه بريء، فالأول: جعل مريدَه يُخرج كلَّ من في النار، والثاني: جعل مريده يمنع أهل الكبائر من دخول النار» ا. هـ.

ونخلص مما سبق من كلام شيخ الإسلام حول المريد وآدابه، وتعلق المتصوفة بشيوخهم وتعظيمهم في نفس المريد حتىٰ يكون كل ما يفعله الشيخ هو عند المريد صواب لا يحتمل الخطأ، ويصبح مقياس الحق والباطل عند المريد ليس الكتاب والسنة وإنما كلام الشيخ وآرائه!!.

ولا شك أن مثل هذا الاعتقاد بالمشايخ من الغلوّ الممنوع، وقد تقدم كلام شيخ الإسلام في الرد عليهم.



---

(١) الاستغاثة (١/٣٣٤).

المبحث الثاني

العهد، والبيعة، والتلقين

✍ **تمهيد:**

لم يكن أصحاب رسول اللَّه ﷺ متفرقين أوزاعاً، وما كوَّنوا لأنفسهم جماعات منقسمة يأخذون علىٰ أتباعهم فيها العهود والمواثيق، أو يُربُّونهم علىٰ طرق يلقنونهم فيها التعاليم والآداب، وإنما كانت بيعتهم وعهودهم علىٰ اتباع الكتاب والسنة، ويلقنونها أتباعهم حفظاً وعملاً وتعليماً، وعلىٰ هذا النهج القويم سار التابعون ومن تبعهم بإحسان، إلىٰ أن جاء زمان نبتت فيه نابتة الابتداع والفرقة، وغلا قومٌ من المبتدعة في مشايخهم، ومنحوهم حق التشريع، وصار الطالب المريد يبايع(١) شيخه علىٰ الطريقة ويعاهده علىٰ لزومها، ويجلس مع الشيخ الساعات الطوال يلقِّنه(٢) أصول الطريقة وآدابها.

وقد عرض شيخ الإسلام، مذهب الصوفية في هذه الطرق والآداب

---

(١) معنىٰ البيعة عند الصوفية: قد عرّفها أحد أتباع الطريقة الصوفية الختمية بأنها: «الالتزام أمام الشيخ المرشد باتباع آداب وأذكار معينة لنيل رضوان اللَّه..» ثم قال هذا الصوفي الختمي: «وبيعة الطريقة أن تقول: اللهم إني تبت إليك، ورضيت بسيدي السيد محمد عثمان الميرغني شيخاً لي في الدنيا والآخرة.. ومعنىٰ شيخاً لي في الدنيا والآخرة يتضح لك من آية واحدة من القرآن، وهو قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١]» ا. هـ

(٢) مراد المتصوفة بالتلقين في الطرق الصوفية: أن يفهِّم الشيخُ المريدَ الطريقة الصوفية، ويلقِّنه تعاليمها وآدابها، فالشيخ بعد أن يأخذ العهد والبيعة من المريد يبدأ في تلقينه الأصول والتعاليم.

التي يسلكها المتصوفة، وبين ما فيها من خلل وضلال، ويمكن بيان ما ذكره الشيخ فيما يلي:

بيَّن الشيخ أن ما يتَّبعه فريق من الصوفية من عقد الأخوة وما يشترطونه فيه من شروط غير شرعية، هو أمر باطل لا أساس له في الشريعة، فقال: «وأما عقد الأخوة بين الناس في زماننا، فإن كان المقصود منها التزام الأخوة الإيمانية، التي أثبتها اللَّه بين المؤمنين بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].. فالحقوق واجبة بنفس الإيمان، والتزامها بمنزلة التزام الصلاة والزكاة والصيام والحج، والمعاهدة عليها كالمعاهدة علىٰ ما أوجب اللَّه ورسوله، وهذه ثابتة لكل مؤمن علىٰ كل مؤمن، وإن لم يحصل بينهما عقد مؤاخاة.. **وأما الشروط التي يلتزمها كثير من الناس في السماع وغيره**، مثل أن يقول: علىٰ المشاركة في الحسنات، وأيُّنا خلص يوم القيامة خلّص صاحبَه، ونحو ذلك، فهذه كلها شروط باطلة، فإن الأمر يومئذ للَّه، هو: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [الانفطار: ١٩]» ا. هـ.

وبهذا البيان الموجز من كلام الشيخ حول ما ابتدعه فريق من المتصوفة من العهد، والميثاق، والبيعة علىٰ أمور غير شرعية، يتضح أن غلوّ الصوفية في مشايخهم جرّهم إلىٰ هذا النوع من الابتداع، فأصبح المشايخ المتبوعين يلزِمون اتباعهم بأمور لم تلزمهم بها الشريعة، ويظن المريد أن ما أُخِذ عليه من عهد وميثاق هو أمر لازم لا يملك أن يخالفه أو ينقض عهده وميثاقه الذي عقده مع شيخه.

وما أشبه حال هؤلاء بحال الذين قال اللَّه تعالىٰ فيهم: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورىٰ: ٢١].



المبحث الثالث

الخِرَق، والمرقَّعات، والتعرِّي

✍ **تمهيد:**

لبس الخرق والمرقعات، والتعري، من شعارات الصوفية التي يعدونها من مظاهر التصوف التي لا يستغني عنها صوفي، والخرق جمعُ خرقة، وهي شعار صوفي، يطلقه الصوفية ويعنون به قطعة الثوب الممزقة التي يَلبِسُها الصوفي إظهاراً لفقره وخشونته، وغالباً ما يُلبِسُها الشيخُ مُريدَه علامة التفويض والتسليم، ولا يمنحها إياه إلا بعد أن يقضي مرحلة رياضية خاصة، ولم يكن للخرقة في البداية لونٌ ثابت معيّن، ثم صارت كثير من الطرق تختار لوناً معيّناً.

ويحرص بعض الصوفية علىٰ لبس الثياب المرقعة، إظهاراً للزهد والتقشف، بل وصل الغلوّ بفريق من المتصوفة إلىٰ التعري من الثياب، وإظهار العورة، ويعدون هذا التعري من الكرامات.

وقد ناقش الشيخُ هذه البدع والضلالات، ويمكن إجمال ما ذكره الشيخ، فيما يلي:

أولاً: بيَّن الشيخ أنه لم يكن من هدي النبي ﷺ ترك اللباس، أو التعري والتبذل تزهداً وتعبداً، بل كان يحب الزينة ويلبس ما جرت عادة الناس بلبسه، من القميص والعمامة، فمن ترك شيئاً من ذلك زهداً وعبادة فهو علىٰ غير السنة.

فقال مبيناً ذلك: «**الأكل واللباس:** فخير الهدىٰ هدىٰ محمد ﷺ، **وكان خلقه في الأكل:** أنه يأكل ما تيسر. . **وكذلك اللباس:** كان

يلبس القميص والعمامة.. لبس في السفر جبة صوف،.. فسنته في ذلك تقتضي أن يلبس الرجل ويطعم، مما يسره اللَّه ببلده من الطعام واللباس، وهذا يتنوع بتنوع الأمصار.. **فهذه الطريق التي كان عليها رسول اللَّه ﷺ: هي أعدل الطرق وأقومها.**

والانحراف عنها إلىٰ وجهين: قوم: يُسرفون في تناول الشهوات، مع إعراضهم عن القيام بالواجبات، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف].. **وقوم**: يحرمون الطيبات، ويبتدعون رهبانية لم يشرعها اللَّه تعالىٰ، ولا رهبانية في الإسلام، وقد قال تعالىٰ: ﴿لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [المائدة]..

وأما مجرد تعذيب النفس والبدن: من غير منفعة راجحة، فليس هذا مشروعاً لنا، بل أمرنا اللَّه بما ينفعنا، ونهانا عما يضرنا.. قال: (**هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فاستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا**)(١).. فالإنسان إذا أصابه في الجهاد أو الحج، أو غير ذلك، حرٌ أو بردٌ أو جوعٌ، ونحو ذلك، فهو مما يحمد عليه؛ قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾ [التوبة].. **وأما مجرد بروز الإنسان للحر والبرد بلا منفعة شرعية**: واحتفاؤه وكشف رأسه، ونحو ذلك مما يظن بعض الناس أنه من مجاهدة النفس، فهذا إذا لم يكن فيه منفعة للإنسان وطاعة لِلَّه فلا خير فيه، بل قد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ: رأىٰ رجلاً قائماً في الشمس، فقال: (ما هذا؟) قالوا: هذا أبو إسرائيل، نذر أن يقوم في الشمس، ولا يستظل ولا يتكلم،

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ويصوم، فقال: (مروه فليجلس، وليستظل، وليتكلم، وليتم صومه)[١]» ا. هـ.

وقال الشيخ: «**فأما مَن عَمَد إلىٰ ثوب صحيح فمزَّقه**، ثم يرقعه بفضلات، ويلبس الصوف الرفيع الذي هو أعلىٰ من القطن والكتان، **فهذا جمع فسادين**: **أما من جهة الدين**: فإنه يظن التقييد بلبس المرقع والصوف، من الدين، ثم يريد أن يظهر صورة ذلك دون حقيقته، فيكون ما ينفقه علىٰ ذلك أعظم مما ينفق علىٰ القطن الصحيح، وهذا مخالف للزهد، وفساد المال: بإتلافه وإنفاقه فيما لا ينفع لا في الدين ولا في الدنيا» ا. هـ.

وقال: «واللباس والزي الذي يتخذه بعضُ النُّسَّاك، من الفقراء والصوفية والفقهاء وغيرهم، بحيث يصير شعاراً فارقاً، كما أُمر أهل الذمة بالتميز عن المسلمين في شعورهم وملابسهم، . . **الصواب أنه جائز**: كلبس غير ذلك، . . فأما تقطيع الثوب الصحيح وترقيعه فهذا فساد وشهرة، وكذلك تعمد صبغ الثوب لغير فائدة، أو حكّ الثوب ليظهر التحتاني، . . وأيضاً فالتقيد بهذه اللبسة بحيث يَكرَه اللابس غيرها، أو يُكره أصحابه أن لا يلبسوا غيرها، هو أيضاً منهيٌ عنه» ا. هـ.

ثانياً: بعض الصوفية يتعمد لبس الصوف الخشن لتعذيب النفس، وإظهار الولاية والزهد، فبين شيخ الإسلام أن لبس الصوف، أو الخشن من الثياب ليس دليلاً علىٰ الولاية، وليس لأولياء اللَّه تعالىٰ لباس يتميزون به عن غيرهم.

قال الشيخ: «وليس لأولياء اللَّه شيء يتميزون به عن الناس في الظاهر، من الأمور المباحات، فلا يتميزون بلباس دون لباس، إذا

---

(١) رواه البخاري ابن عباس رضي الله عنه.

كان كلاهما مباحاً، ولا بحلق شعر أو تقصيره أو ظفره إذا كان مباحاً، كما قيل: «كم من صِدِّيق في قباء، وكم من زنديق في عباء»، بل يوجدون في جميع أصناف أمة محمد ﷺ، إذا لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة والفجور، فيوجدون في أهل القرآن، وأهل العلم، ويوجدون في أهل الجهاد والسيف، ويوجدون في التُّجَّار والصُّنَّاع والزُّرَّاع» ا.هـ.

ثم بين الشيخ: **هل يُمدح أحدٌ بلبس الصوف؟ فقال: أثناء كلامه عن غلوّ الرافضة في آل البيت وكذبهم عليهم لإظهار فضائلهم**: «وأما قوله عن الحسن إنه لبس الصوف تحت ثيابه الفاخرة فهذا من جنس قوله في علىٰ إنه كان يصلي ألف ركعة فإن هذا لا فضيلة فيه وهو كذب وذلك أن لبس الصوف تحت ثياب القطن وغيره لو كان فاضلاً لكان النبي ﷺ شرعه لأمته إما بقوله أو بفعله أو كان يفعله أصحابه علىٰ عهده.. وقَصْدُ لُبْسِ الصوف دون القطن وغيره ليس بمستحب في شريعتنا ولا هو من هدىٰ نبيناﷺ، وقد قيل لمحمد بن سيرين إن قوما يقصدون لبس الصوف ويقولون إن المسيح كان يلبسه فقال هدىٰ نبينا أحب إلينا من هدىٰ غيره» ا.هـ.

ثالثاً: ما يفعله بعض مشايخ الصوفية من إلباس المريدين الخِرقة، هو من البدع، ولا يُعرف لذلك أصل عن الصحابة ولا التابعين:

قال الشيخ: «وأما لباس الخرقة التي يُلبِسُها بعضُ المشايخ المريدينَ: فهذه ليس لها أصل يدل عليها الدلالة المعتبرة، من جهة الكتاب والسنة، ولا كان المشايخ المتقدمون وأكثر المتأخرين يُلْبسونها المريدين، ولكن طائفة من المتأخرين رأوا ذلك واستحبوه، **وقد استدل بعضهم**: بأن النبي ﷺ ألبس أمَّ خالد بنت خالد بن سعيد

ابن العاص ثوباً وقال لها: (سَنَا)[١]، والسَّنا بلسان الحبشة: الحسن، وكانت قد وُلدت بأرض الحبشة فلهذا خاطبها بذلك اللسان، واستدلوا أيضاً بحديث البردة التي نسجتها امرأة للنبي ﷺ: فسأله إياها بعض الصحابة فأعطاه إياها، وقال: أردت أن تكون كفناً لي[٢].

وليس في هذين الحديثين دليل علىٰ الوجه الذي يفعلونه، فإن إعطاء الرجل لغيره ما يلبسه، كإعطائه إياه ما ينفعه، وأخذ ثوبٍ من النبي ﷺ علىٰ وجه البركة، كأخذ شعرة علىٰ وجه البركة، وليس هذا كلباس ثوب أو قلنسوة علىٰ وجه المتابعة والاقتداء، ولكن يشبه من بعض الوجوه خُلَع الملوك التي يخلعونها علىٰ من يولونه، كأنها شعار وعلامة علىٰ الولاية والكرامة، ولهذا يسمونها تشريفاً، وهذا ونحوه غايته أن يُجعل من جنس المباحات، فإن اقترن به نيةٌ صالحةٌ كان حسناً من هذه الجهة، وأما جعل ذلك سنة وطريقاً إلىٰ اللَّه سبحانه وتعالى فليس الأمر كذلك» ا.هـ.

ومما سبق يتبين أن تظاهر فريق من المتصوفة بلبس الخرق واعتقادهم أن لبسها من أيدي المشايخ يكون له تأثير في سلوك الطريق والثبات عليه، وتظاهرهم أيضاً بلبس المرقعات والتعري وإظهار التقشف، كل هذا من الابتداع واتباع غير سبيل المؤمنين.



---

(١) الحديث رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه.

الخاتمة

وبعد هذه المباحث المتواصلة التي شملت عدة فصول في آراء الصوفية التي حكاها شيخ الإسلام وموقفه منها، وتعليقه عليها، نصل إلىٰ خاتمة هذه الرسالة، ونخلص بالنتائج التالية:

١ ـ أن مذهب السلف يقوم علىٰ قواعد ثابتة، تعتمد علىٰ الوحيين: الكتاب والسنة، وكل من ادعىٰ النجاة أو اتباع السلف لم تقبل دعواه ما لم يكن منهجه واضحاً مستقيماً موافقاً للكتاب والسنة.

ومن خلال ما سطره أئمة أهل السنة والجماعة من القرون المفضلة وغيرها، تكونت معالم بارزة، ومنطلقات واضحة، حددت المنهج الحق لمن أراد سلوكه، والطريقة الصحيحة لمن أراد نصرة الدين أو دعوة الناس إليه.

٢ ـ من خلال عرض حياة شيخ الإسلام، وأحوال الأمة في عصره، تبين كيف كان عصره مليئاً بالأحداث الجسام، وتمكن المبتدعة في كثير من البلاد، حتىٰ تصور عامة الناس أنهم أهل الحق، وأن النجاة في اتباع هذه المناهج المبتدعة، ومع ذلك كان شيخ الإسلام علَماً بارزاً، وإماماً عظيماً، ومصلحاً مناضلاً عن الكتاب والسنة.

٣ ـ لم يكتف شيخ الإسلام بالرد علىٰ المبتدعة ومناظرتهم باللسان فقط، وإنما ألّف كثيراً من المصنفات في الرد علىٰ المبتدعة، وبيان باطلهم، وترك لمن بعده تراثاً ضخماً، تمثل في عشرات المجلدات في شتىٰ الفنون، يجمعها الدفاع عن مذهب السلف والرد علىٰ خصومه.

٤ ـ بتتبعي لكتب شيخ الإسلام واستقرائي لها كلها خرجت بنتيجة مهمة، وهي أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان له منهج واضح في عرضه لعقيدة أهل السنة والجماعة، والرد علىٰ المخالفين، وأبرز معالم هذا المنهج ـ إضافة إلىٰ اعتماده علىٰ الكتاب والسنة وأقوال السلف، وتأدبه بآدابهم ـ ثباته علىٰ منهج محدد؛ فلم يتناقض ولم تتغير آراؤه أو قناعاته، ولم تختلف به المناهج والسبل كما حدث لغيره، وإنما بقي ثابتاً صامداً مع كثرة المحن والأحداث التي مرت به، وهذا واضح جداً لكل من قرأ كتبه التي وصلت إلينا؛ فإنها علىٰ كثرتها وتنوعها، وتكرار مواضيعها لم يُلاحَظ ـ أبداً ـ عليه تناقض أو تراجع أو تردد[1]، وهذا راجع إلىٰ سلامة المنطلق والأساس الذي كان يعتمد عليه في كتبه.

٥ ـ أما الصوفية فقد عرض الشيخ آراءهم من خلال ما كتبوه هم أنفسهم، وفصل الشيخ عقائدهم في الأبواب المختلفة، العقدية منها والسلوكية، ومن منهج الشيخ أنه لا يكتفي بعرض المذهب، بل يرد عليه ويفنده، ويذكر ما فيه من حق وباطل.

---

(١) وهذا المنهج يفقده جميع أهل البدع، فإنك إذا نظرت في مصنفاتهم تجد أن الواحد منهم يثبت في موضع ما ينفيه في موضع آخر، وشنع في موضع علىٰ مذهب، ثم تجده يختاره في موضع آخر، وسبب ذلك عدم اعتماد أهل البدع علىٰ أصول وقواعد ثابتة، بل هي آراء رجال وكلما مات رجل وخَلَفه آخر، غيَّر وبدّل، أما شيخ الإسلام فتجده يتكلم عن الاستواء ـ مثلاً ـ في رسالته إلىٰ أهل واسط فيقرر معتقد أهل السنة والجماعة، ثم يتكلم عن الاستواء في رده علىٰ الرازي فيقرر ما كان قرره أولاً، ثم يتكلم عن الاستواء في التدمرية فيقرر المعتقد نفسه، لا يختلف أبداً ولا يتناقض، لأنه يقوم علىٰ أسس من الوحي الرباني لا من آراء البشر وعقولهم.

٦ ـ أن الصوفية بحثوا عن الهداية في غير الكتاب والسنة، فوقعوا في الضلال والغواية، وكلّما تقدم بهم الزمن، وتباعد العهد عن القرون المفضلة زاد الضلال، واتسع الخرق، ولا يزال ضلالهم في زيادة إلىٰ اليوم.

٧ ـ تقديس المتصوفة لأشخاص الأولياء والصالحين أوقعهم في ضلالات وشركيات كثيرة متنوعة، في الألوهية، والدعاء والاستغاثة، والخوف والرجاء، وإسقاط التكاليف الشرعية، وغير ذلك.

٨ ـ بدع المتصوفة وانحرافاتهم قسمان:

الأول: عقدية: كالقول بالحلول والاتحاد، ودعاء غير اللَّه، وغير ذلك.

الثاني: سلوكية: كالتعلق بالمردان، واستحلال السماع البدعي، وغير ذلك.

٩ ـ من خلال ردود الشيخ ومناقشاته للصوفية، برز في منهجه أمران:

الأول: إنصاف الشيخ خصومَه الصوفية، وذلك باعترافه بما معهم من حقٍ ـ وإن كان قليلاً ـ وعدم التعميم في الحكم عليهم بالبدعة، بل تفصيل حالهم.

الثاني: الرد علىٰ المتصوفة فيما خالفوا فيه مذهب أهل السنة والجماعة مع ذكر قواعد الردود وتأصيلها، إضافة إلىٰ الإحاطة والمناقشة المفصلة للمسائل التي خالف فيها الصوفية أهل السنة والجماعة.

وفي الختام فهذا جهد المُقِلّ أقدمه، راجياً من اللَّه تعالىٰ أن أكون قد وُفقتُ فيه للصواب، وأنا مقرٌ ومعترف بأن ما كان من صواب فيه

فبتوفيق اللَّه وفضله، وما كان فيه خطأ فهو من نفسي ومن الشيطان، وأستغفر اللَّه تعالىٰ منه.

وآخر دعوانا أن الحمد للَّه رب العالمين، واللَّه أعلم، وصلىٰ اللَّه وسلم علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.



الفهرس

